المسخوط من سيرة على بلوط

عبد الفتاح مرسى

الطبعة الأولى

الناشــــر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
ت : ٥٣٥٤٤٣٨ ــ الإسكندرية

عبد الفتاح مرسى
المسخوط من سيرة على بلوط.....رواية
كمبيوتر : دار الوفاء (علا علاء)
الطباعة : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
ش ملك حفنى ، قبلى السكة الحديد
بجوار مساكن دربالة أمام بلوك ٣
ص.ب. ٢١٤٤١١ فيكتوريا ــ اسكندرية
تليفون : ٥٣٥٤٤٣٨ ــ الإسكندرية
رقم الإيــداع : ١٠٢٣٦ /١٩٩٨
الترقيم الدولى : 6 - 05 - 5904 - 977

المسخوط من سيرة على بلوط

هذه الرواية

بدأ توظيف التراث ببدايات الرواية المعاصرة، ممثلة فى أعمال جرجى زيدان، مروراً بأعمال فريد أبو حديد والعريان وجاماتى ومحفوظ وباكثير والسحار وعادل كامل ومكاوى، وانتهاء بالأجيال الحالية التى تجد فى توظيف التراث سعياً لإيجاد رواية عربية، تصل الأصالة بالمعاصرة، تفيد من الأشكال الروائية العربية القديمة، ومن فن الرواية الأوروبية فى أحدث معطياته..

والملاحظ أن معظم الروائيين الذين حاولوا توظيف التراث لم يقتصروا على البعد الواحد. فقد كتب نجيب محفوظ ــ على سبيل المثال ــ ليالى ألف ليلة وكفاح طيبة وأدوبيس وعبث الأقدار، وكتب ــ فى الوقت نفسه ــ الكثير من الروايات التى تهبنا لوحة متكاملة لحياتنا المعاصرة... وكتب سعد مكاوى السائرون نياماً والرجل والطريق والكرباج، بالإضافة إلى تصويره الواعى للحياة المعاشة فى قريته الدلاتون... وإلى جانب أعمال فريد أبو حديد التى توظف التراث، تبدو رواية "أنا الشعب" من أهم الأعمال ذات الاتجاه الواقعى..

والأمثلة تتعدد، وترفض مزايدة البعض بأن الواقع المعاش هو ما يجب أن نعنى به فى أعمالنا الروائية... فمحاولات توظيف التراث تتوازى مع محاولات تأكيد الخصوصية للرواية العربية المعاصرة..

الفن يختلف ــ فى صميمه ــ عن مقولة الشرق القائم على الأسطورة والسحر والمعتقدات البالية، والغرب القائم على العلم والعقل والتقدم..

وإذا كان جيل الروائيين الحالى قد انتزع من النقاد ــ حتى هؤلاء الذين اقتصرت كتاباتهم ــ لسنوات ــ على نقد الشعر ــ بأن الرواية هى الآن ــ وليس الشعر ــ ديوان العرب، فإن تأكيد الهوية العربية لإبداعاته شاغل يجب أن يعنى به.. والمثل فى رواية أمريكا اللاتينية التى حققت عالميتها بتميزها، بتوازى ــ وتداخل ــ المحلية والواقعية السحرية والأسطورة والموروث الشعبى..

لتراث ليس ــ كما يصور البعض ــ سلبا مطلقا تكتنفه الغيبية وضيق الأفق والتعصب والأسطورية..

الدعوة إلى الهدم الكلى للتراث، سعيا إلى التقدم، تساوى الدعوة إلى تقويض الطوابق الأولى من بناية، لأنها تبدو أقل جمالا من الطوابق العليا..

وفى المقابل فإن استعادة التراث، التواصل معه، توظيفه، يعنى العودة إلى الجذور الحقيقية، والتعبير ــ من ثم ــ عن تفرد الخصوصية..

إن الأدباء الذين يحاولون توظيف التراث ليسوا "دراويش" فى تكية التراث. إنهم يحاولون التجريب، والإضافة، ورسم الملامح التى تؤكد الهوية..

توظيف التراث يعنى إعادة اكتشاف الطاقات الفاعلة فيه، ليس بالإنكفاء على الماضى، ولا اعتباره النموذج الذى يصلح لكل زمان ومكان، إنما بتمثل هذا التراث، والاعتزاز به كثقافة قومية أصيلة، بهدف الانطلاق إلى المستقبل..

لقد كتب ستيفان زفايج إرميا، وكتب رسالة من امرأة مجهولة.. وكتب البير كامى الطاعون وكاليجولا... وانطلقت

أعمال جابرييل جارثيا ماركيث فى الزمان والمكـــان.. وقرأنـــا لعادل كامل مليم الأكبر وملك من شعاع، وللسحار فـــى قافلـــة الزمان ورواياته التى تروى تاريخ الإسلام... ولأبو المعاطى أبو النجا العائد من المنفى وعشرات القصص القصيرة التـــى تعنـــى بهمومنا المعاصرة.. والقول بأن الروائى يجب أن يكون له عالمه المحدد، ينطوى على سذاجه بالغة، لأن الخيال هو أهم ما يمتلكه المبدع.. ومن الصعب أن نقيد الخيال فى حدود زمانية ومكانية. قد يعبر الروائى عن واقع نحياه، وقد يوظف التراث بمـــا يعـــبر عن الواقع الذى نحياه، وقد ينطلق فى محاولات تحرص علـــى الجدة والتجريب، إرتكازا إلى ثقافة متعمقة..

وظنى أن محاكاة الرواية الأوروبية، بل وتقليدها فى كل ما تقطعه من خطوات، هو الخطأ الذى يجب التنبه له، وتداركه، وإن لم نتفق على أن القصة المصرية القديمة "الأخوين" كـــانت هى العمل الإبداعى الأول فى العـــالم،وأن الأعمـــال الروائيـــة العربية تنتسب إلى بدايات الرواية عموما.. فـــلا أقـــل مـــن أن نجاوز مرحلة التقليد والمحاكاة، إلى مرحلة التعبير عـــن الـــذات والخصوصية..

إن بانوراما الحياة العربيـــة تتســـع، فتشمـــل الحـــاضر والماضى، وتشمل التاريخ والجغرافيا والموروث بكل أبعاده..

وبديهى أن تتحرك إبداعاتنا فى ذلك الاتســـاع الرحـــب، فتعبر عن ملامح مميزة، وخصوصية مؤكدة!

مع ذلك، فإنى أختلف مع محـــاولات اســـتخدام اللغـــة التراثية فى الإبداعات المعاصرة. العمل الإبداعى الذى يوظف التراث قد يعنى بمفردات لغة العصر الذى يصوره، لكن الفنـــان يضفر تلك التعبيرات بلغته، أى لغة الفنان، فنيته الخاصة، بمـــا يتـــواءم مع لغة العصر الذى يحيا فيه. ولعلى أذكر بما كتبـــه طه حسين ردا على رسالة للرافعى : "أما أنا، فـــأعتذر للكـــاتب

الأديب إذا أعلنت ــ مضطراً ــ أن هذا الأسلوب الذى ربما راق أهل القرن الخامس والسادس للهجرة، لا يستطيع أن يروقنا فـــى العصر الحديث"... ولعلى أذكر أيضاً بكتابات المتنبـــى الأثريـــة، فهى تستعصى على المتفقهين فى اللغة، فضلاً عن الأدباء!..

إذا كان أحمد خيرى سعيد وأحمد شوقى قد حاولا ــ فى روايتين لهما عن "على بك الكبير" كتابـــة الروايـــة التاريخيـــة، التعامل مع أحداث التاريخ باعتبار أن الواقعة مقدســـة والـــرأى حر، فإن عبد الفتاح مرسى ــ فـــى هـــذه الروايـــة ــ يوظـــف التاريخ، يخضعه لاعتبارات الفن مهمة الفنان تختلف عن مهمـــة المؤرخ أو الفيلسوف، فهو ليس مطالباً بأن يعكس الواقع بأكمله

العمل الفنى هو تجربة الفنان. كمـــا أن التـــاريخ هـــو تجربة المؤرخ، ومن هنا فنحن نناقش فى الفنان عملـــه الفنـــى، بينما ندرس فكر المؤرخ ونوازعه..

والمواربة هى الفن. ينبغى ألا يتسلم القارئ بضاعتـــــه جاهزة تماماً، إنما عليه أن يشارك فى تصور ماذا ستكون عليـــه النهاية. كذلك فإنه لابد من هامش يفصل بين الحقيقة والرمـــــز. الوضوح الحاسم يسم العمل الفنى بالتقريرية والمبـــاشرة. الفـــن ليس هو الواقع، لكنه الإيهام بالواقع. إذا وضع الفنان قارئه فى اعتباره مطلقاً، واجتهد فى الشرح والتبسيط، فهو يلغى ذكاءه..

ثمة رأى أنه من طبيعة الفن أن يكون ناقصـــاً, ولعلـــى أوافق على هذا الرأى، ارتكازا إلى أن المتلقى ينبغى ــ كما قلت ــ ألا يتسلم بضاعته جاهزة تماماً، إنما عليـــه أن يشـــارك فـــى تصور ماذا ستكون النهاية..

وإذا كان من عمل الناقد ــ كما يقول ستانلى هايمـــان ــ "عندما تتسع الهوة بين الأدب الجد وذوق القراء، هو أن يكـــون همزة وصل بين العمل الغامض أو الصعب، وبين المتلقى" فـــإن

للمباشرة عيوبها ــ وللغموض ــ إذا كــان وليــد الضعــف أو الضحالة ــ عيوبه أيضا.

يغيظنى أن يكون الغموض بلا ضرورة فنية، يفرضــــه الكاتب من خارج العمل ولا يأتى من داخله. فإذا حاول النـــاقد تفسير العمل الفنى، فإن عليه أن يكشف المبـــاشرة الزاعقـــة، أو الوعظية، أو يوضح دلالات الغموض إن كان مما يفرضه العمل الفنى ويتحمله..

بالإضافة إلى ذلك، فإن الشخصية المحددة، المســـطحة الملامح، يصعب أن تكون شخصية حقيقية. الشخصية الحقيقيـــة مركبة، تجسد تعقيدات الطبيعة البشرية، وتنوعـــها، وتتبــاين ــ ربما إلى حـــد التضـــاد ــ انفعالاتـــها وتوتراتـــها وغرائزهـــا ومشاعرها..

واللافت فى أعمال عبد الفتاح مرسى أنه يجيد تضفـــير الموروث الشعبى : الأسطورة، الحكاية، الحدوتة، المثل، اللغز... إلخ. بالإضافة إلى تفهمه الواضح ــ على حد تعبير همنجواى ــ أن النثر ليس مجرد زخارف على الهامش، لكنه بناء معمـــارى فنى شديد الحيوية. والعمل الفنى يتألف من عناصر فنية، لكـــل منها وظيفته المحددة، والمرتبطة عضويـــا بوظـــائف العنـــاصر الأخرى بما يحقق التفاعل بين كل العناصر، تحقيقا لعمـــل فنـــى يسعى إلى التفوق..

هذا فنان يمتلك أدواته، فقاموسه اللغوى واضح الـــثراء، لا يكاد يلح على كلمة أو جملة، إنما هو يستخدم كلمات أو جملا أخرى، ويحسن اختيار الكلمة الأصدق تعبيرا، ويجيد موســـيقا اللغة وإيقاعها، ونقل المعنى بما ينبو عن الجفاف أو المباشرة أو التلغيز..

محمد جبريل

إهــداء

إلى (الصديق) الذى استجاب لأمنيتـــــى
فــإذا به يتحول مـــن (تاجـــر) إلـــى
(فنان) يســتبدل الحديــث فــى الربــح
والخسارة
إلى إحصاء فى احاسيس الأدباء ورقـــة
المشاعر .
إلى الناشر الطموح

سمير عبد العال

الذى يتحمل شطحاتى

اهدى روايتى

عبد الفتاح مرسى

(١)

منذ طلوع الشمس ، بدأ توافد الفقراء والشحاذين مـــن أطراف القاهرة ، تجمعوا في ميدان الرميلة ، تحت أسوار القلعة .. كـان الجوع قد عضهم ، فذبلت أبدانهم وأضـافت الأثمـال البـالية على هيئتهم مزيدا من البؤس ، وكان أمـراء الممـاليك قـد نفضوا يدهم من (الباشا) وسـنكروا علـى الغـلال ، وأخروا وصول المراكب من وجه قبلي ، بمـا يعنـي السـماح للفقراء والرعاع والحرافيش بإعلان الشكوى والتظاهر .

وكان يقود هذه الشراذم أفراد لديهم بعض الاتصالات مع وضوح جزء من الرؤية لما يجرى في قصور المماليك ، ومـا يجري وراء أحجار القلعة الشاهقة ، وهنا يتجرأ الفقـراء علـى التـوافد ليسمع الوالي شكواهم وصرخاتـهم رجـالا ونسـاء ، شيوخا وصـبيانا تجمعوا في جماعات تتقارب ، ثم تلتحم فـي كتلة مفككة لتتناثر شراذمها تحت أسوار القلعة ، ليتشاكى بعضهم لبعض ويرفعوا وجوههم إلى تلك الأسـوار الحجريـة الصلـدة والـقباب المغبرة ، والمآذن السامقة ، عندما تستقبل أولى خيوط الشمس ، فلا تستطيع هذه الخيوط تبديد أبخرة الليل الرطبة ..

ومن حين لحين تنطلق بعض الصيحات والصرخـات ، بينما الحراس فوق الأسوار القريبة والبعيـدة وخلـف الطيقـان المستطيلة ، يتابعون هذه الحشود في غير مبالاة ، فقد فسر لـهم أمراؤهم ما سوف يحدث ، وما اعتادوا حدوثـه ، عندمـا يقـع الشقـاق بين الباشا العثمانلي ساكن القلعة ، وأمـراء الممـاليك

ذوى الأطمـــاع التي ليس لها قرار ، تلك الأطماع التي تتضارب فيما بينهم ، وعندما ترفع رأسها تصطـــدم بأطمـــاع (الباشـــا) وحاشيته من العثمانلية ، في ذلك الوقت القصير الـــذي لا يكـــاد يسمح للوالي بأن يجمع جزءاً مما أنفقـــه علـــى رؤوس البـــاب العـــالي، لتعبيد الطريق إلى منصب الولاية وإرضاء الحـــراس من الحامية والوجاقلية ، وقد تفرغ الوالي وحاشيته إلى إخفاء ما تطوله أياديهم . أداروا وجوههم بعيداً عما يحدث بيـــن الوالـــي ورؤساء البلد ، تلك الفئة التي يستخدمها الباشوات في إدارة دفة البلاد لتصب خيراً في حجورهم .

والحراس وكأنهم من كثرة ما شاهدوا مـــن هبّـــات وكرشـــات ومظاهرات لتلك الحشود البائسة من الجوعى ، لم يعـــد الأمـــر يثيرهم كثيراً ، كما أن هذه الدعوات والتوســـلات والصرخـــات التي تصدر من الرعاع ، كانت لا تشكل خطورة كبـــيرة علـــى الأمن بل قد تأتي بالخير العميم عليهم ، إذا ما تواصلـــت حتـــى سقوط ذلك الباشا الـــذي قصرت يده عن العطاء لهم ، لعل الباشا الجديد يتوسل إلى تثبيت أقدامه بأن يعطيهم أولاً .. !

وحتى عندما تمادت الحشود تحت أسوار القلعة ، وازداد صراخها وعويلها وهتافها ضد (الباشا) . منغوماً ومنظومـــاً ، يطلقـــه أحدهم ، ويردون بعده ، صار الأمر بالنســـبة لعســـكر القلعة ورؤسائهم مسلياً ..

ولـــكن هذه الشراذم التي تجمعت في كتلة متفاعلة حول شرذمة منهم كثيرة الحـــركة والجلبة ، وقد اندفعت مقدمة الكتلة إلى درج القلعة فـــي شكل رأس مثلث يســـحب خلفـــه قـــاعدة المثلث، الذي يتماس بدائرة كبيرة ، لقـــد واصـــل رأس المثلـــث الصعـــود إلى القلعة ، اندفع ثم تمهل ، حتى لا يتحول المثلـــث إلى مستطـــيل . ثم جذب نحوه تلك الدائرة التي تزحف في بطء، ولعل رأس المثلث يجد صعوبـــة في إقنـــــاع قلـــب الدائـــرة

بالحركة ، صعودا على سلالم القلعة .. فقد وضح لـــهم الآن أن حراس القلعة من الحامية على خلاف أيضا مع الوالي ، وأنـــهم لن يتصـــدوا لهم . وعليهم الاستمرار في جلبتهم حتى يصلـــوا إلى مسعاهم .. إما أن يمنحهم الوالـــي الغـــلال والخـــبز مـــن صوامـــعه الخاصة ، أو ينثر على رؤوسهم الدراهـــم ليشـــتري سكوتهم . وإلا سيستمرون في الصياح والحركة والجلبة ، حتى يكافأوا من أمراء المماليك وقد حققوا لهم أهدافـــهم .. وخلخلـــوا قوائم مقعد الوالي ..

فليستمر رأس المثلث في الصعـــود إلـــى بـــاب القلعـــة الرئيسي هناك سوف تتضح كثير من الأمور ، إذا ما كان النفق بدون حراسة والباب مفتوحا ، للوصول إلى المـــيدان ، الذي منه تـــصل أصواتهم إلى مخدع الوالي ، خـــلف جدار .. أو جدارين على الأكثر .. ليس في غلظة أسوار القلعة أو ارتفاعها ..!

لكن الكتلة من الفقراء ، كانت تتفكك وتعود وتتشكل على هيئات مختلفة ، تتقدم سريعا علـــى ســـلالم القلعـــة العريضـــة الصاعدة، ما هي إلا بضع درجات ، ويصيب هذا الحشد شئ من التفكك والانبعاج ، عندما تتباطأ المؤخرة ، فيصير التجمع جسما ضخمـــا ورأسا صغيرا فوق عنق هزيل وطويل ، الرأس تزحف على السلالم العريضة ، والعنق يتمدد طويلا هابطا إلى أســـفل ، والجسم لا يتحرك من تحت أسوار القلعة .. ينبض قلـــبه بـــهلع الخـــوف ، مما قد تتقلب إليه تلك القلقلة .. كان من الواضـــــح أن القـــلة التي تهيج مشاعر هذا التجمع ، كانت غير قادرة على دفع هذا الجسم الضخم إلى أعلى القلعة ، ولكن بعد حيـــن مـــن المحاولات تفرز الكتلة العفوية زعماء جددا يصرخون بالرغبات الدفينة ويبثون الحماس .

فإذا بالعنق يقصر ويغلظ وإذا بالرأس يتضخم ، وتمتلـــئ الدرجات العريضة بالثائرين فيواصلون الزحف المتعثر إلى مقر

الوالي ، هذا الزحف ، الذي يفرز دوافعه ، فيسرع ثم يفرز صدأ الخوف فيتباطأ .. ولكنه في كل الأحوال كان يتقدم ذاتيا وبدون قيادة من المشايخ وأرباب السجاجيد ، الذين وقد أصابهم القنوط من ألاعيب أمراء المماليك ، ووعودهم الزائفة وتعهداتهم التي تنقض قبل عودة المشايخ إلى دورهم ..

والفقراء الجوعى ، صار لديهم إدراك بتوازن لحظة الأمان التي يثورون فيها ولحظة الخطر التي يسارعون بالانفضاض منها والإسراع بالفرار والعودة إلى منازلهم قبل أم تدهمهم خيول عسكر أحد الأمراء الموالين للوالي .. الشاذين عن اتفاق أمراء المماليك الذين لزموا دورهم ، وتركوا الوالي وحده في مواجهة صخب أولاد البلد خالي الوفاض - نعم - الذين لا يخسرون في هذه الهبات شيئا ذا بال ، ويخرجون عادة ببعض المكاسب التي تفوق قضاء ليلة في حلقة ذكر ، أو المشي من بلد إلى بلد من أجل فص من اللحم ، أو لقيمات ملغمطة في الثريد .. !

ومع أن صخب الفقراء كان في ذلك الصباح من بقايا أيام الشتاء، يرتطم بحجارة القلعة الصماء ونوافذها البعيدة ، وأبوابها المغلقة بإحكام ، مما يبدو أنه ضرب في الفراغ والصخر !

فإن الأصوات كانت بالفعل تصل إلى الوالي ، وتزعجه وتوقظه من نومه مذعورا ، وكانت التحليلات والآراء المقدمة له من خدمه الخصوصيين ، لا تجعله يهدأ، بل كانت تزيد من إزعاجه وتوتره ، وتجعله يعيد في ذهنه مطالب أمراء المماليك المتناقضة ، وكل أمير له تصوره ، ويريد منه أن يكون ألعوبة بين يديه ، يريد أن يكون ومماليكه سناجق وكشافا ورؤساء ، وكأن الوالي جاء من الشرق لأجل تنفيذ أغراض هذا المملوك وحده .

وللمماليك في توسلهم إلى أغراضهم ، لهم تلك النعومـــة الصفيقة أو تلك الصفاقة المغلفة بالحرير ، عندما يحنون الرؤوس أمام الوالي ليبلغوه تهديداتهم لــه ، وإذا مـا زادوا فـي تقديـم الاحتـرامات له أمام عامة الناس ، يكون عليه أن يسـلم لـهم مقاليد الولاية ويصيـر هـو مجـرد بـاصم علـى قراراتـهم المتضاربة التي سريعا ما تشعل الفتن ، أما إذا تصفـح مـاضي العلائق العثمانية بالمماليك ، فيكون عليه أن يعمل على إضعافهم وتشتيتهم وضرب الرؤوس الكبرى ببعضها ، وتسليطهم علـى العربان بأطراف الصحارى في وجه قبلـي أو بحـري . وقـد تستتب له الأيام لتطوى الشهور ، وأمير قوى يطارد فلول أمـير مهزوم وهو في طريقه إلى الشام أو صاعدا في طريقه جنوبا . لكن زعماء المماليك الآن يدفعـون بمقدمـات القلاقـل ضـده ويـتـركون العامة يصخبون في الميادين ، إلا إذا اطمـأنوا أن ما لديه من مال وغلال ، أقل كثيرا مـن أن يمنـح للوجاقليـة (حراس الأبواب السبع) أو للعامة من الجوعى ، فإنهم بمـهارة وخبرة سابقة يختارون الوقت الذي لا يمكنه فيه أن يفرط فيمـا جمـعه .

كـما يكون ليس لديه القوة ليضغط بها ليحصل علـى المال من التجار والعلمـاء وأربـاب السـجاجيد والطوائـف ، ليشتـرى للجوعى الغلال ويملأ أفواههم بالخبز .

والوالي في حرسه القليل وخدمه الخصوصييـن ، كـان يتابع الموقف ، ولعله يبحث لنفسه الآن عن منفذ ينفذ منـه بمـا حصل عليه ، ويترك لأمراء المماليك المتنازعين ، الجمل بمـا حمل فالوالي والوقت صار ليس في صالحه ، سـيكون مرغمـا على إفساح الطريق لتـلك المؤامرات التي يدرك بداياتها لكـي تأخذ طريقها المرسوم ، فمن اليـأس أن يسـتنجد بالنـار مـن الرمضاء ! بينما مدبروا الفتن القابضون علـى زمـام الأمـور

سيتمسكون بهدوئهم حتى تسقط الورقة الـجافة ، إيذانا بظـهور الجـديد ، يجعل المياه الرقراقة تتدفق في القنوات اليابسة .. !
وما دام هذا الموقف الذي يتكرر في هذه الأيام كثيرا ، قد حـان موعده ، كان على الوالي التركي وليس لديه من القوة العسكرية التي يخضع بـها منافسيه ، أن يفكر في الهروب بما خف حمله وغلا ثمنه ، تعويضا عن تلك النفقات التي تكبدها في البرطلـة ليصل إلى كرسي الولاية ، وعليه أيضا أن يبدو متماسكا أمام من حوله .

وبعضهم يعملون وشاة وعيونـا عليـه ، لـدى أمـراء المماليك لينقلوا لهم أحواله ، وليقولوا أنه حتى آخر لحظة كـان شجاعا ومتماسكا ، فإن هذا أيضا لابد وأن ينعكس على عسـكر الحاميـة فلا يتجرأون على المطالبـة بـأجورهم المتـأخرة ، ويكفيه منهم أنهم لا يحركون ساكنا أمام الرعاع ، وهو لن يطلب منـهم فعل أي شئ ، إذ يدرك أن أمراءهـم ينتظـرون هـذه الفرصة ليذكروه بمتأخراتهم ، على أمل أن يصيـب الغـاضبين ذلك القهر الذي يفل جهدهم ، فتخفت أصواتهم ، ويرحلون مـن تلقـاء أنفسهم حامدين الله أنهم أفلتوا من غضبة العسكر ضدهم.
وتنحسر الظلال ، وتعلو الشمس قبة السـماء ، فتبـدد الغبـار والأبخرة العالقة بأطراف المآذن والقباب وتعريجـات الأسـوار العالية .

وبالفعل تتضاءل حركة الفقراء والحرافيـش وتخفـت ، ويهمد الجوعى بفعل الإرهاق وعدم الاستجابة إلى صرخاتـهم ، وقد ألقـوا بكل ما في صدورهم من سخط ، ونفدت ذخيرتهم من اللعنات ، كما نفدت اللقيمات التي تبلعوا بها ، وفرغـت قـرب الـمـاء ، وكل شرذمة متعارفة ، دارت حول نفسها ، ثم أصاب الهمود معظمهم ، فصار جمعهم بطيئا ومتعبا كبقايا معركـة لا هازم فيها ولا مهزوم !

هنا تحين اللحظة التي يركب فيها الوالي فرسه ، ويسير به بين كوكبة من خدمه ، ويأمر بفتح الأبواب ويخرج إليهم يحاصرهم، وإذا بالخوف يعيد الغلظة لكثافة كتلتهم .. والوالي وخدمه يدفعونهم بصدور الخيول نحو الباب ، ليعيدوا صبهم على السلالم، فيتقهقرون دون مقاومة ، ليخلو منهم الحوش ، بعد انسيابهم على الدرجات إلى أسفل القلعة ، وتصير حركة خدم الوالي وحرسه بخيولهم . تحمل في طياتها إنذارا بأنهم إذا صعدوا سلالم القلعة مرة أخرى ، سيأمر عسكر الحامية العسكرية بقتلهم .. وهو في الواقع لا يستطيع صرف أوامره إلا على خاصته من مماليكه وخدمه ..

وقد يكون من سوء طالع الوالي ، أن ينقص النيل في فترة حكمه، فتعطش الأرض الزراعية ، ويشرب الخلق الماء الآسن المحمول على الحمير والجمال من البرك . فتنتشر الأمراض الفتاكة ، ويقع الغلاء ، عندها يمتنع الملتزمون عن دفع التزاماتهم ، ويتنصلون من توريد خراج الأوقاف وخراج الرزق المرصود للصرف على المساجد ، ومنها رزق المجاورين وطلاب الأزهر . فتختفي الغلال من الأسواق وأماكن الشراء ، وترتفع أسعارها ارتفاعا فاحشا وتتعطل الأفران عن العمل فيعز العثور على الخبز ، وتكثر حوادث السطو على المراكب ، وقطع الطرق ، وهياج العربان . وينصرف أمراء المماليك إلى تدعيم حراسة قصورهم ودورهم كما تغلق الحارات بالضبة والمفتاح ، بينما ينتشر الفقراء في الميادين بعيالهم ، ونسائهم ، يتصايحون في طلب القوت ويتخبطون بين أبواب قصور الأمراء والأغنياء من التجار وتلفظ الحارات – برغم احتياطات شيوخها – أفواجا من الجوعى .. يطرقون أبواب أصحاب الفضل من القضاة والشيوخ والأعيان .. ففي أوقات الرضا بين المماليك والولاة ، يأمرون بفتح عرصاتهم ،

وتزويد الأسواق بالغلال و إباحة المخزون من الأطعمة من سراديب قصورهم فتهدا النفوس . ويكف الناس عن تخزين ما تطوله أياديهم من صنوف الطعام والفواكه والخضروات .. فتنفك الأزمة ، حتى ترد المراكب من وجه قبلي ، محملة بالغلال وحيوانات الذبح .

أما إذا كانت العلائق سيئة بين (المصرليه) والعثمانليه. فإن أبواب الميسورين ، ستغلق أمام الفقراء والجوعى . ولا يبقى لهم إلا طريق وحيد . أن يقلقوا راحة الوالي حتى يهبط من القلعة ويرحل من حيث أتى ..!

وقد ثبت للمماليك ، فاعلية ضجيج الفقراء الجوعى ، فكم من الولاة تم عزلهم ، وكم من الرئاسات تبدلت ، وكم من الثروات انتقلت من يد إلى يد . وكم من الأموال المكتنزة ظهرت وعثر عليها .. أو أرغم مكتنزوها على الإفصاح عن أماكنها .. فعلى إثر توجيه ضجيج الفقراء ، والاستفادة من جوعهم .. تبدأ دورة حياة جديدة ، تتدفق في شرايين المجتمع الإقطاعي .. تحرك فيه دماء حارة بعد ركود ، وتبث في أركانه مزيدا من النشاطات المختلفة ..

إذ عندما يعلن في أرجاء المحروسة ، عزل الوالي .. وحضور باشا جديد ، يهب الجوعى فرحين بانقضاء الغمة فهم لخبرتهم الطويلة مع البكوات المماليك ، وباشوات الحكم العثماني ، تمرسوا على اللعبة ، عندما يأمر كبار الأمراء بفتح حاصلاتهم لتقديم الغلال ، وتعطى الإشارة بمتابعة إرسال المراكب التي تبحر شمالا .. هنا تهبط الأسعار التي علقت في السماء ، متهاودة ، ليبدأ الفرانون في تشغيل أفرانهم ، وتتدفق الإحسانات على الفقراء ، وتوزع على المساكين أرغفة الخبز المحشوة باللحم أو الفول النابت بواسطة الخدم ، مقابل

توجيه الدعوات باسم أسيادهم . وكلما كانت الدعـــوات طويلـــة ومبتكرة ، ازداد العطاء ..!

ثم تفتح الدكاكين والمقاهي ، وتغمر الأسواق بالمشترين والـــبائعين ، والمتسكعين ، ثم تمر مواكب الأمراء فـــي أكمـــل زينتها ، وأبهتـــها المعتادة ، ينثرون على رؤوس الفقراء أنصاف الفضة ، وتدب الحياة في المدينة بعد موات .

ويكون ذلك إيذانا بتبديل كثير من المناصب ، وبعـــض الرئاسات وتغيير معظم الولاءات عقب صعود الباشا الجديـــد ، وطلـــوعه القلعة . والفراغ من بصم الـــبراءات فـــي اختيـــار الأمراء الجدد ، ونفي الأمراء القدامى إلـــى المـــدن والمراكـــز البعيدة ، قبلي وبحري ، وعليه يبدأ الأمراء الجدد فـــي اختيـــار (ألاضيشهم) .

وهنا .. تنشط حركة التعمير ببناء القصـــور والمســـاجد الجديدة التي ستحمل أسماء الأمراء والكشـــاف والخـــازندارات الجدد . وسيجد الحرفيون نهاية لأيام البطالة والتعطل ،عندمـــا ينشغل الأمراء الجدد بحفر أسمائهم في أذهان خلق الله .

أما من دارت عليهم الدوائر ، سيرحلون إلى النواحـــي البعيدة أو المراكز القاصية ، وسينقلون معهم إلى هذه الأقاصي شيئا من تحضرهم وأبهتهم ، وقـــد ينشئـــون هنـــاك القصـــور والمساجد والمناضر .. وإن لم تكن في فخامة مباني (مصر) ، فإن حـــركة التعمير والتغيير – بنفيهم هنـــاك – ســـتصل فـــي ركابهم بالخير العميم – حتى أقاصي البلاد .. و .. رب ضـــارة نافعة .

فإن الاستقرار في تلك العصور ، لم يكن يفيد أهل البلاد في شئ، إلا أن يزيد من وطأة الفقر وركود الحيـــاة . أمـــا القلاقل والتغيير – مهما كان مصحوبا ببعض الأخطار – فـــإن في ذلك استخراج ما تحت البلاطة ، وتدفـــق حركـــة العمـــران

مصحوبة بشيء من الكرم الطارئ ، الذي سريعا ما ينكمش لتبدأ من جديد حركة التذمر .
لإبراز أهم سمات العصر العثماني المتأخر ، الذي تركــز فــي (مصر) ، وعندما كان يقال في ذلك الزمن : (مصر) يعنــي ذلك تحديدا .. (القاهرة) .. فقط .

** ** **

(٢)

عندما قتل (شيخ البلد) حسين بيك القاذدغلي ، تعين في مشيخة البلد من بعده (على بيك تابع صابونجي) ذلك بعـــد أن تعفف (عبد الرحمن كتخدا) عن منصـــب (أمـــير الأمـــراء) واستنفدت جهود (البكوات) ليتولى المشيخة ، وهو أحـــق بـــها ولكنه أبى وتمسك بموقفه .

وقد أزعج هذا التعفف مماليكه ، الذين كانوا يتطلعـــون إلى شغل الإمارات والسنجقيات والرئاسات ، بصعود (أستاذهم) إلى مشيخة البلد .

لكن (عبد الرحمن كتخدا) لم يكن في طموح والـــده ، يبغي الزعامة ويتطلع إلى المزيد ، فقـــد ورث جاهـــا عريضـــا وكثرة من المماليك وثروة طائلة ، ورأى أن يستمتع بذلك الجـــاه وأن يدير البلد من وراء ستار ، فتكون له الحسنات ويكون على غيره السيئات .. !!

وكان مع تعففه عن الظهور ، قد قيد منصب شيخ البلـــد بما يراه ويقترحه ، وذلك لأفضال المرحوم والده علـــى معظـــم المماليك ، وصناعته لجملة من الرئاسات والأمراء ، ومعظمـــهم من خاصته ومماليكه وبذلك ورث (عبد الرحمـــن) ســـيادتهم وأستاذيتهم . وقد ارتدى عبد الرحمن كتخدا ، ثوب التدين متشبها بعلماء المسلمين ، ومحاطا بالشعراء وعلماء الديـــن ، فاشتـــهر بالفضيلة والورع .

ورأى كبار مماليكه ، أن هذا الورع يخفي ماجنا يعيش لملذاتـــه ولا يريد أن يشغل نفسه بأعباء الحكم والدولة ، وقد احتفظ لنفسه بالكلمة الأخيرة في أدق الأمور ، فلا يستطيع (شيخ البلد) وهو مهما كان من جملة المماليك تحاط رقبته بجميــل العتـــق مـــن والده ..!

وهو ابن أستاذهم ، وعليهم أن يطيعوه ، تلـــك الطاعـــة المقدسة التي جبلوا عليها ، لتحفظ لهم خشداشيتهم ، وترعى لهم دورهم وحريمهم وعيالهم وأموالهم ، حتى إذا ما انقلبـــوا علـــى بعضهم في نزاعاتهم التي لا تهدأ ، فـــإن الخلافـــات يحكمـــها (الأستاذ) ويبقيـــها دائما محصورة بين غريمين ، أو متنافسين، ولا تتعداهما ، فإن الصلح وإعادة التحالفات وارد ، فلا ضرورة للانتقام من الأولاد والحريم ، الذين ينتقلـــون مـــع الممتلكـــات الأخرى إرثا لزميله الذي يتمتع بالأقدمية أو المهارة في ركن من الأركان ، عندما يحل محل المقتول .

ومن هنا كان للأستاذ ذلك التبجيل المستمر ، فلـــم يكـــن أمام كبار مماليك عبد الرحمن كتخدا إلا الرضـــوخ لمـــا يـــراه صائبا.

ولكن عبد الرحمن كان يغضب على الطغاة الصغار من المماليك ، إذا ما حاولوا تضخيم ثرواتهم أو تكبير نفوذهم وكان يعمل على تحجيم من يراه يشذ حتى يبقى هـــو أمـــير الأمـــراء الفعلي دون منافس ودون أن يعرض نفسه للأخطار التي كـــانت تحيـــق بالقادة والزعماء بين المماليك ، والتي يساهم العثمانيـــة في استمرار اشتعالها والتكسب بها .

وسريعا ما رأى (على بيك تابع صابونجي) أنه خيـــال مآته ، وأن يده مغلولة عن تحقيق أحلامه في الرئاسة ، وكذلـــك أيادي مماليكه وتابعيه .

وكان عليه أن يعمل في الخفاء ، وبحذر شديد ، قام بالاستكثار من المماليك الجدد ، وأحضر مماليكه المنفيين ، واجتمع بكبارهم، وكان منهم (سليمان بيك الشابوري) و (حسن كتخدا الشعراوي) و (خليل بيك جاويش) و (أحمد بيك جاويش المجنون) وتشاور معهم في أمر (عبد الرحمن كتخدا) ، الذي لا يرحم ولا يسمح بأن يتصلوا بأرزاقهم التي منّ الله عليهم بها !!

وقال : سيبقى أستاذنا عبد الرحمن كتخدا ممسكا برقابنا يا بكوات ، يخنقنا وهو الذي يتنفس ما يريد من هواء ، وإن تعفف عن الرئاسة ، فهو الرئيس الفعلي بأعوانه ومماليكه ونفوذه الممتد إلى العتبات السلطانية ، فما العمل ؟

واقترح (سليمان بيك الشابوري) أن يتم كسب ثقته ونوه بأن ابن أستاذنا هو أستاذنا ، ورأى أن ممالأته لا تسبب ضررا كبيرا كالصدام به .. !

لكن (أحمد بيك جاويش المجنون) رأى أن مقتله سيحل أزمات كثيرة ، ستبقى طالما كان هو حيا يرزق ، وأنه لن يكف عن التدخل في حياتهم ، واعتبارهم من إرثه ، ورأى أنه شخص ضعيف يطلق العنان لملذاته ، ويدعي التدين ليخدع مشايخ البلاد وعلماء الدين !

وأخذ يحبذ تدبير التخلص منه ، مبينا أن ثروته التي لم يتعب في جمعها ، ستوزع على مماليكه (وستكون عونا لنا بينما فضائله التي يدعو إليها – فسيحتفظ بها لنفسه هناك في تربته !)

** ** **

وكان هذا الاقتراح من الجرأة ، وكأنه يعبر عما يجيش في صدور الحضور ، فقد استحوذ على لب (شيخ البلد) ، فطلب من الخدم إحضار المزيد من الطعام والشراب ، وبقي مطرقا

يتفكر في طريقة لتنفيذ هذا الاقتراح المجنون ، خاصة وأنه في هذا الوقت شيخ للبلد وبيده كثير من الشكليات التي يمكن أن يحيلها إلى قوة فعلية ترغم الكثيرين على الرضوخ لموقفه ، وبمركزه الحالي سيضع يده على جزء كبير من الثروة يقتطعه لنفسه طبقا للقانون والعوائد عند توزيع تركة القتيل ، ليقوى بها عهده ، ويسكت بها الأفواه التي تفتح ، ويطمس العيون التي ترى ما لا يراه .. !

وأراد (شيخ البلد) أن يستمع إلى المزيد من الاقتراحات ، فنظر إلى (حسن كتخدا) ،فرآه قلقا زائغ النظرات – قال له :

– لم نسمع صوتك يا أبا عليّ ، هل أزعجك اقتراح جاويش بيك المجنون ؟

قال حسن كتخدا وهو من خلاصة مماليك (كتخدا) ويحمل اسمه :

– أقول لكم الحق ، هذا الاقتراح لم يسعدني ، فأنا لا أتصور ابن أستاذنا مقتولا ..

تدخل خليل بيك جاويش وله نظراته الثعبانية وقال :

– إذا ، يوضع له السم في الطعام ، ففي هذه الحالة سيموت موتة طبيعية على فراشه ..

وقال جاويش بيك المجنون :

– في اختصار بضعة أعوام من عمر هذا الفتى ، لن يضره كثيرا ، بل سيفيدنا نحن إفادة جمة .. !

وواصل (حسن كتخدا) حديثه دون الالتفات إلى الجاويشية . وهما وإن كانا يحملا لقب مالكهما الأول ، فإنهما ليس بأخوة فلكل منهما طبيعته التآمرية ، التي تتناقض وطبيعة الآخر . قال (حسن بيك) : يا شيخ البلد ، عبد الرحمن شاب

طائش نزل أو طلع فهو صغير السن ، وكان يلعب بالنشاب في حجورنا في حياة والده ، وقد دلله سيدنا ، وساهمت أمه لخوفها على حياته بالاحتفاظ به داخل القصور ، حتى صار يكره الحرب ، ويخشى الفتن ، ويرتعب من رؤية الدماء ، إنه قد يعظنا وينصحنا مهما أتينا من أخطاء تخالف رغباته ولكني واثق بأنه لا يفكر يوما في اغتيالنا كما نفكر نحن الآن.

ضحك (جاويش المجنون) وهو يقول :

– وهل هناك عاقل يبدد ثروته هباء ، نحن مماليكه وثروته(يا حسن بيك) ، ولن نملك رقابنا إلا إذا أكل الدود قبضته ، أي نعم نحن أمراء الآن – ولكن باستطاعته أن يختلق لنا حربا أو نزاعا ، يترصدنا الموت فيه بكل خطوة نخطوها

وقال خليل جاويش : الحياة قصيرة يا جماعة .. ونحن خلقنا للحرب . أنها حربنا ، وثروته التي ساهمنا في جمعها لأستاذنا صارت في حوزته الآن .. هيا بنا نحصل على أنصبتنا منها !

والحديث المتبادل بين حسن بيك . وخليل وأحمد الجاويشيه كان يبسط شيخ البلد ، فكان ينقل النظر بين الأفواه التي تتحدث ولا يتدخل ، وعندما تحددت وجهتي النظر بين – الجاويشيه وحسن كتخدا الشعراوى .. تدخل شيخ البلد (على بيك تابع صابونجي) وقال لحسن بيك :

أنت تفكر بقلبك (يا حسن بيك) ، لقد أمضيت سنوات طويلة في المنفى على زمن حسين بيك القاذدغلى – لم يكن راضيا عنك . ولعل ثروتك الآن – بعد أن استحضرتك من منفاك على عجل ، لا تشترى لك ثلاثة بغال مطهمة .. أنظر إلى ما سينوبك من المال الظاهر – وما خفي كان أعظم .. لقد كون كتخدا الكبير ، ثروته العظيمة في أيام الرخاء .. وهاهو ولده عبد الرحمن ينفق منها ، ويتقوى بها علينا في أيام الضنك

ثم صمت – ليشاهد أثر حديثه ، لعله وجد لحديثه صـــدي على وجه (حسن كتخدا) الذي لاذ بالصمت ..

فآثر أن يضغط عليه برفق ويسلمه لأصحاب الموقـــف المناهض يواصلون الضغط عليه . حتى يستخلصوا منه هزة من رأسه بالموافقة .. ومع أن حسن كتخـدا بقـى صامتـا .. فقـد أعتبروا صمته وعدم مواصلة احتجاجه ، دليل الموافقـة علـى وضع خطه لقتل ابن سيدهم !..

** ** **

في شهر ذو الحجـــة عـام ١١٧٣ هجريـة – ١٧٦٠ ميلادية ، تقلد شيخ البلد على بيك تابع صابونجي إدارة الحـج ، برغم اعـتراضات بعض الأمراء ، للخطورة التي تكتنف هـذه الرحلة وما يترصدها من أخطار ، عندمـا ينتظرهـا العربـان للحـصول على أعطياتهم وأتاواتهم ، في حالة إذا ما كانت إمارة الحج قوية وقـادرة على الصدام معهم والتغلب عليهم أما فـي حالة قياس قوتهم ووجود ضعف بالقوة المرافقة لإمارة الحج .

فقد ينقلب العربان إلى قطاع طرق ، ويسلبون الحجيـج ثيابهم ومتاعهم ، ويقتلون من يقاوم من العسكر ويأسرون مـن يرون أن بإمكانهم افتداء أنفسهم بالمال ..

ومع وجود تلك الأخطار القائمة ، والتي يتجنب شيـوخ البلد التعرض لها ، فقد ألح (تابع صابونجي) على إمارة الحج في هذا الموسم ..

ولم يكن خافيا على أمراء المماليك المتآمرين ، أن شيخ البلد ينأى بنفسه بعيدا ، حتى يبتعد عن أرض مصر ، أثناء مقتل ابن سيدهم ووراثهم عبد الرحمن كتخدا ..

وقد قام بتوزيع الأدوار على أمراء المماليك الأربعـة ، وحذرهم من تقاعس أي منهم ، وإلا عرض الجميع لكارثـة .. وكان قد أضمر أن يقوم حال تنفيذ الاتفاق ، بسرعة العودة إلـى

مصر ، وإلقاء القبض على المماليك الأربعة ، ويسرع بإعدامهم، لتموت مؤامرة القاعة الزرقاء وتدفن معهم ويذهـــب الاقــتراح المجنون مع أحمد جاويش المجنون وأعوانه .

ومع أن (شيخ البلد) ، كان يقوم في الأيـــام الأخـــيرة لرحلة الحج بحياته العادية ، إلا أنه تلقائيا كان يكثر من الصـــلاة والسجود والانفراد بنفسه ، مع شعور بشيء من الأســـى علـــى النهاية التي تنتظر ابن أستاذه ، ولعله تخيله عدة مرات ، وهـــو يقتل ويستغيث وربما فكر مرة أو أكثر في أن يعيد بحث خطـــة جديدة ، لا تجعل (عبد الرحمن) يشعر بـــالألم الشديـــد ، وأن يتثبت قاتله من قدرة الضربة الأولى على إزهاق روحـــه دفعـــة واحدة ..!

ومع ذلك كان الحمل ثقيل على نفسه ، وينتظـــر بفـــارغ الصبر أن يحط هذا الحمل من التعليمات والأوامر والتصـــورات على الأرض ، ويستطيع أن يرفع قامته خفيفا كما كان قبـــل أن يشغل نفسه بتلك المؤامرة ، التي لا يفكر في الرجوع عنها ..

وبدأت الاستعدادات لخروج المحمل في احتفالاته المعتادة ، وتلك المهـــرجانات التي تشترك فيـــها مختلـــف الطـــرق الصوفيـــة بأعلامهم وبيارقهم وصنوجهم ودفوفهم وسيوفهم القديمة ..

و(شيخ البلد) لا يني يذكر أعوانه ، ويحثـــهم علـــى الحـــرص والحيطة وتنفيذ المطلوب والمرسوم ، بكل دقة ..

وقال له (سليمان بيك الشابورى) مداعبا :

– وأنت تضع يدك على قبر الرسول الكريم ، أدع لنـــا بالتوفيق والسداد يا أميرنا ..

فبسط شيخ البلد راحتيه أمام وجهه وأغمض عينيه فـــي ورع وأخذ يتلو دعاء واضح الكلمات ..

– اللهم وفق أعواني فيما انتووا عليه ، وسدد خطاهم –
آمين . وقام من فوره يصلي ، وقد أكثر من الاستغراق في قراءة ما يحفظه من القرآن الكريم ..

وهي عادة ، أن يضبط من ينوى الحج ، مواعيد الصلاة ويدخل في حالة من التعبد والاستغراق ..

وكان شيخ البلد يفعل ذلك ، وسطا بين الادعاء الزائف والاستغراق الحقيقي في طلب الحصول على تحقيق أمانيه ..

** ** **

(٣)

للحواري في (مصر) باب ضخم ، لا يسهل اقتحامه ، إلا باستعدادات لا يقدر عليها إلا العسكر ، يغلق هذا الباب فــي وجه الملمات والفتن التي تتواتــر طــوال العصــر المملوكــي والعثماني ، إلا في زمن السلاطين الأقوياء ، عندما يعملون على استتــباب الأمن ، لكثرة ما لديهم من أموال ، موقع المحروســة المتــوسط بين القارات أهم عــامل فــي ثرائــها ، حتــى تــم للبرتغاليين اكتشاف رأس الرجاء الصــالح ، وانقطعــت طــرق التجارة ونضب المعين – وثارت الملمات والفتن التي كانت سمه لعصر لايعترف إلا للأقوى ، وإذا مــا ضعــف ينقلــب عليــه (خشداشيه) وهم الزملاء الذين لا يكن أحدهم للأخر تقديــس أو تبجــيل إلا بقدر مايدرعليه هذا من فائدة ، ولكثرة هذه الفتن التي كان لها اكثر من وجه – فقد اعتاد الناس على القلاقل . فإذا مــا نشب الصراع بين (الانكشارية) بما في نفوسهم مــن اعتــداد بأنــهم المنتصرون وأن من يجاورنهم من الأمراء المماليك مــا هم ألا (عبيد) أطلقوا رقابهم بأيديهم شفقة ، ليكونــوا وســائط بينهم وبين أبناء البلد . وقد تعمدت السياسة العليا للباب العالي – أن تجعل لكل (كوم) قوته ومنطقة نفوذه ، حتى تبقــى القــوى متكافئة وفي صراع يستنزف طاقتهم جميعا ، فيكــون القضــاء على البقايا بأيسر التجريدات التي تأتى من الولايات المجاورة ... وكذلك كثرت القلاقل بين (العربان) وبين (الوجاقــات) مــن ناحية وبين أمراء المماليك –حتى يتمكن (الباشا الوالي) مــن

تدبير المطلوبات لرجال الدولة (العليا) ويحصل على نصيبـــه الذي من أجله يكون محل حسد من أقرانه عند اختياره واليـــا ..
وفي (مصر) ، كانت ابرز القوى المحلية – التي يمكنها تدبير القوة المناهضة .هم المماليك ، كعصبة محلية لم يسهل للعثمانيين اقتــلاعها . وإن عملوا بدأب متواصل على إضعافها وبث الفتن بين الثمانية آلاف مملوك ، الذين يمثلون وجه مصر الحضاري ، في بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر .. بقصورهـــم ، وخيولهم ، وأتباعهم ، وعاداتهم ، التي كانت تنعكس على أبنـــاء البلد تارة بالخير وتارة بالشر !!
ولما كانت تلوح في الأفق بوادر العصيان ، كان أبنـــاء البلد يغلقون على أنفسهم أبواب الحارات الضخمـــة ويتكرنكـــون خلفها ولا يفتحونها إلا بعد أن تهدأ الأحوال ..
وفي العادة ، كان يوجد لكل حارة باب . ويوجد عند كل مدخل للزقاق المؤدي إلى أكثر من حـــارة ، بـــاب رئيســـي . والباب عبارة عن قوس من البناء ، يعلوه صف من الفتحـــات ، ويغلق بمصراع كبير من الخشب المقوى بعـــوارض حديديـــة . وكان يحرس باب الحارة بواب ، في العادة هو عجوز له بقيـــة من قوة ، وله تلك الهيئة المتخشبة ، ويبدو لمـــن يشـــاهده أنـــه مربوط القـــدمين بجانب البوابة ، وقد صار جزءا منها. وذلـــك (البواب) يـــكون في حوزته مفتاح الباب ، وعليه يطمئن ســـكان الـــحارة ، فلا يوالس عليهم مع اللصوص والغرباء . ولابد وأن يتعرف عليهم ، ويتعرف على أقارب السكان معرفـــة شخصيـــة ليسمح لهم بالدخول أثناء الليل ، وإلا فلينتظروا استيقـــاظ (شيخ الحـــارة) فـــي الصباح ، ليتعرف على الغرباء . وعند (نقطة) مـــعينة على رأس مجموعة من الأزقـــة والحـــارات ، يكـــون هـــناك مكان معد لبعض رجال (الانكشارية) ، يربضون فيه ،

عادة يكون على ناصية زقاق يتعذر على جمل محمل أن يمر به دون أن يحتك حمله بالمشربيات البارزة .

وفي ذلك العهد ، لم تكن الحارات مخصصة للقيام بــأي دور دفــاعي ، في أوقات الحروب . وإنما نشأت لتأكيد الأمــن الليلي ، بمنع تجوال اللصوص والطــارئين ، الذيــن يمكــن أن يتسللوا خفية من أبواب المدينة وأسوارها ويلوذون بالــحارات إذ عندما يحل الليل ، تغلق البوابات على القاطنين فـــي الحــارات وكــان على أولئك الذين يرغبون في التنقل في تلـــك الســاعة مــن الليل الهاجع ، أن يحملوا فوانيس مضاءة ، فالبواب الكليل، لا يفتح الباب إلا لأبناء الحارة ، بعد أن يتعرف عليــهم جيــدا . وكذلك الزوار المعروفين له ، مقابل (جعل) متواضع لا يزيــد في العادة عن (بارة) . وبخلاف تلك العطاءات الطارئة التــي يحصـــل عليها البواب من الزوار أو المتأخرين فــي الحضــور إلى منازلهم من (العطيطة) . كان البواب يمنح وقــت توزيــع التركات ، التي ليس لها صاحب ، نسبة ضئيلة مــنها . وهـــذا الدخل بالكاد يوفر للبواب طعاما رخيصا بجانب ما يجـــود بــه الكرماء في المناسبات ، التي نظمها العهد الفاطمي واســـتمر بعضها قائما ، يختفي وقت الشدة ، ويظهر في أوقات الرخاء !. وكــان يشرف على البوابين قاضي المنطقة ، إذ كان يمنحهم من حصيلة الضرائب التي تحصل من الميسورين ، شيئا يقيمون به أودهم .

ومـــع أن الحواري كانت متجاورة ، إلا أن الانفصــــال كان قائما بينها ، ولهذا الانفصال فائدته أثناء الاضطرابات ، التي لا يخلو منها وقت ..

فما أن تلوح في الأفق نذر القلاقل والعصيـــان ، بيــن الحكام والعسكر، وأمراء المماليك . أو بين المماليك وأنفســـهم ، حتى تسنكر الدكاكين ، وتخلو العرصات من الغـــلال ، وتقفــل

الحـــارات . ثم تغلق بوابة الحي ، أو العطفة ، وكان ذلك يحقق فائدة مضاعفة لأطراف النزاع من ناحية ، ولأبناء البلـــد مـــن الناحية الأخرى . فذلك يضمن سلامة أهل الحارة ، وممتلكاتهم ، وحريمهم ، وأولادهم ، الذين يمكن أن يخطفوا ويباعوا صغـــارا في ولايات بعيدة ، لينشئوا نشأة المماليك .

ومن جهة أخرى ، كان ذلك يعوق حركة المتمردين في الحواري الضيقة المقفلة . فلا يكون لهم إلا الميـــادين والخـــلاء خارج (مصر) ..

ورغم ذلك ، فقد كان أبناء البلد يعانون من هذه الكرشات فالصراعات الدائمة كقانون يحكم العصر . ويحكم نظـــم الحكـــم المملوكية ، كانت ولابد وأن تتفجر بين وقت وآخر – ويشـــترك فيها أمراء المماليك وضباط الواجاقات الســـبع (الأنكشاريـــة) المـــأمورون بـــأمر الباشـــا الوالـــي . أو بيـــن الانكشاريـــة ، والعزبان فـــي صراعـــهم الدائـــم علـــى تقســـيم المنـــاصب ، والضرائب، والمتحصـــلات ، والحصـــول علـــى مزيـــد مـــن الامتيازات ..!

وقد ظل الميل للعصيان قويا ، وكأنه أحد معالم العصر . وكان هذا يجر الخراب على مدخولات علماء الدين ، وأربـــاح التجار ونشـــاط الحرفيين ، لـــكن عندما يحل الرؤساء والأمراء الجـــدد ، مكان القدامى الذين انهار عـــهدهم . ويصـــير علـــى التجـــار وشيوخ الحرف ، المساهمة فـــي تصحيـــح الأوضـــاع وجمع الأموال ، لبناء ما تم تخريبه..تبدأ الأحوال في الرواج .إذ أن فـــي القلاقل الكبرى ، كانت تكثر حوادث العنـــف ،وقطـــع ورود سفن الغلال من وجه قبلي إلى (مصر) ، ذلـــك عقـــب هروب المنهزمين إلى الصعيد .. وتتعدد حـــوادث الاغتيـــالات ونهب القصور ، وضرب البندق على الأحياء الآمنة .

مما يدفع أبناء البلد من الحرفيين والتجار ورجال الدين ، أن يتشجعوا ويتخذوا لأنفسهم وسائل خاصة للدفاع الذاتي ..كان من أبرزها ، تقويه أبواب الحارات ، حتى تمنع أي جماعة من المتنافسين أن تتكرنك بداخلها .. فيضطر الآخرون إلى هدم البيوت على من فيها ..!

إذ أن الأمراء والمماليك يعلمون أن بداخل الحارات بيوتا خاصة للأمراء المهزومين . وأمانات وضعوها في يد الثقات من أبناء البلد ، وهم عند اشتداد الأزمات ، ينقلون إليها الغالي والنفيس من أموالهم ، وعيالهم ، وحريمهم .. وثمة اتفاق بين الأمراء – غير معلن – أن يبقى الأولاد والحريم خارج النزاعات التي تنشب بينهم ، ويبقى هذا الاتفاق قائما ويراعى ذلك من جملة المماليك وأسيادهم . وينظر باحتقار شديد إلى من يضايق أولاد وحريم غريمه ، ويحاول أن يجعلهم رهينة عنده ، حتى يجبر خصمه على التسليم .. فمعظم المماليك الكبار تقريبا كانت لهم هذه الحياة المزدوجة القصر الكبير في الأزبكية أو بركة الفيل ، تلك الأماكن التي تطل على الميادين والبحيرات ، والبيوت السرية بداخل الحواري المغلقة بالبوابات المصفحة ..

وكان لهذه القاعدة بعض الاستثناءات ، التي يأتي بها ضعاف النفوس في أوقات الانحطاط . عندما يستخدمون الوسائل الدنيئة ، ويحطمون بيوت الحارات وأبوابها على من فيها . بحثا عن البيوت السرية للأمراء المهزومين ونهبها ، أو إرغام الذين فروا من بين أيديهم إلى الشام أو إلى الصعيد للعودة ، وهم هناك يلعقون جراحهم ، أو يدخلون في مفاوضات الصلح ، استعدادا لجولة أخرى .

** ** **

كانت الحارة تخضع لشيخها . ولكل عدد مــن الشيــوخ تجمعهم خارطة واحدة (نقيب) .. ويتساوى شيخ الحـــارة فـــي المكانة الاجتــماعية مع (شيخ الحرفة) ، ومـــن الممكــن أن يكون شيخ الحـــارة هو نفسه شيخ الطائفة أو الحرفة ، بنظامـــها المتوارث وهؤلاء المشايخ تسند إليهم مهام أمنية ، واجتماعية . ويضمنون الأهالي أمام الأمراء . ويمكن أن يقوموا بدور رجـــل الشرطة (المستخفظان) لحفظ الأمن ومراقبة العناصر المشبوهة والغريبة التي تسوح في البلد بدون إذن .

ويدعوهم القضاة للاشتراك في تصفية تركات الخاضعين لإداراتهم ، وفي مقابل تلك الخدمات ، يحصلون على نسبة مـــن التـــركات ، قد تصل في المعتاد إلى واحد في المائـــة ، وفـــي أحيان أخرى اثنان أو ثلاث بالمائة من مجموع التركـــة . فـــهم واســـطة اتصال بين (السلطة) والرعايا . وهم بالنظر إليهم من هذه الزاوية ، يصبحون (كأعيان) ، ويكـــون لوظيفتـــهم مـــن يحلـــم بها ويتطلع إليها – فيدس لهم – كمـــا أن شيـــخ الحـــارة وشيخ الطائفة ، لكي يستمرا شاغلين وظيفتيهما الإدارية كــــان عليهما أن يكون مسنودين من أحد البكـــوات ، أو ضـــابط مـــن الوجاقات ، أو على أقل تقدير من أحد الكشاف ، أو الذين سيكون لهم بيوت سرية في الحارات ، يحفظ أسرارها (شيخ الحارة) ، وطائفته وأهله ، ويدافع عنها ، وبرغم وجود هـــذه الثروات بين أيديهم ، فقد كان شيوخ الحارات أو شيوخ الطـــوائف ، أمنـــاء على أمـــوال وعيال وحريم الأمراء ، حتى إذا انهزموا وفـــروا من (مصر) أو قتلوا قد يتم عودة الحريم إلى أهاليهن خـــارج مصـــر ، أو يقوم شيخ الحارة بتبني الأولاد والبنات . وقد تتخفى النســـاء في ملابس أبناء الـــبلد ، وتقنع بما لديها مـــن ثـــروة قليلة أو كثيرة بالزواج من ابن أو قريب لشيخ الحارة .. وبذلـــك يتحسن النســـل في تلك الحارات ، بالبشرة البيضاء ، والشعـــور

الصفر والعيون الملونة ، أو يقوم الأمراء المنتصـــرون بضـــم حريم وأولاد غرمائهم إلى قصورهم .. لإعادة الكرة من جديـــد طبقا لقانون حركة الثروة بينهم ..!

وفي كل الأحوال ، كان شيخ الحارة أو شيـــخ الطائفـــة (محافظا) إزاء المظاهرات والهوجات الشعبية ، التي تعبر عـــن نفسها إزاء الـــظلم المتراكم الذي لا يجد له متنفســـا ، إلا فـــي مظـــاهرات دينية جماعية . وعليه في هـــذه الحالـــة أن يشـــي بأقاربه وأبناء حارته أو مهنته ، ويصير عينا للحـــكام على أبناء الحـــارة أو المهنة ، مضحيا بصلة القرابة والنســـب . فـــهذا الشيـــخ الذي يكون عادة قليل الثقافة ، وليس له جـــرأة رجـــال الدين في مواجهة الظلم ، يجد نفسه يقف وحيدا أمام غضب أبناء حارته أو مهنته ، كواحد من هرم السلطة الإقطاعية . الذي يتبوأ قمته الباشا (الوالي) ، وفي حوزته الفـــرق العســـكرية الســـبع بأطماعهما التي تعلو على سلطة ممثل الباب العالي . . .

إذ أن هذا الشيخ ، أثناء الأزمـــات ، ونـــدرة المـــواد الغذائيـــة وحـــركات العصيان ، والمؤامرات المنسوجة فـــي ليل .

والتي تشترك فيها أطراف متعددة ، مثل شيـــخ البلـــد ، والسناجق والمماليك من الخاصة ، وقد تنفلـــت هذه الحركـــات الشعبية بحثا عن الغلال والمـــواد الغذائيـــة فـــي العرصـــات ، والدكاكين هنا يكون دور شيخ الحارة ، كشيخ للطائفـــة . هـــو السيطرة على ما يخصه من أهل حارته أو طائفتـــه ، وإثبـــات ولائه للنظام ، وحـــث طائفته على عـــدم الاشتراك في النهب أو السلب .

وإذا ثـــبت عكس ذلـــك ، دفع هو من حر مدخراته ، أو من متحصلات طائفته ، الثمن غـــاليا . . . !

ومع أن حراسة المدينة كانت توكل إلى (المستحفظان) وهم حراس من الأنكشارية ، وقائدهم (أغا مستحفظان) . كان

على الشيوخ والأعيان من أبناء البلد ، أن يقوموا بدور الشرطة ، وحفظ الأمن في (مصر) وضواحيها .. وكان (أغا مستحفظان) عادة ، ما يصب جام غضبه على شيوخ الطوائف والحارات ، ويحملهم مسئولية المنهوبات وغرامات الحرائق ، وإعادة المسروقات ، وتعويض ما نهب من الدكاكين أو عرصات الغلال ، وما فقد من قصور الأمراء من الضباط ، والبكوات ، والكشاف .

** ** **

وكان الشيخ (منصور الأسيوطى) مسنودا من الأمير (عبد الرحمن كتخدا) . وكان للأمير أمانات في حارته وعندما استرخى الأمير الوارث منصرفا للتلذذ ، مكتفيا بالاستمتاع بما لديه ، نائيا عن التطلع إلى السلطة والنفوذ بشخصه مكتفيا بالتحاور عن بعد ، أرسل مملوكه (على بلوط جن) ليسترد ما لدى (الشيخ منصور) من أمانات في حارته ، لكن (على بلوط جن) كان يمتلئ بشعور غامض بأن نجمه سيكون في سطوع عن قريب ، فأخذ على عاتقه مساندة الشيخ منصور وولده حمدان ، ليكون له في حارته أمانات خاصة به، إذا ما تعقدت أمانيه ، ولم يسهل تحقيقها كما يرغب ، يودعها لديه وأخذ يفاوض في هذا الأمر ورحب الشيخ منصور بهذه العلاقة الجديدة ، وأدهشته بساطة هذا الأمير ، وأسئلته التي لا قرار لها ، كما أن الأمير تقرب من ابنه حمدان ، وأوجد له عملا في حديقة قصره الذي أتم بنائه ، عندما نجحت خطته وأكتسب ثقة أستاذه عبد الرحمن ، فقد ألحق حمدان كبيرا للجناينية في قصره الجديد ، وعندما تبوأ مشيخة البلد عقب قلقه من القلاقل . خطط لها بعناية ليرغم الباشا على إقرار الأمر الواقع عقب فرار المنهزمين من الأمراء ، ووزعت ثرواتهم على المنتصرين ، بما فيها مناصبهم ووظائفهم .

لم يكن الشيخ (منصور الأسيوطي) يتخيل بـــأن هــذا المملوك ذا الجســم الضخم ، والوجــه ذي الملامح الكبـــيرة ، التي تبعــث الشعور بالوداعة ، سيصـــعد نجمه سريــعا إلــــى كرسي المشيخة.

ويكون هو ظهره في حارته مسنودا من أمير الأمراء ، في ذلك الوقت القصير الـــذي وقع بين اللقاء به ، وصعوده إلى مشيخة البلد ، فلم يكن ينـــم أن هذا الرجل سيلي الرئاسة وأمامه العشرات من ذوى المكانة والشهرة .

لقد جلس أمير الأمراء في منزله ، وشرب من يده القهوة ودردشا في كثير من الموضوعات ، حتى زالت بينهما الوحشـــة والحـــواجز ، ونشأ بينهما هذا الخيـــط الـــذي يجـــذب النفـــوس لبعضها فتتوالد الصداقات .

لـــكن ، هل يتذكره (على بيك) بعد أن صار شيخـــا للبلد ؟ وهـــل ستثمر حالة الثقة فيه ، ويرسل له بأمانات غاليـــة يريد أن يحفظها بعيدا عن العيون .

واندهش (الشيخ منصور) أن يتذكره شيخ البلد بـــالفعل ويرسل له ساعيا ، يدعوه إلى مجلســـه ويســتقبله – بـــرغم مشاغله – بترحاب شديد وبتواضع علماء الدين في صعودهم إلى منصب قاضي القضاة .

** ** **

(٤)

ربما يكون الشعور بالذنب قد تغلغل في نفس (حسن بيك كتخدا الشعراوي) وربما خطر في باله ، أن يذهب إلى ابن أستاذه (عبد الرحمن كتخدا) يحذره ، ويقص عليه المؤامرة الدنيئة التي حيكت ضده ، ويخطره بأن قتله سيتم أثناء غياب (على بيك تابع صابونجي) في إمارة الحج ، ولكنه لم يجرؤ فحاول التأثير على (سليمان بيك الشابوري) وابتعد عن (خليل بيك جاويش) ، الذي بات يحلم بالثراء ، كما أنه تعمد أن لا يقابل (أحمد بيك جاويش المجنون) ، الذي كان يبدل ويعدل في خطة الاغتيال كل يوم ، ويرسل إليهم ليجتمع بهم ويحصل على موافقتهم على التعديلات المبتكرة ، التي لا يخر منها الماء .

وحسن بيك في حيرته ، حاول أن يبدو عاديا ، فحضر احتفالا ذات أمسية ، التقى فيه بصاحبه القديم (على بيك بلوط جن) وجد نفسه جالسا بجواره في عزومة يقيمها ابن سيدهم (عبد الرحمن) بمناسبة وداع المحمل ، والحجيج . وكان واجما – ربما كان ينظر إلى سيده (عبد الرحمن كتخدا) وهو يتحرك بينهم في أمان ، ويخدم عليهم بنفسه ويتخيل السيوف وهى تمزق بدنه ، أو الخناجر المسمومة وهى تطعنه ، وربما شاهد سهما يهبط ليرشق في صدره ، فيصرخ لإنقاذه وهو يترنح وينكفئ على بلاط القاعة بين ذهول الحضور ، يفيق

(حسن بيك) على آهة ، يسأله (على بيك بـلوط) لمـاذا هـو واجم ، وأي الهموم يمكن أن يفكها له ؟

يقول لحسن بيك : -خفف عنك ، فالمـال كثـير لـدى أستاذنا عبد الرحمن الذي يسـعى لإسـعاد مماليكـه ، ولا يخلصـه أن يـترك أحـدهم في ضائقة ، أفصح يا حسن بيـك عما يكدرك ، أم أنها مسألة عاطفية .. !

اغرورقت عينا (حسن بيك) بالدموع ، فبـادر(علـى بلوط) باصطحابه إلى شرفة القصر ، تنسما هواء الليل ، وضاق صـدر (حسن الشعراوي) بالسر الذي يختزنه فيـه ، تـأوه قليلا مع زفرات ساخنة ، على أثرها قال لعلى بيك بلوط :

- فيك من يكتم السر (يا بلوط قن) .

- فـي بئر يا صاحبي ، ولعلي أقدر على حفظه ، فمـا بيننا من أخوة وزمالة ، قد أكدته لك الأيام وأنت فـي المنفـى ، كان أستاذنا يرسل معي الدراهم التي أرسلها إليك ، وكان يرعى أولادك في البيت الصغير ، لعلك تذكر .

كان (حسن بيك) قد بدأ يبكي متأثرا ، فإن ما فعله لـه (أستاذه) وهـو يعانى في منفاه ، جعله يلهج بالثناء عليه في كل مجال ، حتى تسمى باسمه ، ولم يعد أحد يذكـر أنـه (حسـن الشعراوي) ، وتدفق السر من صدره في أذن (علـى بلـوط) واستـقبـل (على) أسراره الخطـيرة فـي هـدوء ، تمـالك مشاعره حتى فرغ (حسن بيك) من كل التفـاصيل ، وارتـاح حسن بيك عندما أفرغ حمولته ، ثم سأل (على بلوط) :

- ماذا أنت فاعل يا صاحبي ؟ هل تجدني تورطت بيـن المطرقة والسندان ؟

كان على بيك طويل الجسد عريض المنكبين ، له وجـه بـيضاوي ولحية كثيفة ، كان يشذبها ليخفف من كثافتها ، بـادر وضم بين ذراعيه صاحبه (حسن الشعـراوي) وربـت علـى

ظهره حتى هدأ ، وهمس في أذنه : كـــن مطمئنـــا ، فـــأنت أنـــقذت ابن سيدنا من القتل ، كـــم ستر تاح روح سيدنا الكبيرفي الآخرة لفعـــلتك البطولية هـــذه ، لقد أثمر فيك المعروف يــــا حسن ، أما هؤلاء الخونة ، بما فيهم (شيخ البلـــد) فإنـــهم لـــن يقدروا على مكافأتك ، كما سيكافئك أستاذنا عـــبد الـــــرحمن ، بأي نـــوع من الهدايا تقبل ، يمكنك أن تحدد بنفسك ، أم تحصل على هديتك ذهبا وفضة .. ؟ !

تردد (حسن) وخشي أن يكون على بلوط يسخر منـــه لكن على بلوط كان يفك يديه عنه ويعود لاحتضانـــه ، فشعـــر بامتنانه الصادق نـــحوه ، فإن مـــقتل (أستاذهم) كان ســـيعقبه مطاردة (الخاصكية) وقتلهم أو تشريدهم في المنافي ، للحصول على ممتلكاتهم ووظائفهم ، مما يعنى أنه أنقذ فيما أنقذ رقبته .

وقـــال (حسن الشعراوي) :

– لقد عملت ما يمليه على ضميري وما أحســـه نحـــو أستاذنا ووريثنا ، ولم أفكر في مكـــافأة .

قـــال (على بلوط) في لهجة أخوية :

– ولكن جاء في حديثك أن (تابع صبـــابونجي) أخـــذ يعايرك بفقرك ، وقال لك أن ما تملكه لا يشترى لك ثلاثة بغال..

– هذا حدث بالفعل ، وقد ورد في حديثي حتى لا أخفي شيئا يمكن الاستفادة منه ، ولم أقصد التعبير عن حاجتي ..

أمسك (على) بأكتاف (حسن) وقرب فمه من أذنـــه ، وطلب منه أن يكفي على الخبر ماجورا ، وأن يلتصق بـــهم ولا يتركهم لحظة ، وأن يوافيه بأي تعديل يدخله (أحمـــد جـــاويش المـــجنون) على خطة القتل ، ما دام هو يبدل ويغير من خطته كل يوم . . .

ثم همس في أذن (حســـن) بأن يرســـل إليه بشيـــخ الحارة التي يقع بها بيته الصغير ، ويحفظ فيه أماناته ، وســـوف

يحمله بثلاثة أكياس من الذهب ، بكل كيس ٥٠٠ قطعة ، كدفعة أولى ولكن بعد القضاء على (خطتهم) سيجعل معظم أموالهم وممتلكاتهم غنيمة له . وأردف : (وقد يضيف عليها سيدنا الكثير ..)

وخلع من إصبعه خاتمه ، ودسه في حزامه .. وطلب منه الاحتفاظ بذلك الخاتم معه . فسوف يأتي يوم قد يحتاجه كبرهان لأمانته ووفائه .

** ** **

بادر (علي بلوط) بالدعوة إلى اجتماع في سرداب من سراديب قصر (عبد الرحمن كتخدا) ، المطل على بركة الفيل . ولم يتأخر أستاذه عبد الرحمن في الحضور ، وقد شعر بجدية الأمر . كان لابد وأن يجتمع بصديقه وزميله (حسين بيك كشكش) ، فقد كان علي بيك برغم قوته البدنية وفروسيته إلا أنه قليلا ما يلجأ إلى حل مشاكله بالحرب فهو واسع الحيلة ، ويميل إلى استخدام عقله وتقليب (المشاكل) التي تصادفه على كافة جوانبها ، حتى يمكنه أن يختار الملائم لها ولمصالحه من الحلول ، وذلك في ترو ودون اندفاع ...

وقد رأى(على بلوط) أن في القضاء على مدبري المؤامرة خلو مركز الرئاسة من شاغله ، وبما أن (عبد الرحمن كتخدا) لا يزال يتعفف عن ذلك (المقعد) فسوف يكون لامحالة من (نصيبه) وهو الذي سيقوم بالإيقاع بالمتآمرين .. ولكنه وجد أن منافسه الوحيد في حاله التخلص من (على بك تابع صابونجي) وأعوانه ، سيكون صاحبه القوى الماكر . (حسين بيك كشكش) ولا أحد غيره ، ورأي في خصومته ، الخطر على مصالحه ، وقد ينتزع منه (حسين بيك كشكش) مقعد الرئاسة ليكون هو(شيخا للبلد) وأنه قد يفعل ذلك وهو مستغرق في الضحك . ومسيطر على عواطف (الخشداشين)

الزملاء الذي قد يؤيدون (حسين بيك كشكش) وفـــــي ظلــه تكون رؤوسهم متساوية برأسه أمـــا(هو) فـقد ينظرون إلـــى ميوله وثقافته وطموحاته في شئ من التوجس والريبة ، كمـــا أن بطولات حسين بيك كشكش الــتي كان يكســوها بشـــيء مــن المغالاة ، لازالت طازجـــة ومنتشــرة فـــي نــوادي الممـــاليك ومجالسهم، فهو الذي سافر أميرا للحـــج أربـــع مـــرات دون أن يؤدى العوائد للعربان ، رغم كثرتـــــهم وقسـوتهم فـــي القتـــال والتربص ، وقد أخذ معه الـــــهدايا وفــردة الطريـــق ، لمئـــات الزعماء، وعاد بها إلى (مصر) مع الأموال ، دون أن تنقــص (نصف فضة) .

وشاهد الجميع صناديق الأمـــوال والـــهدايا والفـــردة ، واستمعوا إلى حكاياته ، عندما وقف له العربان في المضــــايق ، وحضـــر إلـــيه كبراؤهم وطلبـــوا مطالبـــهم وعوائدهـــم وإلا الحرب والنهب والسلب لبعثة الحج وغلق الطريق إلى الحجـــاز في وجوههم .

فأحضر كاتبه (الشيخ خليل – كاتب الصـــرة) ودعـــى الصراف أن يفتـــح الصناديق ويدفع للعربان عوائدهم ، بزيـــادة على العام الفائـــت . وذهب بالعربان إلى خيمته ، وأشـــار إلـــى الصراف أن يحصي لـــهم الدراهم ، لكنه أوعز بضرب مدفـــع الشيل أثناء ذلك وقال لهم حينئذ :

– إعفونا الآن من العد يا مشايخ ، هاأنتم رأيتم صناديق المال ولكـــل منكم مقامه وصرته ، فلا يمكـــن إعطـــاء المـــال لأحدكـــم ويصير في رقبتي ذنبه إذا ما ضاع عليه ولم يصله ، الوقت قليل فاصبروا حتى ينزل الحجيج في المحطة القادمــــة ، اسبقونا إلى هناك وسيحصل بإذن الله المطلوب ، ويكـــون لكـــل شيخ أمواله بالمضبوط .

ولأن كبراء الأعراب من قبائل مختلفة ، فقد خشي كل منهم أن يستأثر من يتسلم (الصناديق) جملة ، بجزء أكبر من الأموال فآثروا أن تبقى الأموال معه إلى المحطة التالية ، والتي ستكون بعيدة عن ديارهم ، ومع اطمئنانهم فلم يأتوا بمحاربيهم في كثرة ، وكانت استعداداتهم أقل من الاستنفار للحرب والنزال وكانت مشكلته التي يسعى إلى حلها ، أن يخرج من المضايق التي تعوق حركة فرسانه الثلاثمائة ، وهم عدد قليل إزاء كثرة عدد الأعراب ومهارتهم في الكر والفر.

وعند خروجه من المضايق ، رتب مماليكه وطوائفه ترتيب حرب ومحاصرة ، وقد هدف إلى أن يوقع بهم مقتلة كبيرة لا يفلت منها أحد ..

وحضر العرب وفيهم كبيرهم (هزاع) جاء ليحضر بنفسه تقسيم العوائد والهدايا ، ويحصل على نصيبه الكبير ، ولم يتردد (حسين بيك كشكش) في أن يأمر بقتلهم جميعا وقطع رؤوسهم ، فنزل فرسانه عليهم بالسيوف ، فقتلوهم عن آخرهم ومن بينهم أكثر من خمسين كبيرا من مشايخ العربان المشهورين وعلى رأسهم (هزاع) الذي كان ذكر اسمه يصيب معظم الحجيج بالرعب ، وضرب مدفع الشيل . وسار محمل الحج، وتفرقت القبائل من كل جهة ، ووقفت له في طريق العودة أثناء مروره بمضايقهم ومناطقهم ، وكان يحاربهم ويقاتلهم بمماليكه وطوائفه ، حتى وصل إلى مصر آمناً سالما دون أن يدفع شيئا ، بل أنه أتى معه برؤوس شيوخ العربان محملة في شنف أحد الجمال ، ودخل المدينة مع الحجيج سالمين ، بين دهشة المستقبلين ، إذ كانت أخبار صدامه بالأعراب تترى إلى (مصر) أولا بأول ، وصارت قصته تحكى في المقاهي والقعدات ، وقد اجتمع عليه الأمراء يحيون شجاعته ، ولكن يومها غضب منه شيخ البلد وواجهه (على بيك بلوط) الذي لم

يتمالك إلا أن يفصح عن مكنون صدره بثورة أطلقها في وجـــه البطل ، قال له :

– لقد أفسدت علينا العرب يا كشكش بيك ، وهـــم مـــن الكثرة وعدم نسيان ثأرهم ، وخربت بذلك طريق الحـــج ، فمـــن ســـيطلع بالحج بعدك يا حسين كشكش ؟وماذا ستفعل أمام طلاب الثأر ؟

يومها قال (حسين بيك كشكش) في زهو وهو يضحك في انطلاق :

– أنا لها ، أنا الذي سيســـافر بـــالحج العـــام القـــادم ، وسأعرف كيف أصطفي مع العربان ..

وبالفعل طلع في السنة التالية ، وقد فاقت شهرته شـــهرة كل الأمراء ، وفيه اجتمع عليه العربان يزأرون بالثأر ، ووقفـــوا له في كل خطوة يخطوها نحو الحجاز ، سدوا عليـــه المضـــايق وركبوا على قمم الجبال ، وترصدوه حين طلوعه من (مصـــر) واستعدوا له بما استطاعوا من الكثرة والمكر ، فصادمهم وقاتلهم وحاربهم ، وصار يكر ويفر ، ويحلق عليهم من أمام ومن خلف، حـــتى شردهم وفككهم ، وأوقع فـــي قلوبـــهم الرعـــب وفتـــك بالكـــثير منهم ، ولم يبال بكثرتهم مع ما هـــو عليـــه مـــن قلـــة المحاربين ، وكان قد استعان بالإضافة إلى مماليكه بالمتطوعـــة مـــــن الحجيج ، أقنعهم بأن هذا جهاد في سبيل الله ونصـــــرة الإسلام ، واستعان بعسكر من المغاربة ، وهو الذي كان يـــبرز لمحاربة العربان حـــاسرا رأسه ، شاهرا حســـامه ، فيهابونـــه ويعجبون بشجاعته ، فاستمال بعضهم بهذه الشجاعة ، وشاع في هـــذه القبائل قاطعة الطريق ، الخور ، وانكمشوا عـــن ملاقاتـــه والتصادم مـــعه ، وبعدها لم تقم للعربان قائمة فأكـــمل إمـــارة الحج أربعة مرات متوالية ، ومن ذهب بعده لم يجد أي تعرض من العربان لا في الذهاب ولا الإياب ، إلا من يقدمون المساعدة

والمعاونة ، فيمنحهم أجرهـم ويجازيـهم بالمعـروف علـى خدمـاتهم .. !

وبذلك اشتهر (حسين بيك كشكش) بين العامـة بأنـه (قاهر العربان) لكن العربان الذين كان لهم ثأرهم الشخصي معه تـربصوا به وتبعوه متخفيين داخل مصر ، وترصدوه في مكر، حتى اختطفوا ابنا له في الثانية عشرة من عمره ، وكاد الحـزن على هـذا الابن أن يحطمه ويعصف بـه ، إلا أن صـاحبه (على بيك بلوط) سارع ووقف بجانبه ، يقدح الذهن في حيلـة مـن حـيله ، كان الولد ثقيل اللسان ، فـأحضر لـه غلامـا يشبهه وجعله يلازمه ، ويشيع بأن الأعراب أخطأوا وخطفوا ابنا لأحـد المماليك الذين لم يأتمروا على الحج ، ولـم يتصـادموا معهم .

وعندما أرسل إليه الأعراب يطلبـون منـه الحضـور (شخصيا) إليهم لمحاكمته على ما جنت يداه في حق شيوخهم ، عندما قطع رؤوسهم وحملها في شنف الجمل ، ودخل بها مصر. وإلا ستقطع رأس (ابنه) وترسل إليه ، وكانت لهم مطالبـهم أن يوافيهم باعطياتهم وفـردتهم وهداياهم عـن إمارة الحج في السنـوات الأربع الماضية ، التي حاربهم فيها ، جعله هذا يتمـاسك وأبلغهم (على بلوط) بأنهم لم يختطفوا ابن خصمهم بـل خطفوا ابن أحد الأمراء من الذين لم يكونون أعداء لهم .

وفي أثناء ذلك استمر تدخل (على بلوط) فـي تنفيـذ خطته واستمرار المراسلات بـينه وبين العربان ، وأبلغهم بأنـه يفتدى هذا الغلام المسكين الذي ليس له صلة بقاهرهم (حسـين بيك كشكش) - من حر ماله .

فطلبوا بعض المطالب المتواضعة ، ولم يجدوا مـبررا لقتل غلام لا يحرق دمه قلب (حسين بيك كشكش) وتمكـن أن

يعيد إليه غلامه بهذه الحيلة ، ويتنفس حسين بيك كشكش الصعداء

ويخر على الأرض ساجدا ، يريد تقبيل قدم (على بيك بلوط) شاعت هذه الحكاية أيضا مع ما شاع من حكايات (كشكش بيك) وكان لعلى بلوط ، في المقاهي والمجتمعات حكاية

أيضا عن واسع حيلته مع العربان .

** ** **

وقد اعتاد (حسين بيك كشكش) الإغارة على العربان الكائنين حول القاهرة ، يقطعون الطرق على المسافرين والفلاحين ويسلبون ملابسهم وحوائجهم وثرواتهم ، فكان يخرج إليهم على حين غفلة ، فيقتلهم وينهب مواشيهم ويحرق خيامهم ويرجع بغنائمهم ورؤوسهم في (أشناف) الجمال .

فارتدعوا عن غاراتهم وانكفأوا عن أفاعيلهم ، وأمنت السبل وشاع ذكره في البلاد ، إذ كان عند عودة حسين بيك كشكش بغنائمه يستقبله (على بيك بلوط قن) ، ويحتفل الأمراء والمماليك بذلك في احتفالات عظيمة ، تقام ببركة الفيل . فيجتمع الناس على الأخشاب العائمة ، فوق صفحة البركة للفرجة على أرباب الملاهي والملاعيب ، وبهلوان الحبل وينتشر البائعون من سائر الأصناف ويعلقون القناديل ويصنع الخدم الوقدات على أسطح البيوت المحيطة بالبركة وهى بيوت الأمراء والأعيان ، ومعظمهم خشداشين بعضهم البعض ، ومماليك صغارهم لكبارهم ، وتنصب في البيوت الولائم والضيافات ، ويعزف عازفي الآلات ، ويجتمع الصحبة للتدخين ويحتسون الخمور ، ويتلاعبون بالنشاب أو بالسيوف والخناجر ، ويشترك في هذه الاحتفالات الصاخبة كثير من الأعيان والاختيارية (الرؤساء) والوجاقلية (قادة الأبواب

السبعة) والتجار والمباشرين وأغنياء القبط وسفراء الإفرنج والأروام ، وكبار اليهود ومقادم الأقاليم ، يستمتعون بأنواع الملاعيب والبهلوانات (والهنك والرنك) الرقص والغناء والطبول على تصفيق الجاويشية والملازمين والسعاة والأغوات، الذين يحيطون بالحريم لحراستهن ، وعليهم الخلع المبرقشة والتخاليق المثمنة .

وبين أكبر التجمعات ، كان يجلس [على بيك بلوط] يحاول بقدر ما يستطيع أن لا يجعل إعجابه الشديد بشجاعة زميله (حسين بيك كشكش) أن ينسيه قدر نفسه ، فينزلق ليسقط تحته إذ كان يرى أنه صاحب فضل على (البطل) ويستحق رئاسته وكان متيقنا بأن حسين بيك لن يمانع في ذلك ، ولن يغدر به .

بلوط قن – أو بلوط قبن – تعني الجن الضخم شديد المراس وقد عرب على بيك اسمه عندما صار شيخا للبلد وتسمى (على بيك الكبير) .

• أشناف : شبكات مصنوعة من حبال الليف الغليظة . تستخدم حول سنام الجمل لحمل المثقلات والمهيئات

• خشداش : زميل له نفس السيد أو الأستاذ

(٥)

بعد حبك المؤامرة ، ذهب (على بيك تابع صابونجي) إلى الحج فـــي أبهة عظيمة ، وتم وداعه في احتفالات ضخـــمة، وفى الـــطريق ، اتصل بالأعراب الذين كـــانوا يلاحقونـــه فـــي خوف ، كان قد بثه في قلوبهم (حسين بيك كشكش) طلب أولاد الزعماء المقتولين وأرضاهم بالكساوي والدراهـــم والأطعمـــة ، ووعدهم بصفته شيخا للبلد ، أن ينتقم من الذين قتلوا شيوخـــهم ، وأنه سيرسل لهم (القتلة) في القريب العاجل مطروديـــن مـــن مصر ، وإذا ما مروا من المضايق قاصدين الأراضي الشامية ، تكون فرصتهم قد حلت ، ليوقعوا بهم العقاب وأنـــه ســـيواصل أعطياته لهم وعوائدهم ، بعد أن يفرغ من القتلة ومـــن يحميـــهم (هؤلاء الذين أفسدوا الود القائم بيننا) . كان (على بيـــك تـــابع صابونجي) يتحدث مع العربان ، ومع خاصته ، وهو يتصـــور أنه بوقوع عملية الفتك (بعبد الرحمن كتخدا) سوف ينهار بيته على مماليكه ، ومنهم (حسين بيك كشكش) و(علـــى بلـــوط) ويفلت هو من تحت سيطرة (ابن سيده) وقوته المـــؤثرة مـــن المماليك . الذين إذا ما اتفقوا عليه – كانت نهايته !!

وكان يتصور أن ذلك سيتم قبل وصوله إلى الأراضـــي الحجازية ، أو أثناء ذلك ، لكن الريح لم تأت له بما يشتهي فقد طال انتظاره ، ولم ترد الأخبار المرتقبة من مصر .. !

إذ كان (على بيك بلوط) قد اجتمع بابن سيده وأمناء سره ودفع إليه بأسرار تطير فيها الرقاب ، وحضر الاجتماع (حسين كشكش) الذي امتلأ بالحنق وركبته العصبية ، وأراد جمع المماليك واللحاق بأمير الحج وقتله ، قبل أن يصل إلى الأراضي الحجازية ، لكن (على بلوط) قام بتهدئته واحتواه في أحضانه وقال له :

– نستمع إلى أستاذنا ، ونسمع رأيه في الموضوع ، فهم ونحن من مماليكه ، ولا يتصرف في ماله إلا من يملكه .. !

فهدأت ثورة (حسين بيك كشكش) وأصاب الأمير (عبد الرحمن كتخدا) الهم والحزن الشديد ، فأخذ يعاتب ويستفسر عمن هم أطراف المؤامرة ، فذكر له (على) أسماء ثلاثة من الأمراء ، ولم يذكر اسم (حسن الشعراوي) .

وسأل (حسين كشكش) : كيف يكون معهم وتجنبه الإدانة يا (على بيك) .

رد في هدوء : هو فعلا برئ .. !

ثار حسين كشكش واتهم (على بلوط) بأنه يحابي (حسن الشعراوي) لعلاقته القديمة به ، بدليل أنه كان يعاونه وهو في منفاه ، والآن يحاول أن يعاونه ، وهو مدان من ساسه إلى رأسه ..!

أرغم (على بلوط) أن يكشف عن مصدر معلوماته ، ويفصح وأضاف بأن (حسن بيك الشعراوي) فعل ذلك من أجل ما قدم له من مساعدات في منفاه ، ولأننا حافظنا على أولاده في البيت الصغير ، وقد تمر فيه العيش ، وقال :

– هو الذي أبلغني بالمؤامرة ، ولكنه لا يريد أن يقع بين المطرقة والسندان ، في حالة فشلنا في القضاء على المتآمرين، فإن لكل أمير منهم مماليكه ، وكبيرهم رئيس ويده طائلة من أموال الملتزمين ، قد يستعين بعسكر المغاربة ويسبق ذهبه لؤمه

وتدور علينا الدائرة ، لهذا كنت عند وعدي له بإخفاء اسمه وعدم ذكره ، ليبقى بعيدا عن الانتقام ..

لكن (حسين بيك كشكش) تلبسته فكرة أن (على بيـــك بلوط) برغم ضخامة جسمه ، فقلبه طيب ، وهذا القلب الطيـــب قد يتسرب منه الخصوم (ويعودون علينا بـــالقلق والمواجـــع) والأمير (عبد الرحمن كتخدا) يستمع في ذهول ، ولا يدرى هل يصدق أم يكذب أذنيه ، ولكن ما كان يحزنه حقـــا ، أن الخيانـــة تأتى من بيته وليس من بعيد ، هو الذي يعمـــل جـــاهدا علـــى مواصلة دفع مماليكه إلى المناصب العـــليا وإلى الثروة والإمارة لهم ، فيكون رد الجميل له أن يفكر بعضهم الآن في إزاحته من طريقهم ، هذا الطريق الذي يعبده لهم من ماله واتصالاته ،حتى لا تنتقل (المشيخة) إلى من يتصادمون معهم ، وينظرون إلـــى ما بين أيديهم بعين الحسد والغيرة ..

كان الأمير يقول ذلك في عتاب أقرب إلى النواح ، وكان هذا يثير (حسين بيك كشكش) الذي كان يتحرق على قطع دابـــر هذا الجانب الفاسد ، ليتخلص من استشراء الفســـاد فـــي بـــاقي الجسم. وكان (حسين بيك كشكش) في الواقع ، يخشى ألاعيب (على بيك بلوط) وحيله ، وهو يراه يسلك مسلك السياسيين الدهاه لا مسلك الأمراء المحاربين ، فيفصل بين المتـــآمرين ، يقســـوا على بعضهم ويسامح أحدهم .. ولعله يخفى جانبا من المؤامـــرة أو يطلقها لصالحه ..

و أرغم (على بيك بلوط) بأن يقدم الدليل ، رفع كفيـــه أمام (حسين بيك كشكش) وأميره (عبـــد الرحمـــن كتخـــدا) ، وقلبهما ليلفت بذلك نظرهم وقال :

– أين خاتمي الذي أهداني إياه أميرنـــا الكبـــير ، إنـــه الآن لـــدى (حسن بيك الشعراوي) أمارة – بأنه كان وفيا لنا ، إذا لم

تصدقوني استدعوه ليحضر ، واسألوه فقط من أعطاك هذا الخاتم؟ ومتى ؟ .

فهدأ (حسين كشكش) وأخذ يكظم هواجسه ، ويرضـــخ لنصائح (عـــلى بلوط) بأن يسيطر على اندفاعه ، حتـــى يتـــم المراد ويمسكوا بزمام الأمور ، وقال :

– بعدها سوف يتاح لك ما ترغب من انتقام ..

ووافق الأمير عبد الرحمن – مع شئ من الأسى ، على مؤامرة مضادة تفسد عليهم ما خططوه في ليل ..

** ** **

كان الاجتماع يتكون من الاختيارية (قادة الوجاقـــات) والسناجق ، الملتزمين على البلاد ، وأمراء المماليك ، والجميـــع يـــقفون بين يدي وارثهم ، ابن سيدهم (عبد الرحمن كتخدا). وانـــبرى (على بلوط) ليتحدث حول مركز الدائرة ، ويشــــير إلى الأمير الذي كان واجما ، ثم يكشف أطراف المؤامرة وقــــد قـــام (حسين بيك كشكش) بغلق أبواب القصر مع قلـــــة مـــن المماليك والخدم ، ليمنع أي من المجتمعين من الخروج وإفشـــاء ســـر المؤامرة المضادة ، التي راح (على بيك بلوط) يحكـــي لهم عن تفاصيلها ، وهنا ظهر القلق والانزعاج في حركات عدد من الأمراء ، كانت حركاتهم عصبية ، كمن يبحث عـــن بـــاب للهروب .

طلب بعض الحضور أن يفصح عن أسماء الخونة ، لكنه أرجأ ذلـــك إلى ما بعد اختيار(شيخ للبلد) ليتولـــــى عقابـــهم ، وقال: (فمن ليس له كبير - فليشتر له كبيرا) .

وأشار إلى أميرهم الشاب (عبد الرحمن كتخدا) وقال :

– نحن لنا أمير، لكن للأسف المؤامرة من بيننا – يعنى زيتنا في دقيقنا . وضحك في أسى .

وقال : وعلى أميرنا الآن أن يعالج الموقف ، قبل أن يتدخل الخصوم ، ويشتتونا جميعا .

أثلج هذا صدر الأمير عبد الرحمن ، ولعله فكر أن يجعل الأمر في يد كاشف المؤامرة ، ليكون شيخا للبلد ورئيسا فعليا ، يجمع بين المنصب والنفوذ ، ولكن حديث على بلوط الهادئ الذي يجرح بدون سكين ، جعله يقلب الأمر لعله يتجه إلى الناحية المضادة ، التي لم تكن في حسبانه ، وكان الأمير يخشى أن يجعل من هذا المملوك الداهية - كاشف الفساد في بيته الرئيس .. فإن تأثيره كزعيم ، كان يقلقه ولا يشجعه على مساندته ، برغم ما يقدمه له من خدمات .. !

وكان (على بلوط) يعمل بكل جهده وبراعته في أن يزج بكل التأثيرات المطلوبة في هذه اللحظة ، ليحصل على موافقة الأمير على تنصيبه – أميرا للأمراء ..

رفع الأمير (عبد الرحمن) يده ، فكف اللغط وانتبه الأمراء وقال:

– هل تقبلون ترشيح (على بيك بلوط) شيخا للبلد ؟

ساد الصمت ، فواصل كلامه (ومن لا يعرف قدره وذكاءه وقدراته ؟ يتحدث معي لأدله على مواهبه المعروفة لي ، ولعلها معروفة جيدا لكم ..) .

لكن الصمت استمر ، هنا فكر في تحويل الأمر إلى حسين بيك كشكش) ، وإذا بيد (حسين بيك كشكش) ترتفع ، كان يقف عند أحد الأبواب وصاح قائلا : أنا أتفق مع أستاذي في ذلك . فتنفس (علي بيك) الصعداء .

قال أحد الوجاقلية في شئ من الجهامة : كنا نظن أن جرأة (حسين بيك كشكش) في قطع رقاب شيوخ الأعراب المقلقين لراحتنا ، إجازة له على أن يكون أمير الأمراء – يا أستاذنا .. التفت الأمير عبد الرحمن إلى (حسين بيك كشكش)

وابتسم وكأنه يطلب رأيه فيما سمعه ، حتى لا يحدث شقاق آخر في بيت كتخدا ..

تقدم (حسين بيك) خطوة حتى يراه الجميع وقال :

– لعل جمعنا هذا ونحن بين يدي أميرنا عبد الرحمـــن ، وهو الذي يجعل منا الرؤساء والبكوات والأمـــراء ، وأصحـــاب الحظوة والوظائف . ومعظمنا لا يعرف له أب أو أم ، وهذه البلد أعطتنا المال ، ووفرت لنا رغد العيش فـــي كنـــف (أســـياد) كـــانوا بالنسبة لنا بمثابة الأب الذي أنجبنا ، وانقطعـــت صلتـــه بـــنا منذ الطفولة . لذلك فإن أثمن شئ عندنا كمماليك صناعتنا الحرب والنزال ، تربينا من أجل الموت بعيدا عن الأسرة (هـــم الأولاد) وثمة اتفاق بين الأمراء غير مكتوب أن يحمي كل منا أبنـــاء الآخر ، حتى ولو كان عدوا له ويحاربه ويهزمه ، أولادنا هـــم ثرواتنا الحقيقية التي نفخر بها ونخفيها عن عيون الخصوم، كالأشياء الثمينة ، أولادنا هم نحن ، ولكن بآباء وأمهات وعائلـــة يعيشون في كنفها (وعلى بيك بلوط) أعاد لي ولدي مـــن بيـــن يدي الأعراب ، الذي كان لهم ثأرهم عـــندي ، وانظـــروا مـــاذا كان سيتبقى من (حسين بيك كشكش) إذا مـــا أرسلوا لي رأس ابني مقطوعة ، وذهب عقلي ، مشيخة الـــبلد ستفخر بأن (على بيك بلوط) جلس على دكتها .."

وهلل الجميع استحسانا لخطاب حسين بيك كشكش ، وهم لـــم يعتادوه خطيبا ، وبرغم أن هذا الخطاب قضى علـــى أيـــة مـــعارضة لوصول (على بيك) إلى المشيخـــة . خاصـــة وأن شيخها أميرا للحج .

وكان يجب انتظاره وسؤاله حول أطـــراف المؤامـــرة ، وانبرى أحد أمراء المماليك قائلا :

– برغم أني أرحب بعلي بيك بلوط أميرا للأمراء ، لكن اسمحوا لي أن أسأل : ماذا لو كانت هذه الأحداث من اختلاقات

وخـــيال واسع الحيلة ، مثل خيال (على بيك بلوط) قد يكون من الأفضل أن يصعد إلى المشيخة الآن ، طـــرف محـــايد حتـــى نتحـــقق من صحة المؤامرة ، إنها خلافات ليست بين أعـــداء ، بل خصومات بين زملاء من بيت واحد ، وعليهم أمير واحـــد لا يزال يمتلك رقابهم ... ؟

ومع أن خطاب حسين بيك كشكش ألقى بالمشيخة فـــي حجر عـــلى بيك بلوط ، لكن على بلوط الذي كـــان يعتقـــد أن حسين كشكش ، شديد المراس في الحـــرب فقـــط ، ضايقـــه أن يطوق رقبته بـــهذا الخطاب ، وكأنه يتنازل له عن المشيخة التي كانت في الطريق إليه ، مقابل إنقاذ رأس ولـــده ، وقـــد تدخـــل أستاذهم لقطع سلسلة الشكوك والالتفاف حول رغبته التـــي لـــم يفصح عنها .

ولم يكن الوقت يسمح بكثير من التفكير وتقليـــب هـــذه الأمور فإن الوقت كان حادا كالسيف ، إن لم يقطعه بشدة – قطع رقابهم في طرفة عين .

وسريعا ما تم القبض على أحمد بيك جاويش المجنـــون و خـــليل بيك جاويش ، وصودرت أموالهما وقصورهما ، وتـــم نقل حريمهما وعيالهما إلى مكان أمين ، وأرسلا منفيـــين إلـــى الحجاز عن طريق السويس إلى البحر - وقبض على سليمان بيك الشابوري ، وتم نفيه إلى فارسكور ، وقد خفف العقـــاب عليـــه لغيابه وموقفه المتردد الذي أرغم عليه من نفيه خارج البلاد .

أما حسن بيك الشعراوي ، فعندما ألقى عليه حسين بيك كشكـــش الـــقبض ، طلب منه إظهار خاتم على بلوط لينقـــذ نفســـه مـــن التشريد ، وأمواله من القسمة .

فبحـــث عن الخاتم ليظهره له ، ولكنه لم يعـــثر عليـــه بداخل ملابسه إلا بعد فترة ، كانت بالنسبة له دهرا مـــن القلـــق

فأمنه وطلب منه أن يمكث في قصره ولا يغادره حتى تستتب الأمور ، وإلا تلقى طعنة ، فهو الذي وشى بهم .

واتفق (على بيك بلوط) مع الأمير عبد الرحمن كتخدا على الفتك برأس الفتنة الذي لا يثمر فيه المعروف - عند عودته من الأراضي الحجازية - واتفق على أن يقوم حسين بيك كشكش ومن معه بقتله وهو عائد بالحجيج ، وحتى لا تحدث فوضى يستفيد منها العربان في نهب الحجيج عند عودتهم إذا ما ذهبوا إليه ولاقوه في الطريق هناك ، فهو لا محالة عائد إلى حتفه .

ولكن خليل جاويش وأحمد جاويش ، أرادا اللحاق بأمير الحج في الحجاز ليحتاط ، والأعراب ينتظرون قدوم عدوهم (حسين بيك كشكش) مطرودا من مصر كما وعدهم أمير الحج تربصوا في الطريق ، وقضوا على الأميرين ومن معهما في هجمة مفاجئة بالسيوف والسكاكين ، معتقدين أنهما حسين بيك كشكش وأعوانه .

لم يعطيا فرصة أن يوضحا لهما حقيقة الأمر ومزقوا أجسادهما نسيرات ووزعوها على من كان له ثأر عندهم ، للتشفي ، وهدأت نفوسهم .

لكن أحد الحراس كان لم يمت ، هرب بجراحه وأنقذه أعرابي وصحبه لخيمته لعلاجه ، وقد رق قلبه عليه ، وعندما تماثل للشفاء ، ذكر له الحقيقة التي نقلها إلى رؤساء العرب . فعادت نار الثأر ترعى في نفوسهم مرة أخرى وتكوي الأحشاء ، وأرسلوا لأمير الحج رسولا من عندهم ، يبلغه بما حدث في مصر ليحتاط للأمر وينتصر على خصومه ويرسل لهم عدوهم .. تلقى (تابع صابونجي) الأخبار في خيمته ، وأحس بثقل المصيبة التي تنتظره ، وفكر في إنكار ما حدث وأن يخاتل حتى يمكنه جمع أعوانه والمقاومة ، فأمر بعمل (شنك) ليوهم

مـــن معه أن أخبارا سارة واتته من مصر ، حتى لا ينقلب عليه من معه ، وقصورهم وثرواتهم هناك ، ولم يزل سائرا بالحجيج إلى أن وصل (قلعة نخل) ، حـــط رحالـــه عندهـــا واجتمـــع بالدويدار وكتخدا الحج والسدارة ، وسلمهم الحجـــاج والمحمـــل سليما من أي سوء ، وركب في خاصته وسار إلى غزة ، وبينما موكب الحجيج سائر بدون (أمير) إلى أن وصلوا (أجرود) .

وهناك أقبل عليهم حسين كشكش في فرقة من المماليك ، يبغي القبض على أمير الحج (شيخ البلد السابق) وقتله ، بعـــد إظـــهار إدانته أمامهم ، وإخباره بما آلـــت إليـــه الأمـــور فـــي (مصر). بـــحث عنه ، فلم يعثر عليه ولم يصدق أنه غـــادرهم في خـــاصته ، فلم يجده فوقف في المماليك المصاحبين للمحمل، خطيبا وقص عليهم تفاصيل المؤامرة ، وصعود علـــى بيـــــك بلوط إلى الرئاسة ، فبايعوا من يبايعه أميرهم ، وقام كشكش بيك بتـــعيين نفسه أميرا للحج في المسافة الباقية ، ودخل بـــــالمحمل إلى مصر ، يتلقى التهاني من أبناء البلد ، الذين احتشـــدوا فـــي الطرقات على الصفين ، وبذلك كتبت له الأمارة الخامسة للحـــج بدون عوائد .. !

** ** **

(٦)

بعد أن صار (على بيك بلوط) شيخا للبلد – بمشـــورة أميره عـــبد الرحمن كتخدا ، كـــانت خطوته الأولى في اتجـــاه الإمـــارة أن يـــبصم الباشا العثمانلي ، على اختيار كبار المماليك لرئيسهم ، وبعدها لبس الخلعة التي عادة ما يهديها الباشا لشيـــخ البلد ، واستسمحه في نقل الديوان إلى بيته فسمح له ، وفى منزله صار يتردد عليه باقي الأمراء والاختيارية يقفون تبجيـــلا بيـــن يديه، ويتلقون توجيهاته في طاعة ، وكان عليه أن يقـــوم بـــأول المراسم ، بأن يبدأ بالطلوع إلى باب (الينكجرية) فـــي القلعـــة ، ويمتثل بين يدي الباشا ويقدم له مقترحاته ، وكالعادة قام بكتابـــة العرضحال ، بنفي من يرى نفيهم ، فأصدر الباشا له الفرمان . وبعد عدة شهور ، رشح (حسن بيك رضوان) أمـــيرا لبعثـــة الحج ، ليبدأ التشهيل بالمحمل في بداية صيف ١٧٦٥ م فوافق له ..

وبدأ التشهيل لأمور الحج على العادة ، ومنها التعجيـــل بقبض الميري ، وهو ما كان يهدف إليه شيخ البلـــد ، لمواجهـــة نفقات رئاسته ، وملئوا الصوامع بالغلال والعلوفات ، وتم صرف الجامكية والصرة وغلال الحرمين والأنبار ، وخـــرج المحمـــل على القـــانـــون المعتاد في احتفال عظيم ، يتضمـــن الاحتفـــاء بشيخ البلد الجديد .

وجاء لمشاهدة احتفال المحمـــل ، القـاصي والدانـــي ، وغالى على بيك بلوط هذا العام ، في تكثيف القـــوة المصاحبـــة للمحمل بدعوى حمايته في الطريق ، من عـــدوان وغـــارات الأعـــراب ليطمئن قلب حسن بيك رضوان ، وكان هذا الاختيار مفاجـــأة لصاحبه (حسين بيك كشكش) ، الذي اعتقد أنه سيكون يد (على بيك بلوط) اليمنى ، وقد هيأ نفسه للاستعانة بـــه فـــي حمـــاية المحمل والحجيج ، وعندما تخطاه باختيار رضوان بيك، غضب ولزم بيته لا يريد الاشتراك في اســـتعراض المحمـــل ، والظهور في الميادين وشوارع مصر ومـــع ذلـــك اســـتمرت الاحتفالات قائمة ، وحسين بيك كشكش يتعصب ويشكو لخاصته (أفاعيل الأندال المخادعين) ، في ذلك الوقت كان علـــى بيـــك بلـــوط يدق بابه ، فلم يتمالك نفسه عند رؤيته من مواصلة ثورته وانفـــعالاته ، وإعلانها في وجهه بإحساس من طعن في كرامته، تركه على بيك ينزح ما في صدره من غضب ، ثم اختلـــى بـــه ليقدم له خطته التي يفكر فيها (لقد قصدت أن يشـــاع أن هنـــاك خـــلافا بيني وبينك يا حسين بـــيك - افهم يـــا أخـــي - ذلـــك سيصل لهم ، وسيجعل الآخرين لا يتبينون ما ندبره ســـويا أنـــا وأنت) .

المفاجأة أخذت بلب حسين بيك كشكش ، فهدأ وصمـــت يستمع باهتمام إلى تفاصيل مـــا يضمره صاحبه لحماية رئاســـته وبـــيت أمـــيره عبد الحمن كتخدا كان حسين بيك كشكش يميـــل للمغامرات وكان يهز رأسه بالـــموافقات ، وبعدها انصرف على بيك - ليهئ نفسه لحضور وداع المحمل والحجيج ، بينما جمع حسين بيك كشكش مماليكه ، وبقى ينتظر قدوم رسول مـــن على بيك بالتحرك ..

كـــان (على بيك) قد رتب أن يخرج عدد كبير مـــن حـــراس القلعة ، لحماية المحمل والحجيج ، من عدوان الأعراب ، وبعـــد

أن يتحرك الموكب من بركة الفيل ويودعه خارج أسوار مصــــر بكر ومن معه من خشداشيه ، مماليكه وأعوانه ، ويسانده حسين بيك كشكش ومعـــه مماليك وأعوانه ، وبكامل قواتهم الحربيــــة سويا التي اشتركوا بها في عرض المحمل ، يقومـــون بـــامتلاك أبواب القلعة ، ويرغمون (الباشا) الذي يوازن الأمور ويجعـــل دائما مقابل كل قوة - قوة أخرى تعادلها ، حتى لا تميــــل كفـــة الميزان لأحد غيره ، بان يوقع فرمانــــا بخــروج علـــى بيــك الخربوطلي وأتباعه و عمر جاويش الداودية وأتباعــــه . وهمـــا القوة التي يوازن بها الباشا ، قوة بيت الأمير عبد الرحمن كتخدا، ولكن على بيك عندما أضاف على المطرودين ، رضوان بيـــك الرزاز والمقربين منه ، كان في الواقع يضعف من قوة أمـــــيره عبد الرحمن كتخدا إلى أقصى حد.. !

وقد تم له ما أراد ، بعد تنفيذ الخطوات المرسومة بنجاح كامل وتمام نفي المطرودين ، إلى جهات في وجه بحري ، منها المنصورة ودمياط وأبي قـــير .

لكن الأمير عبد الرحمن كتخدا عندمـــا تصلـــه الأنبـــاء الجديدة التي لم يشارك فيها ، يثور ويغضب لهذه الأفاعيل التي لم تعرض عليه ، والتي لم يناقشه فيها مملوكه على بلوط الـــذي ساعده على أن يكون شيخا للبلد ، وكانت ثورته عاصفة ، وقـــد أفصح بها أمام خدمه وأعوانه وطلب ضرورة استدعاء حســـين بيك كشكش إليه على وجه الســـرعة ، وقد علم بأنه قد قدم يـــد العون بشخصه ومماليكه فـــي هذا الانقلاب ، الذي لا مبرر له ، وفى الـــوقت نفسه يرسل إلى علي بيك بلوط ، لمســـائلته عـــن هذه التصرفات الحمقاء ، وعندما يصل رســـول الأســـتاذ إلـــى حسيـــن بيـــك كشكش يبادر بالحضور إلـــى قصـــر أســـتاذه ، عبد الرحمن كتخدا ، لكن عندما يصل الرسول إلى علـــى بيـــك

بلوط باستدعائه لمقابلة الأمير عبد الرحمن كتخدا ، يرسل معه خازنداره وتلميذه محمد أبو الدهب ويقول له :

– يا محمد جس لنا مية الأمير عبد الرحمـــن ، وطيـــب خاطره بكلمتين طيبين من كلامك المنقي ، واعتذر لـــــه بـــأنني مريض ولا أرغب في نقل المرض له ، بحضوري إلى مجلسه، فلابد وأن أقبل وجنتيه ، فهو سيدنا وتاج راسنا ..

ومحمد أبو الدهب يتفهم الموقف ، ولا ينتظر أن يوصيه أحد بأن يفتح عينيه وأذنيه جيدا ، لينقل له حالة الأمـــــير ومـــن حوله فيستجيب الخازندار للغة العيون التي بينهما ، وعندما تأتيه الأخبار بأن حسين بيك كشكش قد وصل إلى قصرعبـــد الرحمن كتخدا ، يشعر على بلوط بالقلق ، ولا يهدأ في مكان ، بـــل أنـــه يفقد حالة رزانته ، وسريعا ما يتماسك .

** ** **

وأمام الأمراء والأعوان بحضور حسين بيـــك كشكـــش والخازندار محمد أبو الدهب ، كان الأمير عبد الرحمن كتخـــــدا يعبر عن ثورته وغضبه من أفاعيل على بلوط ويـنـــــــدم علـــى تقاعسه ، وأنه لم يأخذ الأمر بيده من البداية، وأنه قد انصـــــرف إلى حريمه والاستمتاع بتركته ، ويذكر أمام المجتمعين ، كيـــف كان على بلوط مربيا له ، يلاعبه ويلاطفه والآن يستكبر علينـــا بالحضور إذا ما دعيناه إلى مجلسنا ، ويسأل من حوله :

– هل لمنصب الرئاسة أن يفك رقبته من تركة والدي ، ويجعل رأسه برأسي ؟

وكـــان في أشد حالات الغضب ، ويحاول (حسين بيـــك كشكش) تهدئة خاطره ، فينقلب عليه معاتبا :

– على بلوط استغـــل صحوبيته لك أسوأ اســـتغلال يـــا حسين واستعان بك وبأعوانك في توسيع رقعة نفوذه وقوته ..

يتـفكر حسين بيك كشكش قليلا ، وهو لا يريد أن يقتنع بـــأن على بلوط قد استغله في إضعاف أميره ، ويحاول أن يتدخـــل ، ليبين له أن خروج الخربوطلي والداودية إلـــى وجـــه بحـــري ، وطردهم من مصر ، هو إضعاف لخصومنا .

لكن الأمير عبد الرحمن يسأله وهو يكاد يضع إصبعـــه في عينه :

– وهل في خروج (رضوان جريجي الرزاز) وأعوانه مصلحة لنا ؟ أنت تعلم يا حسين بيك أن رضوان بيك الرزاز من أشد المخلصين لي ، وهو وأنت معه ، منشأ قوتي يثبتنـــا أمـــام الخصوم ، إذا كنت أنت ساعدي الأيمن فإن الـــرزاز ســـاعدي الأيسر ، وعلى بلوط يعلم ذلك – إنه يلعب لعبـــة أضخـــم مـــن شجرة البلوط التي ينتسب إليها ، ما الذي يبغيه من هذا الانقلاب ؟ ولماذا لم يتشاور معي وأنا سيده وأميره في عمل هذه الحركات المفاجئة التي يحدثها ، لقد انتظر حتى خروج المحمل ببعض من قواهم ، وأحدث لنا هذا الارتباك .

ثم التفت إلى محمد أبو الدهب يسأله :

– بصفتك خازنداره وخادمه ، هل يمكنك أن تدلنا علـــى ما يدور في خلد أميرك يا أبو الدهب ؟

تـحدث أبو الدهب عن إخلاص على بيك بلوط لأستاذه عبد الرحمن كتخدا وقال :

– إن على بيك لم يعطله عن المثـــول بيـــن أيديكـــم إلا الشديد القوي ، لقد تركته ودرجة حرارته مرتفعه ، ويغرق فـــي عرقه لكن الأمير عبد الرحمن أشاح بيده – فكف محمـــد أبـــو الدهب عن الـــكلام وتأخر خطـــوة ، وأخـــذ الأمـــير بناصيـــة الحديث، ليشحن حسين بيك كشكش ضد علـــى بيـــك بلـــوط ، ويجعله يتبرأ من مشاركته له في هذا الانقلاب ، وعندما وجد أن

حديثه قد أصاب وترا في نفس حسين بيك كشكش ، قام بصرف محمد أبو الدهب وحمله رسالة إلى سيده :

– قل لعلى بيك بلوط ، إنني في أشد الضيق على نفـــي الرزاز دون مبرر ، وقل له لقد حصلت على فرمان ضد اثنيـــن فلماذا أضفت الثالث ؟ وآتني بالرد حالا ، أما هـــو بمجـــرد أن ينصب طوله ويقف على حيله ، يأتي إلى مجلسي في الحال فاهم يا أبو الدهب ..

أحنى أبو الدهب رأسه وهو يرمق حسين بيك كشكـــش بطرف عينيه وقال :

– فاهم يا سيدي فاهم .

تمهل أبو الدهب في جمع نفسه ومغادرة المجلس ، فسمع الأمير عبد الرحمن يبدأ الحديث مـــع حســين بيـــك كشكــش لاستمالته ضد على بيك بلوط ، بدأ بالحديث عن دوره في رفـــع قيمـــتهم ، وأنه صاحب اشتعال الصراع بين (الينكجرية) ضد (العزبان) في صراعهم الطويل ، وأنه (أنا) الـــذي جعلـــت أمثالكم بكوات يقتنون المماليك والخدم ، وتسند لهم الوظـــائف ، وكان حسين بيك كشكش يحاول مرضاة الأمـــير عبد الرحمـــن بكل الوسائل .

عندما خـــرج محمد أبو الدهب من بـــاب القاعـــة ، دار ومـــشى خلف مشربية القاعة ، فلم يتمكن إلا من سماع غضب الأمير عبد الرحمن كتخدا ضد سيده ، وكان الموقف قد اتضح له ، بأن الأمير يريد استخدام قوة حسين بيك كشكش ، للقضاء على قوة أميره على بيك بلوط .

** ** **

دخل محمد أبو الدهب على سيده ، فوجده يتحرق شوقـــا إلى نتائج لقائه بأستاذه ، ولم يخف عنه خادمه وتلميذه شيئا ، بل قام بالتحليل لكل ما شاهده وسمعه بأن الأمير عبد الرحمن يرغب

في استمالة حسين بيك كشكش ضده ، إما لتهديده ليعـــود إلـــى حظيرته ، يستشيره في كل كبيرة وصغيرة ، أو للقضاء عليه ..!
وسأله على بلوط في لهفة :

– وموقف حسين كشكش من هذا التحريض ؟

قال أبو الدهب : حتى مغادرتي للقاعة ، كـــان يحـــاول تهدئة الأمير ، لكن طرد رضوان جريجى الرزاز ، هـــو الـــذي أثار الأمير وجعل الغضب يعصف به .

مـــلأ على بلوط صدره بالهواء ، وقال كمـــن صدقـــت فراسته وتنبؤاته :

– نعم ، له أن يثور ويغضب ، لقد صدقت تخميناتي بأن رضوان جريجى ، كان السيف المسلط على رقبتي ، كما كنـــت أنا السيف المسلط على رقبة (علي تابع صـــــابونجي) ، إنـــها الدائرة المحكمة التي يلعب بداخلها الأمير ، لكن الدائرة انكسرت الآن ، لنلتقط أنفاسنا .. لكن ما يقلقني حقا ، هو موقف حســـــين كشكش ، أتدري يا أبو الدهب ، إذا والس على وركبته العصبية ضدي وهزمته ، لجعلتك أنت قائد عسكري وحرسي ، ولاستعنت بك ورفعتك إلى مصاف البكوات والقادة الكبار ، والآن يمكنـــك أن تقرأ شيئا عن خالد بن الوليد .

نكس محمـــد أبو الدهب رأســـه تواضعا ، لكن علـــى بلوط الذي كان أطول ، اقترب منه وهمس في أذنه : أنت لها يا أبو الدهب ، وأنت تعلم أن القضاء على سيدك ، هو قضاء مبرم عـــليك ، أرهف أذنيك جيدا ، وفنجل عينيك ، وإلا كانت نهايتنا جميعا .. !

قال أبو الدهب في نعومة :

– منذ أن تبوأت الرئاسة يا سيدي ، وأنا أنام نوم الثعالب عين مغمضة وعين مفتوحة ، الآن لابد وأن ننام نـــوم الســـمك، بعـــينين مفتوحتين ، ولكني أرجو أن تهدأ أنـــت ، حتـــى آتيـــك

بالأخبار المؤكدة ، من عيوننا في قصر الأمير ، إذا كان حسين بيك كشكش قد صار ضدنا - فإن قـــوة عســكرنا ومعاونينـــا - تساوى قوته ومعاونيه ، ولن يكون أمامنا ونحن بيدنـــا أمـــوال الميرى ، إلا أن نكتري جملة من عسكر المغاربـــة ، يعاونوننـــا على استتباب الأمن ، فلن يعترض أحد عـــلى المخصصـــات ، وبالعسكر المغاربة تكون كفتنا هي الأعلى والأرجح .

كان على بيك بلوط يستمع إلى خازنداره ، وهو يشعـــر بكثير من الإعجاب لقدرته علـــى اســتيعاب خطـــورة الوضـــع والتفكير السريع في وضع الحلول المناسبة .

وبعدها ، شعر بأن هما ينزاح عن كاهله ، فلم يعد موقف حسين بيك كشكش يؤرقه ، بل أنه رأى بأن حسين كشكـــش إذا أعلن تحديه له - يكون هو البادئ بالمحاربة ، والبادئ أظلم !

** ** **

في نفس المساء وصلت الأخبار إلى على بلـــوط بـــأن حسين كشكش لم يوافق على الولس عليه ، وأنه نصح الأمير بأن يصبر على شيخ البلد ، حتى يتبين مدى أطماعه التـــي (يقـــول عنها) ، لكن الأمـــير عبـــد الرحمـــن صـــرف الجميـــع واختلىبحسين كشكش وحدهما لأكثر من ساعتين ،وقـــال أبـــو الدهب :

- وبما أنك وحسين كشكش أصحاب وزمـــلاء ، فإنـــه بالقطع سيأتي إليك ويستفهم منك بما سره إليـــه الأمـــير (عبـــد الرحمن كتخدا) وهـــما وحدهما ، ذلك إذا كان صاحبك بالفعل ، أما إذا كـــان قد والس معه ، فلن يأتي وسيذهب إلـــى قصـــره مباشرة ، يسن السيوف !!

وقال على بيك بلوط :

– والله كلامك مضبوط يا أبو الدهــب ، هــاهو المــاء وهاهو الغطاس ، لكن هل ننتظر ونضيع الوقت ؟ !

قال أبو الدهب : أنا لم أنتظر وحددت لحضرتك موعــدا مع كبير المغاربة ، وهو قد جاء ليتفق علـــى إعــداد الرجــال المقاتلين وإعاشتهم ونصيبهم في المغانم عندمــا تنتصــر علــى منافسيك بإذن الله .

غمغم على بيك بلوط :

– قــل (الأعداء) يــا أبــو الدهــب ، المنافســون لا يزيحون منافسيهم بالقتل والتشريد .

لكن أبو الدهب أحنى رأسه ولم يــــــجب ..

** ** **

بهروب شيخ البلد المخلوع ، على بيك تابع صـــابونجي وصعود على بيك بلوط إلى دكة المشيخة ، استتب المنصب له. وبما أن بلوط تعنى الشجرة الضخمة ، وهذا الاسم يجد عند أبناء البلد شيئا من السخرية ، ورأت الحاشية أنه يتداول كثـــيرا بيـــن الأعيان والمشايخ ، وأصحاب حرفة الكتابة ، وشيوخ الطوائـــف والحرف ، فقد رأى المكاتبين (وجمـــاعة الفـــلاح) أن يذكـــر (الكبير) بدلا من بلوط . وقد كان (على بيك الكبـــير) ضخـــم البدن ، ووجد في الاسم مسمى فوافق ، وصار يذكر بعلي بيـــك الكبير ، عند غير المماليك .

وتم إخراج فرمان من الباشا ، مذكورا فيه تولية علـــى بيك الـــكبير لمشيخة البلد ، وفى أعقاب ذلك ، بادر بالاســـتيلاء على أموال الهاربين والمنفيين من المتآمرين على أميره (عبـــد الرحمن كتخدا) ، وختم على بيوتهم بالشمع وباعـــها ، ليتقـــوى بثمنها عهده الجديد .

واستكثر على بيك الكبير من شراء المماليك ، والإنفـــاق على المـــغاربة ، فصار في حاجة إلى كثير من الأموال ، وعليه فقد شرع في مصادرة أموال الأمراء المنفيين ، وجمع بـــالذوق وبالحيلة من أرباب البيوت والأعيان ، الدراهم . وقـــد رأى أن الملاطفة جاءت له بالمال الكثير ، فحصل على المال وفوقه شئ مـــن الثناء على عهده ، وهو في الأصل عمـــد إلـــى أن يفعـــل

عكس ما كان يفعله من سبقوه ، في استخدام العنف وإراقة الدماء والقسوة التي لم يكن المقصود منها جمع الأموال فقط ولكن ليستمر إرهاب أبناء البلد ، ليبعدوا عن تفكيرهم ، إنهم أصحاب البلد الأصليين ، ويفقدوهم الثقة في أنفسهم ، ويبعدوا من أذهانهم أنهم جديرون برئاسة أنفسهم ، وحتى لا يفكر أحد منهم بأن تكون ثروات البلد لأبناء البلد . وربما لأن سيرة حسين بيك كشكش قامت على مصادمته للعربان ، ومعاملتهم جميعا على أنهم قاطعوا طريق ، وكان ذلك يجد قبولا لدى أمراء المماليك ، الذين يعلمون أنهم جميعا لا يتجاوز عددهم الخمسين ألف مع خدمهم وخاصتهم ومعيتهم ونسائهم وأولادهم ، وهم بذلك يعلمون بضعفهم الذي يأتي من التنافس بينهم ، والصراعات التي لا تكف عن الصعود والهبوط ، والدوران في حلقة تحكم نظامهم الذي لا يستقر على حال .

إن هذا يضعف من شأنهم ، ولا يجعلهم في حالة تسمح لهم بمصادمة فرقة (عثمانية) تأتي من الشرق ، أو محاربة الفرقة العثمانية التي تحمى القلعة ، ويأتي بها (الباشا) ، ثم تنفصل عنه تدريجيا ، فيرحل ليأتي غيره ، ليستمر البشوات في نقل ثروات الولاية إلى الباب العالي ، وتنفيذ المطلوبات العلية والأوامر السلطانية بتجييش الفرق للاشتراك بها في حروب السلطان ، أو دفع مصاريفها وتحمل نفقاتها ، ويدرك أمراء المماليك أيضا أن لابد من استمرار ضرب العربان بسبب أو بدونه ، حتى لا تقوم لهم قائمة يمكن أن تتحدى شراذم فرسانهم ، بأعدادهم الكثيفة عندما يتوحدون تحت راية أمير منهم ، لكن لحسن الحظ أن طبيعة هذه القبائل العربية كان التنازع مثلهم ، فبقيت لهم اليد العليا ، كفرسان ينشأون على الحرب والنزال .

أما أبناء البلد فإن حاراتهم تغلق عليهم ، يكتفون بذلـــك الأمـــن والعيشة الرضية ، وما على أمراء المماليــك ألا تجويعهـــــــم وترويعهم وترويضهم ، ثم مصادمتهم بالقتل والتشريد من حيـــن لأخر ، حتى يتذكروا دائما قسوتهم فييأسوا إذا ما فكـــروا فـــي التخلص منهم ..

وكيف يمكن لمن يسمي ابن البلد أن يتخلص من الـــذي أطلق على نفسه (المصرلية) ؟

وكان لشيخ البلد تفانينه ، ويريد أن يختلف عمن سبقوه ، ولكي يختلف فكر أن يفعل عكس ما فعله أسلافه ، وأن يسير في الطريق المضاد الذي كان يجد هوى في نفسه ، وقـــام بتجربـــة المـــلاطفة مع التجار والأعيان ، فوجد لهذا السبيل صدى طيب في نفـــوسهم ، فقربهم من مجالسه واســـتمع إلـــى شكاواهـــم واقتراحاتهم ، قربهم وقدم لهم (المشاكل) فقدموا لــــه الحلـــول الجـــاهزة ، التي وجدت استحسانا في نفســـه فطرقـــها وجعـــل مجلسه يضم العديد من الشيـــوخ والأعيـــان ، وكبـــار التجـــار والنقباء، والتفت إلى اقتراحاتـــهم ، فـــي شـــئ مـــن التواضـــع الصـــادق ، فمنحوه ثقتهم وغذوه بالمال الذي أراد أن ينفقه على الأمـــن والحراسة ، وعلاج المشاكل الداخلية ، فـــإذا بالغطـــاء يرفع عن مجتمع لأبناء البلد تحكمه القيم والتقاليد ، وتلك الثوابت والأعـــراف المتوارثة ، وفى هذا المجتمع يعيش شيوخه في أمن واحترام ، مع كل الضجيج الذي يحيطهم إلى ما بعـــد المائـــة ، وسأل نفسه : لماذا يكون مكتوبا علينا نحن المماليك المنعمين بأن نموت قتلى ؟ وكيف يمكن للمماليك الموت على الأسرة مثل خلق الله ؟

وكانت الإجابة تـــأتيه في مجالسه ، يمكنك القضاء على الأعداء وكـــسب أصدقاء جدد في وقت واحد ، إذا ما سعيت إلى

تحقيق مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات ، ولخصوها له في عبارات موجزة " بالرحمة والتراحم ، وأن الله رحيم بعباده" .

إن هذا المبدأ لا يسود إلا بين أمراء المماليك ، أما الفلاحون وأولاد البلد فإنهم خلقوا للتخديم على من يموتون من أجلهم وسأل نفسه : لماذا لا يدافعون عن أنفسهم ؟

كانت الإجابة نابعة من العلماء الذين يحيط نفسه بهم ، ويفتح لهم ديوانه ، الحرب لابد أن يكون لها دافع قوى ، الحرب تعنى أن المحارب يقدم أغلى ما عنده رخيصا ، إنها روحه التي لا يملك بديلا لها .

والمحارب يقاتل من أجل دينه وشرفه وعرضه ، أرضه وماله فإذا ما أهدر شرف أبناء البلد واستنفدتم خيرات أراضيهم وهتكتم أعراضهم ، فلأي شئ يقدمون أرواحهم رخيصة ، هل هم من السذاجة لكي يقدموها لمغتصبيهم ؟

وعثر على بيك الكبير على الدافع الذي يجعل أبناء البلد يحيطونه بالحماية ، ضد غدر المماليك ، الذين باتوا يتربصون به ، ولا يكفون عن التآمر ضده ، هو يعرف أنهم جبلوا على ذلك ، وصار هذا قانونهم الذي لا يخجلون منه .

لكن أبناء البلد لم يعتادوا على الحرب والنزال ، وهذا الأمر يجب أن يعد له عدته ، وإذا ما استعد له - تآلب عليه الأمراء وتحركت ضده (الانكشارية) وغضب الباشا ، وقد رأى عندما كان يدخل على مجلسه حسين بيك كشكش كان يدفع أمامه إجابة لتساؤلاته ، وحلا للمشكلة التي تؤرقه ، هذا هو قاتل الأعراب وحامل رؤوس شيوخهم إلى ميادين مصر ذلك الذي يمضي في عكس طريقه ، بينما هو يبغي الصلح مع الأعراب ومهادنتهم ، ثم استخدامهم كقوة إضافية ، يمكن الاستعانة بها في وقت الحاجة ويمكن استقرارهم في نجوعهم البعيدة

وصحرائهم النائية ، وهناك يمكن إيجاد أماكن لتدريب من يــراه ملائما من أولاد البلد .

كان يتمشى في حديقة قصره ، يقلب في نفسه ما يـدور في ذهـنه ، عندما رأى الشاب (حمدان) ابن الشيخ منصـور أمين دارة الصـغرى ، يشـرف عـلى تشغيـل عـدد مـن البستانيـة . شاب فارع الطول لفحته الشمس بسمرتها، وشـاهد ساعديه المفتولين ، وسمعه يوجه أحد العمال حتى يتقن عملـه . ربما تساءل في هذه اللحظة لماذا لا يستفيد من طاقة أولاد البلـد يدنيهم منه ويشكل من شبابـهم (فرقـة) عسـكرية - تدعـم طموحاته التـي تعمل في نفسه ، ولم يتحدد بعد الغرض البعيـد وربما جرد حمدان من ملابس البستانية ، وأضفى كسوة عسكرية ومنطقه بالسيف ..

وبينما كان حمدان يخاطب أحد رجاله - لا ليعلمه كيف يغرس الأشـجار ويسقيها ، وكيف يقضـي عـلى الحشـائش الضارة ، بل يعلمه كيف يقتل الأعداء ويمكر بهم ..

ربت على ظهر البستاني في رفق وحزم ، وطلب منـه العمل كما فعل أمامه ، فإذا بالعامل يقوم بما تعلمه بنفس الإتقان، عند ذلك أشرق وجه حمدان بالراحة وتركه لعمل آخر .

هنا بادر الأمير وخرج إليه من خلف الأكمـة ، ونـاداه فهرول إليه ، وقف حمدان على مبعدة خطوات ملبيا النداء فـي شئ من التعجيل ، أمهل (على بيك) خازنداره (محمـد أبـو الدهب) الذي يسير خلفه - وصحب حمدان من ساعده وأنتـى به في طرقة أخرى بالحديقة ..

بعد أن استخبر منه عن أحوال والـده وأخوتـه وأهـل الحارة التي يقع فيها بيته الصغير ، سأل حمدان :

- قل لي يا حمدان - لو هاجمك لص أو قاطع طريـق يريد أن يسلبك ملابسك ، ماذا أنت فاعل به ؟

أجاب حمدان على الفور :
– أقاتله يا أمير .
– كيف تقاتله وأنت لا تتقن اللعب بالسيف ؟
– أقاتله بالنبوت ، فنحن وقد حرم علينا حمل السيف نتقن النزال بالنبوت ، وقد صار هذا من احتفالاتنا نلعب به ونرقص به ونتبارى به .
تفكر الأمير وقال باهتمام باديا على وجهه :
– ولأي مدى تجيد اللعب بالنبوت يا حمدان ؟
– إلى المدى الذي يمكنني أن أقاتل به حامل السيف يا سيدي وأهزمه .
وضع الأمير يده على كتف حمدان – وقال في أذنه :
– احضر عددا من الشباب ، ودربهم على اللعب بالنبوت وإذا نجحت سأعينك مقدما لهم .
قال حمدان في ثقة :
– ولماذا نضيع وقتنا في التدريب - اللعيبة بالنبابيت كثيرون يا سيدي ، هل أجمعهم ؟
تفكر الأمير قليلا ، ثم قال في شئ من الجدية التي تغلغلت في أعماق حمدان :
– أنا لا أريد لعيبة بالنبابيت ، بل أريد محاربين بالنبابيت يقاتلون بها كما يقاتل الفارس بالسيف – هل أدركت غرضي ؟
لم يجب حمدان على الفور – لكنه بعد قليل قال :
– ليتني أدركت غرضك يا سيدي الأمير .
وقبل أن يستدير الأمير على بيك ويعود إلى خازنداره محمد أبو الدهب الذي تشاغل بعيدا ، همس في أذن حمدان :
– هذا الأمر سيبقى سره بيننا ، والنفقات احسبها وسأدفعها لك لكن هذه (الفرقة) لابد وأن تكون جاهزة قبل خروجي بالمحمل.

** ** **

" كان المحمل المصري يرتبط بشعائر الحج إلى بيت الله الحرام وما يرتبط بالحج من عمل كسوة للكعبة سنويا . وهي عادة دينية عرفها المسلمون منذ فجر الإسلام ، وقد انفردت مصر منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي (العصر المملوكي) بإرسال الكسوة السنوية إلى الكعبة المشرفة والأماكن المقدسة الإسلامية الأخرى بالحجاز ، وكانت الكسوة عبارة عن قماش فاخر مطرز بآيات القرآن الكريم والمزركشات الإسلامية ، توضع الكسوة فوق هيكل خشبي يحمل على جمل يطلق عليه اسم المحمل ، وكان المصريون حكاما ومحكومين يبدون اهتماما كبيرا بموكب المحمل ، فكانت الاستعراضات العسكرية ويتجمع حوله رجال الدين والطرق الصوفية ، ويصاحب المحمل الفرق الموسيقية والحجيج إلى الأراضي الحجازية وقوة عسكرية لحماية الأموال والأدوية والأقمشة والأطعمة التي توزع على فقراء أهل الحجاز .. وفي أوقات الضعف وانتشار الفوضى كان يتربص اللصوص بالمحمل لنهب الحجيج وما يحمل من أموال وأغراض أخرى .. "

** ** **

كادت هذه المفاجأة تجعل حمدان يقفز على الأرض فرحا. لكنه تماسك في مكانه حتى اختفى الأمير وتابعه من طرقات الحديقة ..

وقام حمدان بن منصور الأسيوطي ، بجمع لعيبة النبابيت وخصص لهم الأمير المخصصات والأماكن التي يتبارون فيها فتكونت منهم فرقة من ستين لاعبا ، شديدوا المراس لهم حنكة في الصد والهجوم بالشماريخ ، وعندما وجد الأمير أنهم على أحسن تدريب - طلب من كل فرد منهم تدريب عشرة أفراد وأن يعينوا أمراء عشرة - لهم راتب ثابت -

ويكون حمدان مقدما على الستمائة ، وعليه أن يعمـــل علـــى أن يجعل الجميع في مهارته .

وأجرى بين الستمائة المباريات ، ثم دفـــع بجملـــة مـــن المماليك للتباري معهم ، وعندما كانوا يتلاعبون بالمماليك الذين يتبارون معهم ويسقطون من أيديهم النبابيت ويلمسون أجســـادهم بنبابيتهم شاع خبر هـــذه الفرقة ، وأقلقت أخبارها أمراء المماليك وكانت حديثا لنواديهم ، فإن أولاد البلد صاروا يكتسبون الجـــرأة على المماليك بالنبابيت في هذه المباريـــات ، وأوصـــل بعـــض الأمراء قلقهم إلى محمد بيك أبو الدهب ، لينقل رسالتهم إلـــــى أميره ، لكن محمد أبو الدهب الذي يخبر أغراض سيده ، كـــان يطمئنهم بأن (الشماريخية) أعدوا من أجل اللعـــب والتســـلية ، ولن يستخدمهم الأمير في قتال ، ومهما كـــان النبـــوت خفيـــف الحركة فالسيف الذي بين أيديهم أقوى منه وأفتك يكسره ويهزمه، ولم يقنع الأمراء بهذا الرد ، وطلبوا أن يفرغ سيده من أولاد البلد ويعيدهم إلـــى سابق أعمالهم ، وأن ينقل إليه تحذيرا بـــأن هـــذا انقلاب على السياسة السائدة بينهم ، وضرورة ابتعاد أولاد البلـــد والفلاحين عـــن اكتساب هـــذه الثقة فـــي أنفســـهم ، ومـــع أن مـــحمد أبو الدهب كان يؤيدهم الـــرأي ، إلا أنـــه لا يعـــارض أمـــيره في بناء فرقة خاصة يستخدمها وقت اللـــزوم ، أمـــام غدر الأمراء ، وتقلباتهم الحادة .

** ** **

وفى هذه الأيام ، كانت جماعة (الفـــلاح) قـــد انتشـــر صيتها .. فسعى على بيك للاتصال بكبيرهم وأســـتاذهم الحـــاج (صالح الفلاح) وهو من قرية الراهب بالمنوفية ، تربـــى فـــي منزل (على بيك كتخدا الجلفي) ، ولم يزل يتنقل فـــي الأدوار ، حتى صـــار من أرباب الأموال ، واشترى الممـــاليك والعبيـــد

والجواري يزوجهم من بعضهم ، ويشترى لهم الدور والوظائف، ويتوسط لهم ليدخلهم الوجاقات والبلوكات بالمصانعات والرشاوى لأرباب الحل والعقد المتكلمين ، حتى صار لجماعته شأن فتغلغلت بالولايات ومصر، وتلبسوا المناصب الجليلة كتخداءات واختيارات ، وأمراء طبلخات وجاويشية وأدباشية ، والجميع أتباع مخلصون لصالح الفلاح ، وبينهم اتصال وإقدام وطاعة ، وصار للأتباع أتباع ومماليك ، وعظم شأنهم في أرجاء الدولة العثمانية ، فتوجس العثمانيون أولا من جماعة (الفلاح)، وهم يشاهدون ما بينهم من أسرار ونظام متدرج ينتهي برئيسهم وكبيرهم الحاج (صالح الفلاح) ، وحاول البعض القضاء على شأفة هذا (البيت) بحجة أنه (بيت مصري) يعاون عربان البحيرة وعربان الهوارة بوجه قبلي والمماليك المتمردين ، ويتلقى معظم رجال هذا البت تعليما إسلاميا ، يتذاكرون فيه سير الصحابة وأهل البيت ، وصار لهم فروع في كل مكان ، يوالس معهم ، ويكشف ما يخبئونه ضدهم ، ويساند الناقمين ويخفي الهاربين .

ولأن هذا النظام السري ، كان يقتبس من الحركات السرية التي جاءت بالدولة العباسية والدولة الفاطمية ، وكثير من حركات العصيان ضد الظلم ، فقد فشلت محاولات عديدة في وأد هذا (البيت) .

وتمكن على بيك الكبير أن يتصل بجماعة الفلاح وقيل أنهم هم الذين بادروا إليه بالتقرب ، بعد أن استشعروا ميله إلى الثقافة الإسلامية عندما بدأ عهده بالملاطفة عقب وصوله إلى مقعد المشيخة ، إذ سارعوا وعرضوا عليه قدراتهم على أداء خدمات جليلة له ، تساند ميله إلى أبناء البلد ، واستراحوا إذ وجدوا لديه الميل الطبيعي لأن يفعل عكس ما يفعله أسلافه ، وأن ذلك ينبع من داخله ، وقبل استخدام نصائحهم معه .

وأعانوه ، واستعان بتنظيمهم الدقيق في القضاء على مؤامـــرات العثمانية ضده ، يكشفون له لب سياســتهم فــي دوام الصــراع والفرقة ومعاونة المنفيين وأرشدوه إلـــى عــدد مــن أصحــاب العكاكيز من المشايخ الذين يملكون طاعة عدد كبير مـــن أبنـــاء البلد ، ولهم تأثيرهم على العــامة ، كما عاونوه بما يحصلــــون عــليه مــن أسرار ، يحصل عليها أعوانهم المنبثون في وظائف الدولة في مصر والولايات الأخــرى ، بــل إن بعضـــهم كــان متواجدا في وظائف هامة بحكومة الباب العـــالي ولديـــهم مــن الأعــوان في الأقاليم ، بوجه بحري وقبلي الكثير ، كما أن لديهم من يدخلون في طاعة الحاج صالح من شيوخ عربـــان البحـــيرة وعربان هوارة .

وفى تواضـــع طلاب العلــم ، استمع (على بيك) إلى تعاليم الإسلام الحقة ، من وفد الحاج صالح الفلاح ، يدعونه إلى المآخاة بين المسلمين جميعا ، ولا فرق بين عربي وأعجمـــي إلا بالتقوى .

استمتع بأقوالهم ، وبادر بطلب أن يكون واحدا منـــهم ، فهو لا يريد إلا الخير لهذا البلد ، الذي ليس له غـــيره ، وقـــال لهـــم :

– لكن تقلب أمراء المماليك ، وسياسة الدولة العثمانية ، يوقف توجهاته إلى عمل الخير لأبناء البلد ويعطله .

نقل الوسطاء إلى شيخهم صالح الفلاح ما استشعروه وما سمعوه من على بيك فحضر صالح الفلاح لمقابلته وتقدم وبايعـــه أميرا للجماعة .

وفى تواضع قال على بيك :

– بل إني أفخر بأن أكون عضوا في جماعـــة تدعـــوا للصلاح والتقوى والخير لأبناء هذا البلد الكريم .

وفى أعقاب ذلك ، كان العملاء السـريون فـي مواقـع عديدة بـطول البلاد وعرضها يقدمون على بيك للعامة ، على أنه الأمير المنتظر لرفع الظلم عن كاهل العبـاد ، وأن الرجـل طيب السريرة ، وقلبه يختزن عشقا للإسلام والمسلمين .

وجرت سيرته في الربوع ، فاستشاط الحاسـدون عليـه حنقـا لصعود نجم هذا الأمير في فترة وجيزة ، حتـى صـار اسـما يتـردد في مجالس الدولة العثمانية وأطرافها ، وكل عمل يعمله، أو كلمة يتفوه بها ، كان يحاط بدعاية كبيرة ، وكأنه ولـي مـن أولياء الله الصالحين .

فأكتسب (على بيك الكبير) ، ذلك الصيـت العريـض الذي لم يكلفه إلا بضع كلمات ، خرجـت مـن صـدره بـدون اسـتعلاء وانـتظرت (جماعـة الفـلاح) وقـد أحاطتـه بمعروفهـا، أن يكون لها ، ويتجه إلى رفع المظالم عن كاهل العباد بحق ويسلم البلد لأهله عامة ولهم خاصة .!

فهم الجماعة ذات الثقافة الإسلامية ، وهم الذين رأوا أن يترجم اسـم بلوط إلى (الـكبير) فيكون (على بيك الكبـير) وليس(على بيك بلوط) ، وأشاعوا استخدام الاسم العربي الذي لم يستخدمه منافسوه وغرمائه مطلقا .

** ** **

(٨)

منذ أن أضعف (على بيك الكبير) حراسة القلعة ، وسد أبوابها بخاصته ومماليكه . كان الباشا بداخلها يرتعد مـــن ذكـــر اسم على بلوط وخاصته ، وكان عندما يحضر ويطلب المثـــول بيـــن يديه ، يريد أن يصرفه بأي طريقة ، يكـــاد يرســـل إليـــه برسول يقول له إفعل ما تشاء وأرسله لنا نبصم لـــك عليـــه ولا تحضر لنا في القلعة بهذه الزفة .

كان الباشا في نزاع مع قادة الأبواب الســـبعة ، لتـــأخر جامكيتهم ومخصصاتهم ، والدولة العليـــة مشغولـــة بحروبـــها وتحالفاتها التي لا تنتهي ، وكانت أيام الباشا على وشك الانتهاء ، وقد سرب ما تمكن من الحصول عليه ، مـــن أمـــوال وهدايـــا ونفائس ، ولم يتبق لديه سوى القليل .

وشعـــر بالانزعاج لهذه الضجة المفتعلة ، التي يصنعها مماليك شيـــخ البلد وحرسه وخدمه ، عند صعوده إلى القلعة أو النزول منها ، كان يريد أن يفرغ من لقائه ، فقد تحول الديـــوان في القلعة ، من ديوان للباشا ، إلى ديوان لشيخ البلد ، لولا بقيـــة من خشية وخوف قديم مترسب منذ فتح مصر ، على يد ســـليم الأول ، لتطاول هذا العملاق الذي يشعر الباشـــا بضآلـــة بدنـــه بجواره ، وقام بقطع هذه الصلة وحبسه في ركن مـــن أركـــان القلعة ونهب متعلقاته .

كان الباشا يلجلج في الكلام للأفندية الذيـــن يعاونونـــه ، ويشكو لهم عدم الاستجابة السريعة من الباب العالي ، لاقتراحاته ورؤيته قـــبل أن يستفحل هذا الأمر . ومع ذلك فإنه عندما كـــان يلتقي بعلي بيك بلوط يحاول أن يتماسك وأن لا ينسى أنه باشـــا عثمانلي له السيادة على مصر ، ويحاول بقدر الإمكان أن يفرغ من هذا اللقاء بأي صورة تكون ، يتنفس الصعداء إذا ما ســـحب على بيك أعوانـــه وحرسه وغادروا القاعة .

لكن على بيك كان يكثر من الحضور ، وقد حضر إليـــه كـــالعادة ، وبعد نصف ساعة بين الضغوط والمداهنات والنفـــاق بينهما وكذلك الشد والجذب ، حصل على بيك على فرمان بطرد (عبد الرحمن كتخدا) إلى الأراضي الحجازية ، على أن يذهب ولا يعود ، وقال للباشا :

– فقـــد ثبت لنا أن الأمير عبد الرحمن يحرض القـــوى المملوكية بعضها على بعض ، وهو المنغمس في اللـــهو ، ممـــا يبـــعث الفتن في البلاد ، فقد اتصل بعلي كتخـــدا الخربطلـــي و عمر جاويش الدويدار ، وطلب منهما مغادرة وجه بحري إلـــى وجـــه قبـــلي والانضمام إلى الهاربين مـــن الممـــاليك هنـــاك ، وفيهم (على تابع صابونجي) ، ويحاول استمالة رأس صاحبنـــا (حسين بيك كشكش) لتكون فتنة كبرى في البلاد .

وقبل أن يستكمل الصورة للباشا يبصم له الباشـــا علـــى الفرمان وهو يتحرز قائلا :

– أنتم مصرليه تعرفون شئون بعضكم ، وهذا الفرمـــان أمام شهود ، أستخرجه لك لأنك أنت الرئيـــس الـــذي اختـــاره المصرليه وأنا غير مسئول عما يحدث بعد ذلك .

ربما سر الباشا لهذا الانقلاب الذي يتفجر مـــن داخـــل (البيت) الجاثم على صدره .

قال (على بيك) في هدوء :

- سيحدث كل خير إن شاء الله يا باشا ، وكل طلباتك في القلعة ستكون مجابة بإذن الله .

فمال الباشا على أذنه ، يذكره بالعوائد والهدايا التي كانت تقدم من المصرلية للبشوات السابقين .

ضحك (على بيك) في وجه الباشا قائلا :

- العوائد والهدايا ستتضاعف لمعاليك يا باشا ، لتكون مضرب للأمثال ، أنت الذي أخذت وأنت الذي أعطيت .

فانكمش الباشا ، و(على بيك بلوط) في ضجه وضجيجه الذي يحدثه أتباعه ، عندما يطلع وينزل من القلعة ، وعند الأبواب وزع (أبو الدهب) الحراسة على المنافذ ، لمنع أي شخص من (الأفندية) الذين حضروا تحرير الفرمان من النزول إلى المدينة ، وإشاعة الخبر قبل تنفيذ المطلوب بكل دقة .

** ** **

لم يكن عزل ونفى الأمير (عبد الرحمن كتخدا) من مصر سهلا ، لقد كان لوالده المتوفى تلك العزوة الكبيرة ، والمماليك والأتباع ، وقد تقدم له المعونة من حيث لا يحتسب ، كما أن المكانة الخاصة التي كانت لوالده عند الباب العالي ، لا تزال وثيقة ، ويجب أن يعمل لها ألف حساب .

كان ولابد أن يستميل حسين بيك كشكش استمالة كاملة ، وكان حسين بيك يعارضه في الخفاء ، لكن عند اللقاء به لا يتحدث بما في نفسه - هي مرة أو مرتان - عندما عاتبه على سماحه بتشكيل فرقة من أولاد البلد ، تحت قيادة حمدان كبير البستانية في قصره .

ضحك وقال :

- الشماريخ للتسلية يا حسين بيك .

ولكن حسين بيك كان يتكلم بجدية ، فقال له على بيك :

- إنها فرقة للتحطيب ، وتقديم عروض للتسلية .

لكن حسين بيك لم يقتنع أن مئات من حملـــة الشمـــاريخ يتبارزون بها ويتلاعبون – يمكن أن تكون للتسلية .
وفى المرة الأخرى طلب منه (جرجا)، فهل ســـيعطيه جرجا ؟ وهي مدينة ذات أهمية خاصة .. فمن يملكها ، يتحكـــم في الصعيد ، ويمسك على (مصر) الغلال والطعام ..
وخشي على بيك أن يتقوى صاحبه هناك بالهاربين مـــن أشـــتات المماليك ، ويقطع عن مصر الغلال ، حتى يثور ضـــده العـــامة ، عندما يقرصهم الجوع ، وأمام هذا الطلب الذي لمـــح به حسين بيك أجابه بأنه سيقوم بتنفيذه له في القريب العـــاجل ، عندما يشغل من يبغونه عنه ، ثم يهديها إليه .
أما وقد صارت له فرقة من أبناء البلد – حملة الشماريخ - بالإضافة إلى الاتفاق مع قوة من عسكر المغاربة ، وقـــد بـــدأ توافـــدهم إلى قشلاقه ، بحجة محاربة الأعراب الطامعين فيـــه لقلة عسكرة بعد خروج المحمل . فقد أرسل لصاحبـــه حســـين كشكش ووضع بين يديه ما طلبه منه (إدارة جرجا) ، وكلفـــه بأن يضرب التحالفات التي تتم بين أمراء المماليك المنفيين هناك وكان هذا شرط لتوليته (جرجا) ..
وافق ، وقال حسين كشكـــش : مـــن يرنـــي بعيـــن أره باثنتين.
فأقام له ولخاصته مأدبة للوداع ، وأخذ يوصيـــه بوجـــه قبلي حتى آخر ممتلكات مصر .
وقال له وهو يحيط رقبته بذراعه في أخوة :
– أنت لها يا حسين بيك ، وكم أتمنى ألا نختلف أبدا .
وتعانقا . وكان (حسين بيك كشكش) قد ضـــاق بالصراعـــات والمـــؤامرات وقعدات الكلام والعتاب ، واشـــتاق للميادين التي ترمح فيها خيوله ، محاربا . وفى وجه قبلي بين الأعراب

والمماليك المنفيين .. كما أنه هناك سيكون أميرا متخففا من الأوامر والتعليمات الفوقية – وبعيدا عن الفرمانات التي يصدرها الباشا ولا أحد يعلم أهي رغبة الباب العالي أم أنها من خفايا نفس شيخ البلد وألاعيبه ..

وشهل قواته وبعد يومين ، سافر ..

وانتظر على بيك يومين ثم قام بارسال خازندارة أبوالدهب لحصار قصر الأمير (عبد الرحمن كتخدا) – دون مقاومة كبيرة من حرسة وخدمه ، وطلبوا منه أن يسافر إلى الحجاز ولا يعود .!

إلا بعلم علي بيك الكبير لدرء الشبهة عنه ، فيما ينسب إليه من تخابر مع الأمراء المنفيين ، والتخطيط لنفي شيخ البلد . وعين للذهاب معه صالح بيك ليوصله إلى السويس ، وتعهد شيخ البلد أمام جمع كبير من الأمراء والأعيان ، أن يصحب الأمير عبد الرحمن ما يشاء من متعلقاته وأمواله وخدمه وحشمه ، وأن ما يتبقى له في مصر ، سيكون في نن العين ، وإذا نقص شئ منه ، يكون هو شخصيا مسئولا ويدفع عنه تعويضا من حر ماله.

ويسقط في يد عبد الرحمن كتخدا فعندما يبحث عن حسين بيك كشكش يكتشف أنه كان منصرفا في اللهو مع الحريم وغفل عن نصحه بعدم السفر إلى (جرجا) ، ولكنه يأمل ما دام الأمراء جميعا قد تجمعوا في الصعيد ، أن يتصل بهم ويزودهم بالدراهم ويساندهم بالنفوذ ، حتى يأتي اليوم الذي يقف فيه على بلوط أمامه منكس الرأس ، يتلقى منه كلمات العتاب الحادة ، قبل أن يوقع به العقاب ، وقال في نفسه (أن ما حدث لناظره قريب .. !) .

وظن الناس بأن هذا الأمر لن يمر بالساهل ، فإن شيخ البلد وهو من مماليك (عبد الرحمن كتخدا) قد تطاول على

القوانين والأعراف ، منذ متى يتآمر المملوك على سيده وأستاذه الذي لا يزال نفوذه قائما هناك في الدولة العلية ؟!

وكثر الجدل ، عند حدوث هذه الفعلة التي رآها البعض أنها من الأفعال الخسيسة ، وكان رأي جماعة الفلاح " أنها من الأفعال التي يتسم بها علي بلوط ، واسع الحيلة . فإن تدخل أمير منغمس في اللهو لإحداث فتنة بين مماليكه ، لا ينعكس على الجميع إلا بالضرر . والناس في عهد علي بلوط لم يجدوا منه إلا كل لين وملاطفة . وقد حاول أن تبقى الأسواق دائما عامرة بالخيرات ، ورفع يد اللصوص وقطاع الطرق عنهم ، وأقنع عربان بني حبيب بالتفاهم ، وشاهد أولاد البلد ، سعادته بفرقة الشماريخ التي أقام لها الاحتفالات ووزع على المتفوقين منهم الخلع والكساوي وأطعم الجميع ، وجعل لهم الجرايات وحدد لهم الأجر الذي يتقاضونه في أعمالهم المعطلة ، تدفع لهم نقدا وعدا ، من أنصاف الفضة ، بعد كل تدريب يحضره بنفسه ويشرف عليه ، بل أنه كان يقوم بتوجيههم كيف يجعلون من الشمروخ ، أداة دفاع كأنه ترس يصد الضربات التي توجه من الخصم ، ثم يتحول إلى أداة قتال ، بين الحربة والسيف .!

وقد قامت فرقة الشماريخ بقيادة حمدان الأسيوطي بالظهور المفاجئ والالتفاف حول التجمعات وفضها ، أو إقناع الخلق بحق شيخ البلد ، بإدارة مصر في أمان ، بعيدا عن المؤامرات التي خربت البيوت العمرانة ، وكانت جماعة الفلاح تعاون في ذلك ، وكثر الجدل - وتجمعت في الأفق نذر فتنة كبرى عندما وصل الخبر إلى حسين بيك كشكش ، ورأى أن إمارته لجرجا والصعيد ، كانت (الطعم) الذي ألهاه به علي بلوط عن حماية أميره وسيده عبد الرحمن كتخدا فانضم إلى الهاربين من الأمراء ، وأرسل الرسائل إلى الأمير عبد الرحمن ، يعرض عليه العون .

لكن الاتفاق مع الأمير عبد الرحمن كان يقيده بأنه إذا تآمر ضده، يرفع على بيك يده عن حماية أمواله وممتلكاته وقصوره الكبيرة وبيوته الصغيرة ، وتصير من حق الذين سيتصدون للمتآمرين ..

فأعاد (عبد الرحمن كتخدا) رسـول (حسـين بيـك كشكش) دون أن يقابله ، وترك له حرية التصرف أمام بعـض الأعيان الذين فضلوا مرافقة الأمير إلى الأراضـي الحجازيـة للإعتمار .

وقد لعب على بيك بأطماع بعـض أمـراء الممـاليك ، وخامر البعض ، وبمعاونة مماليكه قاموا بالاتصـالات والمـهام الموكولة لهم بإتقان ، ومن وزيره (محمد بيك أبو الدهب) الذي بذل جهدا غير عادى ، وقد تفتقت مواهبه الكامنة عن داهيـة . فقد أضعف شوكة الأقوياء ، وزرع الشك بينهم ، فلم يحدث شئ من رد الفعل لهذا الحادث الجلل ، سوى ما نزل على الناس من الدهشة والعجب لهذه الجرأة التي تأتى من (مملوك) ضد سيده ومالك رقبته . !

وكان صالح بيك بقواته القليلة ، يقوم بتوصيـل الأمـير المنفي إلى السويس .

وخشي على بيك أن تلين المسافة الطويلة التي قطعـها صالح بيك مع الأمير من موقعه وإخلاصه له فيحـول اتجاهـه وينقلب ضده ، وتحوطا منه أرسل من عنده هجانـا علـى يـده فرمان موقع من الباشا ، فضه صالح بيك فإذا به قـرار موقـع بنفيه إلى غزة ، يقول له فيه :

– [إذا أطعت وسمعت الكلام ، وذهبت إلى غزة بـدون وجع دماغ ، ومكثت هناك دون اتصال بالمنفيين من الأمـراء ، حافظنا لك على مالك وحريمك وعيالك ، حتى تنقشـع الغمـة ، لكن إذا حاولت العودة ومخالفة الفرمان ، هدرنا دمك ، وفرقنـا ثـروتك وسنكرنا بابك وبعنا أولادك . ولك عقـل تـوزن بـه

الأمور ، فلا تجعل أحد يخدعك ، ويصور لك النار - جنة وعلى العموم إذا أطعت وطلعت على غزة ، فسوف نرسل لـــك قبــل مضي وقت طويل بالحضور إلى دمياط أو المنصورة ، والأعور أفضل من الأعمى ، وسنجعل لك في هذه الحالة علوفات وأموال كـــأنك في مصر وبين إخوانك ، وعشمنا فيك باق - وسيكون لك فائظا في كل سنة - عشرة أكياس - والأمر لله وحده .]

وعندما وصلت الرسالة إلى (صالح بيك) ، دهش لهذه الأفعال التي تأتي من زملاء أكلوا في طبق واحد - وعصف به الضيق والحنق - فهو قد كلف بمرافقة الأمير المنفي ، ففعل ولم يتأخر عن تنفيذ التوجيهات .

وكان الأمير (عبد الرحمن) يحاول استمالته بـــالفعل ، لكنه لم يستجب ، وحاول أن ينقل له بأن (السلطان) يثق فيه ، ولا يفقد حبه له . هو معه سيكون أميرا بحق ، وليس تابعا لتابع، إلا أن (صالح بيك) كان يصم أذنيه عن هذه الإغراءات حتـــى يصل بالأمير إلى السويس ويكر عائدا ، طبقا للاتفاق ..!!

لكن هذه الرسالة ، التي أغلقت أمامه طريـــق العـــودة ، وجعلت أمواله وحريمه وأولاده رهينة في يد شيخ البلد .. أوقعته في حيرة شديدة .. وكان يعلم أن لا أحد - طبقا للعرف - سيلمس حريمه وأولاده بسوء .. لكن ثروته ، مادام لا يستمتع بها ، فهي ضائعة أو مجمدة . وخشى إن أطاع على بيك ، انقلـــب عليـــه الأمراء المنفيين ، وقد انضم إليهم أستاذهم الكبير (عبد الرحمن كتخدا) ، فصار يرى أن المستقبل القريب آت بالمفاجآت . وقـــد يعود المنفيين - كما يحدث كثيرا - إلى مناصبـــهم ، ويملكـــون مصر . فماذا سيكون موقفه حينذاك ، عندما لا يشاركـــهم فـــي (الميغه) ويبقى يتلوى ألما في غزه ، بعيدا عن كل شئ . ليتهم طلبوا منه أن يذهب مع الأمير (عبد الرحمن) إلى الحجـــاز ، لذهب معه هناك يستظل بالحرم ويتخفف من أعباء الدنيا ..

وفي الخفاء اجتمع صالح بيك بالأمير عبد الرحمن ، وعرض عليه مضمون الرسالة فطلب منه عبد الرحمن أن يقاوم، وينضم إلى جماعة (قبلي) . فصحب مماليكه وخاصته وذهب إلى (منية ابن خصيب) بالصعيد . فأقام بها واجتمع عليه بعض المماليك المشردين ، من الذين يبحثون عن فرصة ، أو الذي نفاهم علي بيك خارج العاصمة ، متهما إياهم باستغلال النفوذ وظلم أولاد البلد ، والقسوة على الفلاحين ، مما تسبب في بوار الأرض وترك الفلاحين لأرضهم وهنا يهجوا على المدن يتسولون طعامهم فيها ..

وقام صالح بيك - بما حصل عليه من أموال دفعها له عبد الرحمن كتخدا لمعاونة المنفيين وتجميعهم في المقاومة ضد (علي بيك) وليتخذ أبنية ومتاريس . وكان الأمير عبد الرحمن يواصل إرسال الأموال له - وبهذه الأموال ربط معرفة وصداقة مع شيخ العرب (همام) وأكابر الهوارة - وكان صالح بيك قد التزم بهذه المناطق في السابق ، فراح يتذاكر مع أكابر هوارة أيام التزامه والحياة الرضية في عهده . وقدم له العرب التقادم والذخيرة ، وما يحتاج إليه من عتاد ورجال وخيول ، على أن يتعاهدوا على الأخوة ..!

لكن علي بيك ، وقد استقبل الوالي الجديد (حمزة باشا)، وقد قدم إلى مصر ، وطلع إلى القلعة . عرض عليه حال صالح بيك وتحالفه مع الهوارة وزعيمهم همام ، وأنه أصبح قاطع طريق ، ومانع وصول الغلال والميري ، فحصل منه على فرمان بالتجريد عليه ، وان تتهيأ حملة كبيرة تذهب لمحاربة صالح بيك وأعوانه . وأرسل إلى حسين بيك كشكش ، بأن يدافع عن إمارته جرجا ويوقف تضخم صالح بيك ، الذي تحالف مع الأعراب ، ولهم ثأرهم عنده ." فعندما يفوزون بالصعيد ، لن يكفوا عن طلب رأسك يا حسين بيك ، وإن حصلوا عليك

يقطعونك نسيرة ، نسيرة ..!" فبادر حسين بيك كشكش بالابتعـاد عن التحالف الذي به الأعراب ، حتى ولو كان على رأسه أميره عبد الرحمن كتخدا . وانضم إلى التجريدة المرسلة من مصـر ، لدافع الرفقة القديمة التي لا يستطيع الخلاص من تأثيرها عليه . وقد أرسل من يخبر حسين بيك كشكش ، حاكم جرجا أن صاحبه قد عينه أميرا للتجريدة . لكن في الواقع كان محمـد بيـك أبـو الدهب و(حسن بيك الأزبكاوي) ، هما القادة الفعليين التي تأتمر التجريدة بأوامرهما ..

وبذلك ارضي غرور (حسين بيك كشكـش) .. الـذي ارتطمت قواته مع قوات صالح بيك في لطمة صغـيرة وعـدى النيل إلى (شرق أولاد يحي) ..

كان علي بيك بلوط ، كما رسم له الوزير محمد بيك أبو الدهب ، يريد من التجريدة بث الرعب في قلوب شيوخ العرب ، حتى يبتعدوا عن مؤازرة صالح بيك . ولكنه لم يكن يرغب فـي قتـالهم .. بل كان يسعى إلى التحالف معهم وترضيتهم . فـهو – بينه وبين نفسه - يريد أن يقضي على عداوتهم ويستفيد بقوتهم ورجالهم في (تجربته الفريدة) ، بأن يفعل عكس ما كان يفعلـه السلف ..

لكن محمد بيك أبو الدهب ومعظم المماليك ، كانوا مـن المحافظين على العوائد القديمة ، بضرورة نتف ريش أولاد البلد أولا بأول . وتمزيق الأعراب وتشتيتهم كلما ظهرت لهم قـوة ، بأية أسباب ، لتبق لهم مصر ، خالصة ، تحت الطاعة المملوكية التي تتخذ الطاعة العثمانية الشكلية ستارا . تلك الطاعـة التـي تشترى بجزء مقدر من الأموال .!

** ** **

(٩)

عاد محمد بيك أبو الدهب و حسن بيـــك الأزبكـــاوي بـــالقوات الرئيسية التي جردت على الصعيد ، إلى (مصر) .
وتخلف حسين بيك كشكش بقواته الخاصـــة وأتباعـــه ، قـــاصدا الذهاب إلى منصبه في جرجا . وأقام مؤقتا بالمنيـــا - يجهـــز نفسه .

فإذا به يفاجأ ، عندما كان يتهيأ للرحيل ، بورود فرمـــان بنفيه إلى جهة أخرى ، عينها له الفرمان ، لا تتكافأ وطموحاتـــه وكان الفرمان مصحوبا بالتهديدات ، إذا لم ينفذ الفرمان سيخسر كثيرا ، لكن حسين بيك كشكش العنيد ، لم يمتثل للتهديدات .. !
على الفور ركب في قواته ومماليكه ، وحضر إلى مصر - هكذا توقع على بيك وخازنداره محمد أبو الدهب ، بأن حســـين بيـــك كشكش سوف يحضر إلى مصر ليلا ، وعنـــد حضـــوره فيـــي مماليكه وجد أن الباب الموصل لجهة قناطر الســـباع (الســـيدة زينب) مغلقا ، فطرقه فلم يفتحه الحرس لـــه ، فثـــار ، وأمـــر مماليكه وأعوانه بكسر الباب ، لكن من بـــالداخل شرعـــوا فـــي المقاومة .

ووصل الخبر إلى (على بيك) ولم يشأ أن يجعلها مقتلة عند الباب ، وبعد مناقشة مع أعوانه ، ارتأى أن يســـمحوا لـــه بالدخول ، وأوعز إلى حرس الباب يتخامرون معـــه وكأنـــه لا يعلم،ودخل (حسين بيك كشكش) ، وذهب إلى قصره وجعـــل مماليكه وخدمه يتجهزون للقتال والحرب والدفاع عن القصـــر ، وانتظر قدوم قوات (على بيك بلوط) ومر يوم آخر وفى اليـــوم

الثالث ، أصابه القلق إذ أنه يترقب في توتر أن يقوم (على بيك) بإحدى ألاعيبه ، ويجعله في مأزق - كان قد سد الطرق الموصلة لبيته ، وأخذ يراقبها من فوق الأسطح ومن الطيقان . وكان قد هده التعب والإرهاق خلال فترة الانتظار بدون طائل . وجلس حسين بيك كشكش يفكر -إذا كان هو مكان على بيك ، فماذا كان سيفعل ؟ ويتخيل أنه يمكن أن يصل إليه عن طريق الخدم .. فهو شيخ البلد . وبيده العطاء الآن. ونفوس الخدم والمماليك متقلبة لاترى الإمصالحها الذاتية الضيقة .. قال في نفسه : ربما يدس السم لي في الطعام .

وقال في نفسه : وربما والس مع أحد المماليك الطموحين فيتخلص مني أثناء حصاره لمنزلي والتراشق والنزال.

أرهقه التفكير أكثر ، وبينما هو يقلب هذه الأحوال المقلقة التي أوجده فيها صاحبه بدون مبرر ، وبدون أن يواجهه مواجهة الفرسان ، كان يفكر بصوت عال ، تقدم منه خادمه الرومي ، يدعوه للطعام . قال وهو لا يزال مشغول الذهن :

– ماذا صنعت لنا يا إليا ؟

– صنعت لجنابك الفطيرة التي تحبها ، حتى تقويك . لقد حشيتها لك بالمكسرات..

عندما ذكر (المكسرات) برقت عينا حسين بيك كشكش المستديرتان ، وعندما مر في ذهنه خاطر (السم) اضطرب وشعر برعدة ، جعل الخادم يهيئ السفرة ، ويقدم له الفطيرة ، ولما فرغ الخادم وبدأ بالانصراف ، استبقاه وسأله :

– إليا .. سبق وطلبت منك فطيرة بالمكسرات ، لي وللسهرانين حولي ، فأبلغتني أنك بصدد شراء اللوازم فمتى أحضرت لوازم الفطيرة يا إليا والأبواب مغلقة ؟

لم يرتج الخادم الرومي ، ابتسم في هدوء وقال :

– لقد طلبت مني عمل فطير لك وللسهرانين من الأمراء لكننا أطعمنا الأمراء والأعوان من الموجـــود – وبـــالقليل مـــن المكسرات ، صنعت لك فطيرتك .. فأنت رأس هذا البيت وجدير بالعناية .. !

قام وأمسك به برفق يشكره على العناية برأس البيـــت ، ومشي به نحو المائدة حتى وقف به قبالة الطبق الـــذي يحتـــوى الفطيرة وأمره أن يأكل منها أولا .

كان يخاطبه في شئ من الهدوء الحازم .. !

تردد الخادم ، واعتذر بأنها خاصة بـــه ، وأن الطبـــاخ اعتنى بها عناية فائقة ، ولكن (كشكش) لم يتركه يفلت ، أصر على أن يأكل منها ، قال (هي مناصفة بيننا يا خادمي العزيز – أنا الذي آمنتك على روحي وسلامتي ، فأنت الآن جدير بنصف هذه الفطيرة اللذيذة !

كان الخادم يلبس على رأسه قلبق سمور ، وكان جميـــل المحيا أبيض الطلعة – لكن في هذه اللحظة ازدرد لونـــه كأنـــه يختنق .

قام حسين بيك كشكش ووضع على رقبته حد خنجـــره ، فاضطر الخادم أن يتقدم في بطء ، ويتناول الفطيرة ويقضم منها – كان يلوك ما في فمه وهو ينظر في الفراغ منزعجـــا . وبعـــد بضع لقيمات جحظت عينيه ، وأخذ يتلوى من أثر السم النـــاقع ، الذي سرى في بدنه . واعترف بكلمات متقطعة ، وهـــو يلفـــظ أنفاسه أمام من تحلقوا من الأتباع ، بأن شيخ البلد ، أمره بذلك ، ثم لفظ النفس الأخير – وذهب – ولم يسمح للطباخين بأن يشربوه ماء اللفت ، حتى يمكن إفساد السم ، واستمر الخادم يتألم حتـــى نفق ..

ورفت ابتسامة باهتة على شفتي حسين بيك كشكش وقد تمكن من كشف لعبة غريمة ..

واتسعت الوحشة بين الغريمين .. وبـات حسـين بيـك كشكش يبحث عن رد هذه الخيانة إلى قلب على بلوط ..
فأرسل إلى على بيك يلومه على فعلة الأندال ودس السم له فأنكر على بيك ذلك - وأنه لم يقابل هذا الرومي مطلقا ولا يعطي سره لخادم قد يفشيه قبل تنفيذه ، وأوعز لغريمه بأن هذه الفعلة مـن أفعال (الباشا - الوالي) للوقيعة بيننا إلى الأبد .

وأرسل إليه بعد ذلك ينبهه بأنه لو أراد به سوء ، لعطل دخوله إلى منزله - وعليه أن يسأل فلان وفلان " من الذي أمـر بعدم مقاومتك والسماح لك بالدخول ، برغم أنك يا حسين بيـك أنت الذي كسرت أوامر الباشا ، وخالفت الفرمان وعـدت إلـى البيت بقوتك ومماليكك ، والباشا حاول أن يجعلني أهاجمك فـي بيتك ، وأقوم بالقبض عليك - إلا أنني لم أنفذ ذلـك حتـى الآن لأتيح لك فرصة الإفلات ، ولتعرف في النهاية ميزة صاحبك "
كان الوسيط بينهما محمد بيك أبو الدهب ، فاطمـأن لـه وبـدأ يصفوا ويجعله ضيفا في بيته ، فهو رسول صاحبه الذي لا يريد أن يتصور أنه يخونه ، و محمد بيك أبو الدهب يلحظ دفاعـات بيت حسين كشكش ويتصل بأعوانه من المماليك ويزيـن لـهم الابتعاد (إن في إبعاد رؤوس الصغار عن مطاحن الكبار لفائدة، وأن مـن حسن الحكمة ، أ ن يعرف كل واحد منكم مصلحته ، ويرى من الذي بيده العطاء ، فما الذي يجنيه المملوك من وراء أمير مطارد ، إلا الشقاء والموت في المنافي) .

لقد تمكن أبو الدهب في النهاية من القيام بالمهمة التـي كلفه بها سيده، وفوجئ حسين بيك كشكش بأعوانه يتخلون عنـه ومن بقي منهم معه ، رأى أنهم لا يستطيعون الدفاع عن بيتـه ، وأنه لا محالة هالك ، إذا ما تصادم مع قوات على بيـك التـي راحت تتفاقم وتكبر بدخول العسكر المغاربة ، وفرقة أبناء البلـد من الشماريخية - حملة النبابيت - ورهط من الفرسان الأعراب ،

تحالفوا معـــه راس بــرأس ، ولـــهم فـــي الغنـــائم والعلائـــف والمخصصات والهدايا ، وقد اقتطعـــهم بعــض النواحـــي فـــى (البحيرة) لاستغلالها .

اضطر حسين بيك كشكش أن يســارع بــالخروج مـــن مصر للانضمام إلى صالح بيك في قبلي ويصير من أعوان عبد الرحمن كتخدا ليحارب جنبا إلى جنب مع عرب الهوارة الذي لا يكن لهم إلا الاحتقار .!

كان الأمر ثقيلا على نفسه ، كيف ينضم اليوم إلى فريق كان يحاربه ، ويتصادم معه بالأمس ، لكنـــهم هنـــاك اســـتقبلوه بترحاب برغم سوء مظهره ، وقلة التابعين له .

وأفسحوا له مكانا بينهم ، فإن شهرة حسين بيك كشكـــش الذي ذهب إلى الحج أربعه مرات ، دون أن يدفع العوائد ، كانت لا تزال تمهد له وترفعه بجانب الأبطال .

وعندما وثقوا فيه ، كان قد لاحظ أن مراسيل تأتي على الهجن من القاهرة إلى الصعيد ، وقبل أن يتوجس مـــن حلفائـــه الجدد ، صارحوه بأن الباشا الوالي يراسلهم ويقويهم ، ويطلـــب منهم (أن يحلوا مشاكلهم وأن يتفقوا في جماعة للتغلب علـــى شيخ البلد الجاثم على نفسه في مصر) .

واندهش حسين بيك كشكش وأعرب عن دهشتـــه أمـــام صالح بيك وأمراء المماليك ، أن يقوم الباشا العثمانلي بمعاونـــة على بيك بلوط في عمل تجريدة علي مماليك وجه قبلـــي وفـــي نفس الوقت يعاون مماليك وجه قبلي في التواجد وصد هذه التجريدة وقتالها ، وطلب من يفك له هذا اللغز وتخبط الأمراء فى الـــرد وحصر (صالح بيك) همه في أن (على بيك) طماع ولا يريد أحد بجانبه ، وصاح فيه (حسين بيك كشكش)

وهل قلب الباشا حنون علينا يا صالح بيك ؟

وطلب من (صالح بيك) أن يأتيه برد من الباشا (لماذا يعمـــل بوجهين .. ؟

وجاء رسول من الباشا لمقابلة (حسين بيك كشكش) ، انفرد به وأبلغه بأن (على بيك بلـــوط) ســيرحل علـــى رأس التجريدة إلى وجه قبلي ، لمحاربة تحالف المطرودين ، وتـــامين إرسال الغلال ، وعليه عند خروجه أن يعود بمماليكه ، فيعـــزل (على بيك) وسيعينه بدلا منه شيخا للبلـــد ، ويعاونـــه بعســكر العثمانية حتى يشتد عوده ، ويتمكن من بناء قوته ، وسيكون معه في هذا الأمر (خليل بيك) ، وأنه إذا ما وافق على ذلك ، أرسل أكياس المال ودله على مخازن الذخيرة ، وأقبية السلاح المخبـــأة في البـــلاد القبلية ، فلم يمانع (حسين كشكش) في الاســـتعانة بما يقدمه له (الباشا) لإضعاف شوكة غريمة (على بيك) وقال للرسول نفسي ومنى عينى أراه يوما واقفا أمامي عاريا من كـــل قوة.

لكنه عندما انفرد مع نفسه ، أخذ يفكر كيف يعرض عليه الباشا مشيخة البلد ويتجاهل (صالح بيك) الذي يتقوى بمعونات (عبد الرحمن كتخدا) وأعـــراب الـــهوارة برجالـــهم وعتـــادهم وخيولهم، ، وهو في مقام (على بلوط)ويبزه. ؟

لكن الطرق كانت مسدودة في وجهه ، ليس أمامه إلا أن ينتظر ما تسفر عنه هذه الأقوال - وهو على كل حال - صــــار شبه منفي في هذه النجوع البعيدة .

وانتشرت أخبار التجريدة التي تتجمـــع خـــارج أســـوار المحروسة وينضم إليها الأفراد بقواتهم ، استعدادا للرحيل إلـــى وجه قبلي لمطاردة قاطعي ورود الغلال .

هؤلاء المتحصنين هناك من المطاريد ، وأعلن أن على رأس التجريدة ، سيكون (على بيك) شيخ البلد وتحت يده كبار مماليكه على رأسهم (محمد بيك أبو الدهب) .

وعندما تمت الاستعدادات ، وضربت الطبــول وزعــق النفير شالت القوات في نظام معتاد ، وتقدمت حســب الــترتيب والأقدميات للأمراء ، من بر الجيزة ، قاصدة أرض الصعيد..

وبينما التجريدة في طبولها ونفيرها ، تبتعد لعــدة كيلــو مترات ويعود المودعون إلى بيوتهم ، ويهدأ الباشا في القلعة في انتظار حضور (حسين بيك كشكش) وأعوانه ، و (خليل بيك) وأعوانه ، ليمسكوا بزمام البلد ويحصلوا على مبايعة الممـــاليك المنفيين بالمدينة ، وقد استعد لهم بدفع مطلوبات عسكر المغاربة، الذين سيلحقون بالخدمة معهم ، ويسدون الطرق والأبواب ..

وقبل أن تتوغل التجريدة بعيدا ، اجتمع (علــى بيــك) بخاصته وتشاور مع (محمد بيك أبو الدهب) حــول ألاعيــب الباشا الذي رآه يعجل بصدام أمرائنا ، قال :

– لقد وصلني بأنه يعاون غرماءنا كما يعاوننا ، يريد أن يكون قتالنا حادا ، ولا نخرج منه إلا أشتات ضعيفة .

قال (أبو الدهب) :

إنها السياسة العثمانية يا سيدي ، وكما أبلغنا رجلنا بينهم بأن الوالي يعاونهم هناك بكل السبل لهزيمتنا ، وخطته نزولــهم إلى مصر وامتلاكها ، وقواتنا في مصر لا يمكنها المقاومة لمدة طويلة ، بل إنهم إذا ما لاحت بوادر الهزيمة ســوف يســلمون للغالب..

وأخذ (على بيك) يقلب المسألة على كافة وجوهــها ، وكان أول شئ فعله ، أنه طلب الإبطاء في المسير ، حتى لا يتم التلاقي بين الغرماء والانتظار مع المراقبة ، ووصــل إليــه أن (حسين بيك كشكش) وصل في قلة من خاصته إلــى بيتــه فــي (المحروسة) ،وجاء الخبر بأنه رأى أن يستريح ، لحيــن جمــع الأعوان ووصول العسكر المغاربة ، وليأخذ نفسه مــن معانــاة الغربة ..

وقام الخدم بفتح الأبواب (لقوة) شيخ البلد التى وصلت على عجل وقبل أن يلتقط أنفاسه ، وقبض على (حسين بيك كشكش) ومن معه دون مقاومة ، لقد أخذتهم المفاجأة حتى ولم تتح لهم فرصة لتمام الاستعداد ، والخدم الذين فتحوا الأبواب قاموا بغلق الأبواب على الذخيرة والأسلحة ، وسربوا الخيول من الحظائر ، (وحسين بيك) بملابس النوم عاريا من أسلحته كما تخيل يوما (على بيك) يقف أمامه هكذا ، هو الذي كان يقف الآن أمام غريمه عاريا لا حول ولا قوة له .

لقد نجح (على بيك) عندما عمل عكس المتبع في أن يسقط بالأمراء الغرماء ، ليس على أرض الصعيد في مقتلة كبيرة بل في خدورهم ، بداخل غرف نومهم ، فى قصورهم بالعاصمة .

وأمر (على بيك) بحبسهم جميعا في غرف القصر وأرسل إلى (محمد بيك أبو الدهب) أن يعود بالتجريدة إلى المدينة وبأن يأتيه بالأمراء ليروا رأيهم في بطلهم المغوار (حسين بيك كشكش) ومن معه من المتآمرين من المنافي .

واجتمع الأمراء ينظرون في أمر (حسين بيك كشكش) ومن معه ، واقترح البعض أن يرسل إلى الحجاز ، ولا يغادر جدة نهائيا ، وإلا سفك دمه .

وقال آخر :

– اسمعوا النصيحة واقتلوه وارتاحوا منه ، فإنه إن دام حيا إبتليتم به ، ولن يبقى لنا رأس على جسد إذا تملك فينا .

وقال أمير ثالث :

– لا يصح يا جماعة - إنه أخونا ورفيق شيخ البلد وبينهما صحبة قديمة ، دخل بيوتنا وأكل معنا عيشا وملحا يكفي تجريده من ثروته ومناصبه وسجنه في أبي قير .

لكن (على بيك) بقي صامتا ، ومن حين لآخر ينظــر إلى (حسين كشكش) فينكس حسين رأسه . وفى النهايــة أجمــع الأمراء بأنهم يوافقون مقدما عما يراه (على بيك) بشأنه وأنهم لن يلوموه إذا أراد التخلص منه بالقتل . . !

وأقترب (على بيك) من (حسين كشكش) ، مد يـــده وأمسك بذقنه ورفع وجهه إليه ، يريد أن يرى عينيه وقال لـــه : اجعلها تأتي من غيرك يا صاحبي ، تخامر مـــع الباشــا ضــد إخوانك ، أنا طلعت بالتجريدة التي يمكن أن تهدكم جميعا ومـــع ذلك فــكرت من سيكون مستفيدا من الصدام بيننا ، طلبت مـــن التجريدة أن تمشي مشي السلحفاة . وعســـكرت علـــى حـدود الجيزة، حتى أنني كنت أرى أضواء الوقدات في مصر ، لكـــن أنت و (صالح بيك) والأمير (عبد الرحمن) وعرب الــهوارة تريدونها مطحنة ، كما يرغب الباشا تماما، أعرف أنك مغفل ولن تتعلم أبدا يا (حسين بيك) .

وبكى (حسين كشكش) بين يدي (على بيك) .

فأمر له بأن يعطي بلدة (نوســا الغيــط) بالدقهليــة ، ويرحل اليها فورا في قلة من مماليكه ، فأطاع (حسين كشكش) وحلف على المصحف أمام عدد من أصحاب العكاكيز ، بأنه لن يخون شيخ البلد مادام حيا ..

ونفذ (حسين كشكش) بجلده ، وتنفــس (علـــى بيــك الصعداء .. وأرسل (محمد أبو الدهب) إلى (صـــالح بيــك) وسرب له ما حدث (لحسين كشكش) حول العفو عنـــه ، ومـــا انتهى على الاتفاق عليه بأن بمنحـــه (جرجـا) التـــي كـــانت (لحسين بيك كشكش) على أن يتعهد بدوام إرسال الغلال ، وأن يأخذ منها ما يكفيه هو ومن معه ، ويحكم أمر العرب ، وقال له (أبو الدهب) على لسان (على بك) :

– الباشا العثمانلي يريد إضعافنا ، وقد كشف سيدنا هـذه الأفاعيل وهو يقويكم ويقوينا ، لنتقاتل ويفني بعضنا بعضا ونحن أغراب ، يا (صالح بيك) العرب ترى أنها بلدهم والعثمانية ترى أنها بلدهم ، وكلاهما يريدون خلعنا من الجذور.. !

فمال (صالح بيك) إلى هذا الرأي ، ولم يكن أمام (صالح بيك) ومن معه ، إلا مهادنة (على بيك) وتجنب الصدام معه مع استغلال طيبة قلبه ، وأقسم (صالح بيك) أمام الشيوخ الذين حضروا المجلس بالولاء لشيخ البلد ، عند تسليمه زمام ولايته لجرجا ووصلت أخبار الصلح مع (صالح بيك) والعفو عن حسين بيك) وفشل مساعي (عبد الرحمن كتخدا) ووساطته للانتقام من (على بيك) وهدوء الهوارة ، وقد سروا لتعيين (صالح بيك) على جرجا ، وبينهم وبينه كثير من التفاهم ، وخشي الباشا أن يستدير (على بيك) عليه .

فارتبكت أحواله ، وتضاربت أفعاله ، وصار يضرب كفا بكف على شغل المماليك ، وقد خيل له أنه سبر غورهم وأوقع بهم جميعا .

فإذا بهم يتحالفون كالشياطين ضده ، ويتفرغون له – يستديرون نحوه بقضهم وقضيضهم . . . فيقع قلبه في قدميه ..ويصبح فى حيص بيص!

(١٠)

حل العيد فى ٣ مارس ١٧٦٧م فركب الأمراء فـــى فخامتــهم المعتادة وقدموا مـــن قصورهـم ومنازلـهم يتجمعـون فـى (قراميدان) ليهنئوا الباشا بالعيد ، طبقا للعادات ٠٠٠
كذلك حضـر أرباب العكـاكيزمن كبـار المشـايخ وأربـاب السجاجيد المشتغلـون بالفقه والجميع فـى احتفالاتـهم بـالعيد يرتـدون ملابسهم الجديدة المزركشة ، ويمشـون مـن بـاب السرايا الى جامع الناصربن قلاوون ، بعد أن يطلعـوا القلعـة ويطلعوا بالجامع ويكبروا ويرجعوا بنفس الطريقة ٠٠
ثم يأتى الأمراء الكبار للمعايدة ورؤية الزملاء والأعوان ٠٠٠
وكان على رأس هذا الاحتفال على بك الكبير فـى زفـة مـن خاصته وأعوانة وقد فوجئ شيخ البلد بوجود - حسـين بيـك كشكش - بين المحتفلين بالعيد قادما من نوسا الغيط بالدقهليـة دون علمه ٠٠فأثاره وجوده واستشاط غضبا وأخذ يلتفت الـى أعوانه متسائلا ٠٠ لكن محمد أبو الدهب اقترب منه ومال على أذنه يهدئ من خاطره ويهون له الأمر ٠٠ والجميـع بعـد أن أقبلوا على تهنئة الباشا بالعيد ، شرعوا فى النزول مـن القلعـة الى بيوتهم ٠٠ لكن شعور على بيك بالقلق لوجود حسين بيـك كشكش فى العاصمة دون ان يعرف سبب قدومه - كان يعصف بـه ٠وذاد من قلقة أن حسين بيك كشكش - لـم يـأت اليـه للمعايدة حسب الاصول وهو الذى عفى عنه منذ عدة شهور ٠٠

كما أن حسين بيك كشكش فى مشيته المتبخترة رآه يذهب الـــى الباشا فى عدد من اعوانه ويتجـــاذب معـــه الحديـــث فـــى ود ويتضاحك معه٠٠ وكأنه بهذا الموقف يريد إخبار شيخ البلد بأنه لـــم يأت الى مصـــر من تلقاء نفسه وأن الباشـــا هـــو الـــذى استدعاه ، كان يمكن لهذا الموقف أن يمر فى سهولة إذا ماجـــاء اليه وأحاطه بهذه المقابلة ٠٠

وعند نزول المماليك مـــن القلعة الى بيوتـــهم ، تقـــدم الشيـــخ حناوى من على بيك وانحشر بين مماليكه والقى اليه بكلام غليظ فى وجهه وهى عادة اتبعها الشيوخ الكبـــار وهـــم يخـــاطبون الأمراء المماليك ٠٠ ولأن أمراء المماليك يجلون ويحـــترمون الشيوخ فى الظاهر – فقـــد تمادى البعض فى تغليظ النصـــائح لهم ، حتى باتت عادة – ترفع من قدر الشيوخ عنـــد العامـــة – وقال الشيخ حناوى وهـــو كبير القضاه ٠٠ بعد أن هنـــأ علـــى بيك بالعيد فى كلمات مقتضبة٠

(اسمع يا شيخ البلد ٠٠ ما حدث بينكم وانتم أمراء هذه الولاية ، شئ لا يجب السكوت عنه مطلقا ٠٠ فالساكت عن الحق شيطان أخرس ٠٠) تمالك شيخ البلد أعصابهوأمسك غضبه وهـــادن الشيـــخ بالقول الطيب وهو يبتسم فـــى وجهـــه – خاصـــة وأن الآذان انفتحـــت وارهف الجميع السمع لما يقوله الشيـــخ (مـــا الذى حدث يا شيخ حناوى حتـــى يمكـــن ان نصلحـــه قبـــل أن يستفحل) لم يقترب الشيخ حناوى ليتحدث فى أذن شيخ البلد بما يراه ٠ بل بقى على مبعدة عدة خطوات ليسمع من يسمع قولـــه ٠٠ كأن ما يقوله لا يريد ان يوجهه الى شيخ البلـــد وحـــده ٠٠ قال : –خـــربتم الأقاليم والبلاد ، على أى شئ هذا الحـــال يـــا أمراء ، كل ساعة خصام ومنازعات ٠ كل يوم كرشـــات فـــى الاسواق وكل وقت مقتله بينكم ٠٠ لماذا لا تـــهدأون وتلمـــون الشمل ٠٠ ويتـــم الصلح الحقيقى بين صالح بيك وحسين بيـــك

كشكـش وعلـى بيك ٠٠ شيخ البلد ٠٠بذلك تريحون وترهبون خصومكم ٠٠ حتى الباشا نفسه ..
يخشاكـم ٠ ويعمل لكـم ألـف حسـاب ، ألا تـدرون أن الباشوات يأتون من خارج الولاية ليبذروا بينكم بـذور الشقـاق ٠٠ واذا ما وقع هذا الشقاق بينكم ٠ يقع الغـرم علـى كـاهل أرباب الحرف والزراع المساكين – فيهجر الفلاحون أرضيـهم مـن كثرة التكاليف ، وتمتنع الغلال الواردة من قبلـى فيعـز الخبز على أبناء البلد ٠٠
كان على بيك يستمع متمالكا اعصابه – ثم قال للشيخ فى هدوء: هل هذا حديثك لنا ونصيحتك التى تقدمها للأمراء– أم أن صالح بيك وحسين بيك كشكش وزوك علينا ؟!
قال الشيخ وهو يلتفت حوله : هذه نصيحتى لكم وخوفى علـى النـاس من شقاقكم ٠٠
تصنـع على بيك الطاعة والأدب ٠ قبل كتف الشيـخ – فعـل مثله مماليكة وأمراؤه وانصرف إلى قصره ليجلس فى ديوانـه ويتقبـل التهانى فى مجلسة الخاص بمناسبة العيـد ، ويقـدم الخدم للضيوف الكعك والمكسرات طبقا للعادات ٠
وبينما علـى بيك ينتظر أن ياتى اليه حسين بيـك كشكـش – ليقدم لـه التهنئة ويركب عائدا الى نوسا الغيط وينفـك اللغـز الذى صنعه له – بحجة أنه جاء ليعيد على الباشا – مثـل كـل الأمراء ٠٠ بينما الأمراء بعد تقديم التهنئة للباشا ٠٠ جاءوا اليه فـى قصـره ولم يحضر حسين كشكش ! وانشغل بـال شيـخ البلد (ماذا دار بين حسين كشكش وبين الباشا) وقد علـم انـه بكر بالذهاب اليه وطلع القلعة ، قبل كل الأمراء ؟
ولقد عكر عليه فرحة العيد وشغل ذهنه ٠٠ فكان يجلـس بيـن الأمراء يتصنع الإنصات وهو تائه ومشتت الذهن ٠

فى ثانى يوم العيد ينزل الباشا الى الكشك الذى أعده الفراشـون لاستقباله بقراميدان – وقد هيئوا له مجلسه بـالفرش والمسـاند والستائر والأبسطه والأطعمة والمشروبات الساخنة والباردة ٠٠ ويقف الفراشون على خدمة ضيوف الباشا ، من الكبار والأمراء والأعيان والمشايخ ٠٠ يقدمون لهم القهوة والشربات ويمـرون بينهم بقماقم البخور ٠٠

وبينما يجلس الباشا على الدكه التي تتصـدر المجلـس يجلـس بجانبه شيخ البلد على بيك وخلفه حرسـة والأمـراء ويتوالـى الحضور فيحضر القضاة وأرباب العكاكيز من كبـار المشـايخ يجلسون في الصف الأول لقدرهم العالي ويأتي بعدهـم الدفـتر دارية وأمراء الحج والأمراء القدامـى ، ثـم الأمـراء الجـدد والسناجق الحاليين والاختيارية ويجلسون في حضـرة الباشـا وشيخ البلـد ، حسب الترتيب فى الدخول والجلوس فى الأماكن المعدة لذلك ، وكل بيت من بيوت المماليك يتميز أميره بـرداء معين ولون معين ويتشبه به مماليكه وخاصته ، ولم يفاجئ شيخ البلـد عندما دخل المجلس صالح بيك وحسـين بيـك كشكـش يسلمـان على الباشا ويسلما عليه ايضا ثم يأخـذا مكانهمـا بين الامراء ، ها هو صالح بيك يعود مـن جـرجا ويلتقـى بحسين بيك كشكش قبل قدومه اليه ، كان وجـة علـى بيـك جامدا على ابتسامه خفيفة ، بينما كان محمد ابو الدهـب الـذى يجلس خلفه قلقا ومن حين لآخر يميـل علـى رؤوس أعوانـه ويهمس لهم بشئ ٠ لكن لا أحد منهم يتضاحك ٠٠ وحاول شيخ البلد أن لا تأتى عينه فى عين صالح بيك أو حسين بك ، فـهما يعلمان الأصول ٠ وكان يجب عليهما إخبارة بـالحضور الـى المحروسة والطلوع الى القلعـة ، حتى ولو كان الباشا هو الذى أرسل فى طلبهما ٠ كان عليهما أن يأتيا إلى ديوانه فى اول يوم

وإذا حدث ذلك كانت الليلة الفائنـــة ســتكون مليئــة بــالتفكير والهواجس ٠٠ والعمل!!
عندما انفض الاجتماع وانصرف الأمراء والضيوف وخرجـــوا إلى دهليز القصر يريدون النزول من القلعـــة ٠ كـــان بعــض المماليك المسلحين يـــتربصون خلــف أكتـــاف الســـور ووراء الأبواب، وقد سحبوا سيوفهم وأشرعوا قرابيناتهم فـــى انتظـــار مرور صالح بيك وحسين بيك كشكش ومن يكون معـــهما مـــن خاصتهما ٠٠
وعندما شاهدوهما قادمين – انتظروا حتى يقتربا من مكمنهما – وعندما صارا فى المكان المحـــدد حصلـــوا علـــى الإشـــارة ، وضربوا عليهما البنادق فأحدثوا فوضى إذ جلفت الخيول مـــن المفاجئة وساد الذعر وهم فى حالتهم من التضـــارب والتخبــط هجموا عليهم بالسيوف فأصيب صالح بيك بضربة ســيف فـــى وجهه ، وسال الدم على عنقه وملابسه وأصيب حســـين بيـــك كشكش بطلق نارى فى وجهه أطاح بشفته السفلى ، و اشتبـــك المماليك والحرس فى معركة اسفرت عن فوز مماليك على بيك عندما طوقوهم من ثلاث جهات وتركوا لـــهم جهـــة وحيـــدة للهروب – فلم يكن مقصودا قتل المماليك من خاصة صالح بيك وحسين بيك ، وقد قفز بعضهم من سور البستان ونفـــذوا مـــن الجهـــة الأخرى للكمين – وصحبوا المصابـــان الـــى مربــط الخيول ولم يصدقوا أنهم أفلتوا ، اذا كان فى إمكان أفراد الكمين القضاء عليهم جميعا ، وفى اعقاب ذلك ظهر محمد بيـــك ابـــو الـــدهب ليقول لافراد الكمين (عفارم يا شباب ٠٠الان اختفـــوا ولا تتركوا أثرا يدل عليكم) حينما سمع الباشا الوالى بالجلبـــه وصوت البارود انزعج فطمأنه على بيك وهو يجلس بجـــواره يتضاحك قائلا : أن هذا فشنك العيد يا باشا لكن الباشا لم يطمئن قلبه ولم يصدق ان ما يسمعه هو شنك للعيد وقال على بيك – لا

تخش شيئا يا باشا ، فانا أجلس معك الأن – ولم يطلق علىّ أحد البندق– فماذا يكون هذا إلا شنكا للعيد – ولم يفهم الباشا الفكاهة وأصدر الأمر فى هلع إلى حرسه بإغلاق الأبواب حتى لا يفسد علينا أحد بهجة العيد ٠ وراح يرشف قهوته فى تفكـير عميـق (إذا كان على بيك لا يزال جالسا فى مجلسه ، فعلى من يطلـق البندق الآن ؟) ومن حين لآخر يرفع عينه إلى علـى بيـك – فيجده ناظـرا نحوه – فيفكر الباشا ، كيف يمكن أن يوقـف أطمـاع هذا المملوك – الذى ذاع صيته فى أنحاء الدولـة ٠٠ واستحضر فى ذهنه نصائح كبار الوزراء فى (اسـلام بـول) ٠٠ضرورة شق صفوفهم وضرورة قلب البعض على البعض – وأهمية زرع الشك فى نفوسهم والهدف إضعافهم إلى اقصى حد ممكن ٠٠ حتى لا تقوم لدولة المماليك قائمة ٠٠

وسافر صالح بيك مجروحا الى الصعيد – وانضم اليه حسـين بيـك كشكش بدون شفته السفلى ٠ وقد تلثم بشال – فلم يـترك إلا عينين صقريتين تفيضان بالغضب ٠٠

وكان اتفاقهما فور وصولهما ألى جرجا ٠٠

الامتناع عن إرسال الميرى والغلال الـى مصـر ٠ وتجميـع العرب والأجناد والهواره والشجعان الذين يقاتلون مقابل جـزء من المغانم وبذلك هبطا الى أرض المنيا ٠ وأعتبراها حدودهما، وكل ما يعلوها لهما ٠٠ وفى المنيا أقامـا الاسـتحكامات ٠٠ فهجرها سنجقها المعين من طرف على بيك دون قتال ، وعـاد الـى مصر ، واجتمع بمحمد أبى الدهب ليقدم عـرض حـال لشيخ البلد – يقص فيه ما حدث بالمنيا من نهب وسلب وبنـاء استحكامات وأبراج ركبوا عليها ضاربى البارود ٠٠ وكيف أنهم يقطعـون الطريق وينتظرون المدد من عبد الرحمـن كتخـذا وانهم بصدد صدور فرمان من الباب العالى ضد شيخ البلد فـى مصر يصمه بالعصيان والكفر، يسعى اليه الأمير عبد الرحمن–

ليفض من حوله المماليك ، ومن يعاونونه ، وأبلغه بأن الجميع يتحينون الفرصة ليهبطوا على مصر، كما انهم يشيعون بأن الباشا معهم ، وانه يوافق على الانتقام من الخائن الذى قلب العيد الى محزنة ، عندما غدر بالأمراء الذين يحاولون وقف أطماعه " ثم توالت الأخبار الى شيخ البلد حول تحركات خصومة بالصعيد وانهم أرسلوا الى المماليك المطرودين فى وجه بحرى بالمنصورة وطنطا ودمياط ورشيد يحثونهم على الانضمام اليهم - لتضييق الخناق على شيخ البلد واعوانه والانقضاض عليه من الشمال والجنوب ، وهو لن يطيق التصادم معهم جميعا - وقدم محمد ابو الدهب عرض الحال الى على بيك واقترح بعض الأمراء الاستيلاء على بيوتهم وحريمهم ومملكاتهم (ونمسكهم من اليد التى توجعهم) وأيد معظم الحضور هذا الرأى. لكن على بيك - بعد أن صمت طويلا واستمع الى مختلف الآراء قال " تريدون رأيى يا جماعة. الاستيلاء على أموال وممتلكات وحريم خصومنا ليس من شيمةالأمراء !"عادوا يستحسنون الرأى المضاد - واستطرد على بيك قائلا : " الحريم أخوتنا وبناتنا ولا نريد أن نسلك هذا المسلك الذى هو ضد الدين وتعاليمه الكريمة - فإذا تقاتل بعضنا- ستكون سنه أن ينتقم من عياله - وذلك إضعاف لجماعتنا عموما ٠٠ !"

هنا استحسن معظمهم هذا الرأى أيضا - وانتظرو أن يدلى لهم بالرأى الأخير ويفصح عما يدور فى ذهنه ٠٠

وبعد فترة صمت لم تطل كثيرا قال : لا بد من البحث عن طريق آخر لكسب هذه الجولة منهم وعندما لم يفده أحدهم برأى طلب اتساع الاجتماع ، وانتقالهم الى القاعة الكبرى ، وطرح الأمر على كبار البلد ومنهم القضاة ، وأصحاب العكاكيز - وطلب النصيحة فى مسألة قطع الغلال -

وتكرنك المتآمرون فى المنيا فانبرى الشيخ حناوى قـــائلا فـــى غضب – لقد نصبتم كمينا لصالح بيك وحســين بيــك – وأنــا حذرتك بأن الخلافات التى بينكم ستعود على البلد بالخســـارة " لكن على بيك قال فى هدوء : أنا لم أغادر مجلـــس الوالـــى ، وأعداء حسين كشكش كثيرون ، فهو الذى كان يقطـــع رقــاب الأعراب ويأتى بهم فى أشنـــاف الجمــال • وليــس نحــن – والأعراب لا ينسون ثأرهم ، وحسين كشكـــش مختــل العقــل وغــدار – ظلم صالح بيك معه، وأنا غضبى منهما لا يرتقـــى الـــى القتل – فقد حضرا بدون إذن منى الى القلعة وقلت إنـــه عيد وكل سنة والجميع طيبون ، يأخذان وقتهم ويسافران ولـــم أنظــر الى اجتماعهما مع الباشـــا دون حضــورى – وقلــت سيأتيان للتهنئة فـــى بيتى ، وهذا لم يحصـــل ، فمـــن يكــون الغلطان يا جماعة ؟ " واجمع الحضور على أن الغلط راكبـــهم مـــن ساسهم لرأسهم••"وجلس الشيـــخ الحنـــاوى •• منكــس الرأس ••!

– ••• –

(١١)

كتب الشيوخ المكاتيب على يد – على بيك – وأرسلوها الى المتكرنكين فى المنيا ، يوبخونهم على أفعالهم فى قطع الطريق، والتهديد بالنزول إلي مصر ولكن الشيخ حناوى أصر على أن يذهب بنفسه اليهم هناك لكى يعدل لعهم دماغهم المقلوب ، وأخذ التوقيعات من أصحاب العكاكيز وسافر مع من أراد أن يأتى لجمع الشمل وتهدئة الأحوال – ولكن بعد مرور بضعة أسابيع وصلت الأخبار بأن الأمراء هناك هزأوه ورفضوا نصيحته وأن الرجل طق ومات ، وقيل إنها ضربة شمس ، ولكن إشاعة أخرى راجت تدور بأن الأمراء المتمردين على شيخ البلد قضوا على الشيخ حناوى – فقد استضافوه فى منازلهم ودسوا له السم فى الطعام فثارت ثورة أرباب العكاكيز من أكابر الشيوخ ضد المتمردين وقلبوا عليهم الخلق ولاكوا سيرتهم بالبطال ، وأصبح ذكر اسم صالح بيك أو حسين الأشرم – وهو حسين بيك كشكش، إذ أنه بعد فقده لشفته السفلى ، أطلق الناس عليه اسم الأشرم – وكان اسمه رمزا للبطولة فصار من يسمع اسمه واسم صاحبه صالح بيك يبصق عليهما وينزل عليهما بالوكسه ·· وعمل الجميع بمهمة فائقة فى دفع ما عليهم من تكاليف التجريدة الضخمة التى يعدها على بيك ·· وكانوا يدفعون المطلوب عن طيب خاطر ليتمكن شيخ البلد من الانتقام من قتلة الشيخ الحناوى الرجل الصالح الذى مات

مسموما ٠٠ لقد كان لجماعة الفلاح دور بين كتل الجماهير وفى الحوارى والأسواق يرفع من شأن على بيك – ويهبط الى أسفل السافلين بخصومة٠٠

وفى ١٤ أكتوبر ١٧٦٧م
تـم تجهيز الحملة الكبيرة – التى أعدها شيخ البلـد – وجعـل على رأسها ثلاثة سناجق وفوقهم محمد أبوالدهـب ، وضمـت الحملة وجاقلية من الحامية العثمانية وعسكر مغاربه ، وجـزءا مـن فرقة الشماريخية وأوصاهم بالصدام وليس بالملامسـة ، وأن يكـون القتال حقيقا ، وخرجت الحملة من بـر الجـيزة ، وبعـد فترة وجيزة ، ورد الخبـر بوقوع الحرب عنـد بنـى سويف – وكانت الهزيمة ساحقة لقوات حسين بيـك الأشـرم ومن معه ٠ وفيها قتل أحد السناحق الذى يعتز به على بيـك ، وكان سنجقا جديدا وله إخـلاص لأمـيـره ويسمـى ذو الفقار بيك – وكـان على بيك –يعدل به كفه أبى الدهب ، فاذا كـان محمد ابو الدهب يدة اليمنى فذو الفقار كان يده اليسرى ، وعندما عادوا بجثته الى مصر – بناء على أوامر من على بيك ، أن لا يدفن بعيدا عن مقابره، حملوه فى صندوق وغسـله فـى بيتـه ووقف يأخذ فيه العزاء ويستمع إلى تلاوة القرآن الكريم متأسـيا عليه ،كان حزينا وكانه فقد أبن من أبنائه ٠٠ وقد عكر – مقتل (ذو االفقار بيك) عليه الشعور بالنصر الذى أحرزه فـى بنـى سويف ، وجاء إلى مصر بعض الأمراء المنفيـن ومماليكـهم منشفين على صالح بيك وحسين بيك ٠ وانتظـروا الأذن لـهم بالمثول بين يدى شيخ البلد– فعفى عن بعضهم ، وسـمح لـهم بالنزول إلى بيوتهم و كانت سليمة ، والمخصصات والمعـاش يصل إليها بالتمام والكمال – وبشهادة حريمهم والخدم قـالوا إن شيخ البلد لم ينقصهم شيئاً أثناء غيابهم ومحاربتـهم لـه – إلا

الشعوربالخزى لموقفهم المهين من هذاالرجـــل الكريـــم –فعـــاد الأمـــراءالىديوانه،يشكرونه والدموع فىعيونهم، لهذه الافعـــال الكريمة التى قوبلت منهم بالنكران،ويقسمون بين يـــديه،علـــى عدم خيانته وقدصارلهم (فىمنزلة الوالد والأخ الكبير٠)٠٠٠

وكان ٠٠أن قام على بيك بتقريب التائبين منه – ومخاطبتهم فى لين ونسيان ما فات –والشكوى لهم من أفعال الماسكين بخنـــاق الصعيد فقدموا له الاقتراحات ، وبينوا له نقاط الضعف والقـــوة هناك ، واستمع اليهم فى هدوءوقال : والله يا جماعة أنا قرفـــت من الخصام والخناق ٠٠ نفسى أرتاح وأشوف شئون البلد – كل من قعد علىدكة المشيخة لم ير إلاّ تحت قدميه – لكن أنا عينى فتحـــت على أشياء كثيرة يمكن أن نفعلها لهذا البلد الذى ليس لنا غيره ٠٠ ما رأيكم فى أن ترتاحوا من وجـــع الدماغ وتعاشروا حريمكم وتلعبوا مع أولادكم ٠٠ ونترك جماعة الصعيد ٠٠ ما دام قد هربوا بعيدا عن المنيا ٠٠ نتركهم بعـــض الوقـــت ٠٠ مشكلتنا إننا نضيع أفضل أيامنا فـــى الحـــرب والخصـــام ٠٠ "

وعندما استجاب المجلس لهذه الاقتراحات –دعاهم الى الفرجـــة على لعب الشماريخية أولاد البلـــد – وطلب من خدمه الاتصال بالحواة والبهلونات المزيكتية وعمل مهرجاناً كبيراً فـــى بركـــة الفيل ٠٠ مع وقدة كبيرة من النيران فوق أسطح البيوت ٠٠

وسر الجميع لمزاج شيخ البلد العالى الذى صفا وراق بعـــد أن تواصلت ورود الغلال من قبلى ، وقد كف عن مطاردة صـــالح بيك – وحسين بيك الأشرم ، وقـــد أراد الجانبـــان أن يلتقطـــا أنفاسهما من المطاردات والقتل ٠٠

وعندمـــا انصرف الجميع يستعدون لهذا اللهو ٠٠ كـــان علـــى بيك يجتمع بخاصته ، ويبحث معهم موقف الأمـــراء التـــائبين العائدين ٠٠ وانتهى إلى أن يرمى عليهم بعضاً مـــن خلصائـــه يصادقونهم ويتحدثون معهم بالشكوى منه وعما يلاقونه معه من

مصارعة وتعب ، وإرهاق لتحقيق أطماعه فى مشيخة البلـــد ، حتى اذا ما ركبوا على رأس حملة جديدة على الصعيـد يمكــن الانقلاب عليه و يتخلون عنه وينضمـون الــــى زمـــلائهم هناك – صالح بيك وكشكش بيك ، كان يريد أن يســبر غـور المماليك التائبين ويعرف إن كان بينهم – جواســيس وعيـون وأعوان لخصومه وتم له ذلك • وسرحوا بــالأمراء يسـبرون غورهم • ويصرحون لهم بأفضال صالح بيك وكشكــش بيـك وينتقدون طريقة على بيك فى اختصـــاص مماليكـه بالإمــارة (انظروا إلى "ابو الدهب" وقد صار أميراومن الأثرياء – يخصــه بكل شئ••وعلى بيك لم يعد يبدل بين الأمراءفقـد يتأخرعلينـا الدور فى الثراء والإمارة الى ما شاء الله ••)

اعجب بعض الأمراء بهذه التصريحـات وتمـادوا فىالأسـتجابة والمشى مع المخاتل ورفض البعض الاستماع إلى هذه الاقتراحات ضد الرجل (الذى صان حريمنا وعيالنا وحلفنا له بالوفاء)•

كان ضمن الموافقين على خيانة على بيك والغدر به خليل بــك شوشه وحسن بك جوجو وسليمان بك الجن •• أما الأمـــيران الآخران فقد رفضا الانسياق خلف التمرد والخيانـــة ، بصــورة قاطعة،ولم ينصاعا لمحاولات الضغط عليهما وقــد قــابلا مــا يعــرض عليهما برفض قاطع وتهديد بأنهما اذا لم يكفواعن ذلك فانهما سيبلغان شيخ البلد–بما يدبرله فى الخفاء•وقد طلبا مـــن المحرضين الابتعاد عنهما تماما وقامابمقا طعتـــهم والاعــتزال عنهم•

وقد سيق–من انساقوا خلف الخيانة إلى اجتماعات تعقد يتبجحون فيها ولايحضرهاالأميران اللذان لم ينساقاخلف تلك المؤامرة •

واحيط على بك الكبير بموقف الأمراء –الذين يوافقـــون علـــى خيانته والذين يساندونه ولا يوافقون على الغدر به

******

اعتاد على بك أن يقيم سهرات ومـــآدب فـــى بيتـــه للأمـــراء والأعيان فيها يتباحثون فـــى بدايـــة المســاء حــول أحـــوال البلد – ثم يستمعون إلى أنـــواع الطـــرب والرقـــص ويـــأكلون ويشربون ٠٠ ويحضر هذه الســـهرات – الحكـــام والشعـــراء والمغنيون وكل من يملك موهبة وأعجوبة ٠٠٠

وفى هذا المساء كان يجلس على بك الكبير يتصـــــدر الأمـــراء والأعيان – وحوله مماليكـــه – وبعـــد انقضـــاء حصـــه مـــن الليل ، شعر على بك بشئ من الصداع والتوعك فقـــام لينـــام ، وطلب من الحضور مواصلة الجلوس والاستمتاع الـــى نهايـــة الحفل ، لكن الأمراء – تهيأوا للانصارف٠٠فركب خليـــل بـــك شـــوشة ، وحسن بك جوجو ، وسليمان بك الجـــــن ، ومعـــهم محمد بـــك ابو الدهب وأيوب بك وجلال بيك ليذهبوا إلى بيوتهم لاتحاد الطريق فلما صـــاروا فى الطريق خلف آخـــر الأبنيـــة العالية ٠ وضاق الطريق خلف جامع قوصون ٠ قام الممـــاليك المرافقين لمحمد بك أبو الدهب بالالتفاف حول الأمـــراء ومـــن معهـــم – بعضهـــم من أمام ، وبعضهم من خلـــف وســـحبوا عليهم السيوف ، وضربوا حسن بـــك جـــوجـــو ، وخليل بـــك شـــوشـــة ،٠وسليمان بك الجن–صائحين (هذه من أجل الخيانة ، وهذه من أجل حنث اليمين–وهذه من اليدالتىأطعمت أولادكم وأنتم فىالمنافى٠٠ !!)

وتم قتل الثلاثة – أما اللذان لم ينافقـــا فقـــد شـــاهدا المقتلـــه واتعظـــا ، اذ قال لهما محمد ابو الدهب : انتظروا ٠٠ لتحمـــلا معكما أعطياتكما أكياساً من الدهب ٠٠ لأمانتكما ووفائكما ٠٠ "

وأمـــام اجتماع الأمراء فى بيت على بك الكبير – أقر الأميران الناجيان بخيانـــة زمـــلائهم لمن أقسموا له الوفاء وأطعم عيالهم فى غيابهم وحافظ على (عرضهم) ٠ فلم يرفـــــع أحـــد مـــن

أمراء المماليك صوته بالاحتجاج - بل إن بعض الأمراء قفـــل على سيرتهم من باب الحسنة حتى لايورث عارهم لأولادهم!

*****

فى أول إبريل ١٧٦٨م
اجتهد على بك فى تشهيل تجريده عظيمة ليدفع بها الـــى وجـــه قبلى - عندما وصلته الأخبار ، بأن الشقاق اتسع بين الحلفـــاء لمقتل الشيخ الحناوى ، ومكاتبات وصلت للهوارة مـــن شيـــوخ يجلونهم ومن أعضاء فى بيت (الفلاح)، وصالح بك يحـــاول استمالتهم ، وتبرئة نفسه من ألاعيب الباشا العثمـــانلى ، الـــذى يدعى أنه ضد ما نعى ورود الغلال من وجه قبلى - ثم يعاونهم فى الخفاء ليقلقوا راحة شيخ البلد وأهل البلـــد وأثنـــاء تشـــهيل التجريـــدة ، طلب على بك من الباشـــا ، أن يعمـــل لـــه همـــة ويعاونه فقام الباشا بالنزول بنفسه من القلعـــة والخـــروج مـــع التجريدة من باب النصر ، وجمع الوجاقلية والعلماء وأربـــاب السجاجيد وأمر من كل وجاقلي - ومـــن يكـــون مـــن أصـــل عثمانلى عليه واجب الخروج والمشاركة ، وأن يشهل نفســـه ، ويجمـــع أعوانـــه ومماليكـــه وخدمه وعبيـــده ويخـــرج مـــع التجريدة - لوضع حد لهذا الصراع - ومـــن لا يقـــدر علـــى الخروج ، ويكون فى حالة مرض أو إعاقة ، يتكفـــل بنفقـــات مضاعفـــة ٠٠ وفى بداية شهر يونيو ١٧٦٨م وقعت الحـــرب بين الفريقيـــن - وتبع أبو الدهب وباقى السانجق خطـــة مـــن وضع صالح الفلاح قدمها لعلى بك ٠ بأنه عنـــد الأشتبـــاك لا يغالى فى استنفاد الجبخانه والبـــارود ٠ ويجعـــل المتمرديـــن يسرفون فى إطلاق البارود واستهلاك جبخانتهم ، ثم بعد ذلـــك يتقدم لحصارهم ويفرض عليهم الصلـــح ويمنيـــهم بـــالعفو-

وبعدها يوقع الاغتيال بـــرؤوس الفتنـــة – ويتقـــوى باتباعـــهم وثرواتهم ٠٠٠! واتبع محمد ابو الدهب – خداعـــهم والتزامـــه باجراء الصلح بينهم وبيـــن مخدومـــه علـــى بـــك ٠ فـــانحلت عزائمهـــم ، واختلفـــت آرائهم خاصة وأنهم لم يجدوا معاونـــة من عرب الهوارة، فاتفقوا عند الصلـــح أن يكونـــوا فى خدمـــة على بك ٠٠ ونسيان ما فات ٠ فأرسل لهم على بك بـــأولادهم وأقاربهم يدعونهم للوفاء (لمن هو منّا وعلينا) وترتيب الأوضاع فـــى المناصب والمخصصات والعودة الى(المحروسة) ويـــادار ما دخلك شر٠٠٠!"

حضر المحضر ستة من أمراء المماليك أتباع حسين بك كشكش الذى كانت إصابته فى شفته السفلى تعوقه عن الكـــلام خلـــف لثامه، فأرسل خليل بك السكران خازنداره ومعه عدد من كبـــار أعوانه ورؤساء مماليكه ٠

وصلوا إلى المكان الذى يقيم فيه محمد ابو الدهب فلم يجدوه هناك فى استقبالهم،لكن التشريفة قدمت لهم كالعـــادة،وعندما استقروا بالداخل قدمت لهم السفرة والطعام وطمأنهم الفراشون بأن محمد بيك قادم بعد الفراغ من الطعام وذلك فى ساعة شرب القهـــوة تخـــوف الأمراءمـــن أكـــل أو شـــرب أى شـــئ تحوطـــا منهـــم،وتعففوا عن الطعام ، فصب لهم الخدم القهوه ، منهم مـــن دلقها خلفه ومنهم من تركها فى مكانها،وعندما دخل الفراشـــون بصوانـــى الطعام الأساســـى–حضـــهم كبـــير الفراشين بـــأن يجـــبروا الزاد ويأكلوا ولكنـــهم ترددوا ٠وادعوا بأنـــهم شبعـــانون وكانوا فـــى واقع الامر يعـــانون مـــن الجـــوع الشديـــد فقـــام كبير الفراشين بأكل لقمة من كل طبـــق،ثـــم عـــاد وعزم عليـــهم مرة أخرى فتخلوا عن ترددهـــم وتحلقوا حـــول الصوانى٠٠وهـــم منهمكون فى ازدراد الطعام حضر حسين بك كشكش متخفيـــا ، وعندمـــا اطمأن لحسن الضيافـــة – شـــرع فـــى مشاركتـــهم

لهم وهنا دخل جماعة من المماليك بالسيوف وأغتالوهم والطعام ملء أفواههم – وتلقى حسين بك كشكش الضربات المؤثرة التى اسكتته إلى الأبد .
وعلى اثر ذلك حضر حسن بك شبكه ولم يعلم مـاجرى لسيده حسين بيك كشكش فلما اقترب من المكان توجس شراً – فـأراد الرجوع فأعاقه أحد السياس من الشماريخية أبناء البلد وضربه بالنبوت ، فوقـع علـىالأرض ولحـق بـه الجنـدو اجتـذوا رأسه .فلمـاعلم بذلك صالـح بك جمع من بقىمـن الرؤسـاء ورحل إلى أسـوان ، فارا من الموت ، عازما على التوغل إلى النوبه ودار فور ......
بعدها – رجع محمد بك أبو الدهب وبـاقى رؤسـاء التجريـدة ودخلـوا المحروسة فى احتفال عظيم ، يستقبلهم شيـخ البلـد وكبار الأمراء والأعيان – عند باب النصر وأمامهم الـرؤوس المقطوعة محمولة فى صوان من فضة والخـدم يصيحـون (وسع يا جدع هذا مصير كل خائن ..)!! والأمر لا يـهم إلا المماليـك أنفسهم – فلم يتأسى أحد من أبناء البلد وهو يشـاهد هذا الموكب وأمامه الرؤوس المقطوعة ، وما كان يهم النـاس حقا ويتحدثون فيه متى ترد الغلال " من وجه قبلـى حتـى لا ينتشر الجوع ويقل المعروض فى الأسواق من الخبز والغلال ، ولم يهتم احد بأن بين الرؤوس المقطوعة – كـان يوجـد رأس حسيـن بـك الأشـرم – الـذى كانت بطولته الـى وقـت قريب ،حديث الناس فى مجالسهم، يزيدون من خيالهم عليـها ، حتى صارت (حدوته) من الحواديت.

– ....–

غضــب على بك الكبير أشد الغضب ، لما عرف بأن صــــالح بك أفلت ، ولا يزال مع بعض من أنصاره بأسوان ، ويراســـل الهوارة لمعـــاودة معا ضدته ، وبّخ محمد بك ابو الدهب ومـــن معــه على عدم متابعته والقضاء عليه وتنصيب أحد الأمراء مع قوة كبيرة معه فى جراجا - لاستتباب الأمر نهائيا هناك ، فمـــا دام صالح بك طليقا ونائبه فى جرجا ونفوز الهواره فى الصعيد يعضده ، وسياسة العثمانلية التى دأبــت علـــى تفريــق صــف المماليك تساعده ، فأن الأوجاع لاتزال قائمةولن يهدأ للمقيميـــن فى مصر بال ٠٠!

وكان صالح بك - آخر سنجق يمكن أن ينافس على بـــك فـــى زعامــة مصر ومشيختها ، وكان من الضــــرورى أن ينشغــل شيخ البلــد فى البحث عن خطة تشل قدرة هذا السنجق ، قبـــل أن يبتعد ويتعدى الشلال ثم يعود عليه (على غفلة ٠٠!)

وقع أختيار شيخ البلد على أيوب بك ورضوان بك وأحمد بـــك بشناق الذى سيشتهر بأسم أحمد باشا الجزار فى آواخـــر أيامـــه عندما يصير واليا على عكا ٠

وهم امراء شباب - جمعهم ودبر معم الأمر ٠ وارتأى معهم ان يخرجوا بمماليكهم وأتباعهم إلى الصعيد - لاستعادة جرجا كما أنه رأى أن يلحق بهم حسن بك الجداوى وعلى بك طنطــــاوى بتجريدة أخرى تدعمهم ويكون عملهم تحصين المنيا والتكرنـــك بها - بحجة انهم خرجوا عن طاعته وسيناوشهم - فيراســـلون صالح بك ، للانضمام اليهم - وهو من ناحيتة سيرســـل إلـــى

صالح بك رسولا يحمل عرضا مغريا له ، بأن يعاونـــه علـــى وقف هذا التمرد ، مقابل الصلـــح معه والاعـــتراف بســـنجقيته على جرجا ، من الطبيعى أن يتوقف صالح بـــك عـــن الفـــرار جنوبا ويعود إلى وسط الصعيد لانتهاز هذه الفرصة (ما يـــهمنا هو أن يقترب ولا يبتعـــد) وبالفعـــل وصـــلت الأخبـــار الـــى صالح بك - بالتمرد الجديد ودخلت عليه اللعبة وراسله أحمد بك بشنـــاق يعرض عليه المعاونة ويكـــون كبـــيرهم بعـــد أن دب الشقاق بينهم وبين شيخ البلد - وفى نفس الوقت وصل رســـول من على بك الكبير يعرض على صالح بك عرضا آخـــر ضـــد المنشقين علـــى شيخ البلد ، ورأى صالح بك أن على بك الكبير فـــى مأزق ، حتى ينسى ما بينهما ويراسله ، فعاد ومـــن معـــه الى أسيوط - يوازن الأمور ، ورأى أن علـــى بـــك الجـــداوى وحسن بك الطنطاوى له عليهما افضال - وأنـــه يســـتطيع أن يستميلهم ومضت بينهم الرسائل والرسل - وبينمـــا هـــو فـــى مفاوضاته معهـــم - وقد اعطى لنفسه الأمـــان ، فالطـــــرفان يخطبـــان وده - احدقت به قوات أيوب بـــك ورضـــوان بـــك وحســـن بك الجداوى وحســـن بـــك الطنطـــاوى ، ذهـــل أن الغرماء يجتمعون عليه معا • ولكن أحمد بـــك بشنـــاق تـــأخر بممـــاليكـــه - وترك أمـــر اغتيـــال صالـــح بـــك لأيـــــوب بـــك ورضوان بك وحســـن بك الطنطاوى، وكبسوا عليه وعلى مماليكه فى غفلة منه ، ووقع صالح بك طريحا على الأرض من فوق حصانه وهو يحاول الافلات ، حاصروه ورفعوا ســـيوفهم عليـــه واستكبر أن يتوسل لهم بأن يبقوا على حياته • وقد شاهد مماليكه مصـــرعه وما نزل بسيدهم ، فخرجوا على وجوهـــهم مشتتين فى البرارى - يصطادهم الفلاحون ويوقعـــون بـــهم ، وأجهز أيوب بك على صالح بك وحز رقبته - ليحمل رأسه إلى على بك الكبير ،وفى نيته ، ان هذا العمل سيعده كثيرا ويعلـــى

من قدره عنده ٠٠ وبموت صالح بك تخلص على بك الكبير من آخر سنجق قوى مدعوم من العثمانلية إلا أن الأمراء الذين أجهزوا على صالح بيك وشتتوا أعوانه – حملوا لشيخ البلد فعلة أحمد بك بشناق الذى تأخر عن المصادمة ، ولم يشترك معهم فى قتل صالح بك–وكانت المفاجأة التى ألجمت الأمراء وأذهلتهم أن على بك أخذ يشيد بموقف أحمد بك بشناق ويوبخهم على قطع رقبة صالح بك دون مرعاة لمقامه العالى، الذى هو من مقامه ، وكان توبيخ أمراء المماليك أمام عدد من المشايخ والأعيان – فاشادوا بطباع على بك الكبير وقلبة الرحيم ، وعلى الفور أرسل إلى أحمد بك بشناق يعزية فى صالح بك وينصبه رئيسا لمراسم دفن صالح بك وأوصاه بأن يجمع الجسد مع الرأس فى التربة ، وقال له أمام العموم (لولا أن صالح بك خامر علينا مع العثمانيلة وألقوه علينا ما فكرنا مطلقا فى مطاردته ولا وصلت الأمور الى هذه الحالة التى تحز فى قلبى ٠٠!"

إلا أنه وأبو الدهب،عندماانصرف احمدبك بشناق٠نظر كل منهماالىالآخرنظرةذات مغزى–وعلى الفور اختلى ابو الدهب بأمراءالمماليك الذين كانواينفذون أوامرشيخ البلدوتلقواالتوبيخ منه أمام الحضور،وطيب خاطرهم،ومنحهم الأعطيات والوظائف الموعودة٠٠!وبانتهاء دور صالح بك فى وجه قبلى– كثرت الغلال فىالاسواق ووردت البضائع واللحوم ورخصت أثمانها،وبدأت فترة من الرخاءطال انتظارها٠٠

ولكن فىاوقات الهدوءبعد ممارسةالعادات فىالمتعه والمسرات كان علىبك يجتمع مع(خاصكيته)ويوجه الحديث الىمحمد بك ابوالدهب يطالبه بعدم إهمال مراقبه أفعال٠أحمد بك بشناق ! (الذى كان يتفاخر بانه لم يكن يوما من العبيد)٠٠

******

أحمد بك بشناق لم يكن مملوكا لعلى بك أو لأى بيت أخر . انما هو فتى جاء من بلاد (البوسنة) يقصد بلاد الحجاز، وحضـــر إلى مصر مع على بك الكبير عندما كان أميرا للحج و تقرب إليه وعرض نفسه عليه فاستخدمه-وهو الذى رقاه فى بيته - وعندما تسلم مشيخة البلد سلمه السنجقية وألبسه ملابـــس المصرليـــة ، وكان كل ما يخشاه على بيك مـــن هذا الفتـــى البشنـــاقى ، أن ينسب نفسه الى العثمانلية ويستمرىء فى(الســـيادة) ويتعـــالى ويتقرب إلى بنـــى جلدته بالولس عليه ، وكان أحمـــد بشنـــاق يدرك أن رقبته حرة - وهو ليس مثل باقى المماليك وإن تزيـــا بزيهم ورطن بلغتهم وكان له سماتهم ومع ذلك كان قانعا بمكانته فى آخر الصف وفيا لوظائفه فى وجه بحرى - ولم يقتن كثيرا من المماليك والأعوان - وحاول دائما أن ينـــأى بنفســـه عـــن مؤامرات وتقلبـــات أمراء الممـــاليك ، وقـــد رأى انـــهم فـــى صراعهم ، قليلا ما يقطعـــون الرقـــــاب ، فـــهم يتنـــازعون ويبتعدون ويقـــتـــربـــون ،والغـــرض تدوير الثروات بينـــهم ، وهو اذا ما دخل هـــذا الصـــارع ربمـــا ســـيتحالف الممـــاليك المتنافسون ضده ويتكالبون عليه ، وفـــى المهمة التى أختـــاره لها (سيده) حاول أن لا يـــلـــوث يده بدم صالح بـــك وكـــان يعرف بأنه كبير مثل أميره ، فتأخر وعلم أن على بيك تضـــايق فى أول الأمر عندما أبلغوه بفعلته ، ولكن على بك يفعل دائما ما هو غير متوقع .. وكان يتوقع أن يلومه فيقدم لـــه تبريـــرا لذلك - لكن على حياه على ما فعل فلم يطمئن ، وخشى علـــى نفسه - جعل حريمه وخدمـــه يطلقون أنه صار مريضا بمرض معد ويمنعون أى احد من الأتصال بـــه .. ثـــم ســـافر إلـــى الإسكندرية للاستشفاء بهـــواء البحر هناك - ولم يكلـــف بـــأى وظيفة فى المدينة الشمالية. لكن عندما تـــأخرت عودتـــه إلـــى (مصر) ارسل إليه علـــى بك من يحضره ، فلم يعثروا له على

أثر فى المدينة وكان احمد بشناق يخشى إن عاد قتل ، واضطر أن يتخفى فى حـــوارى الإسكندرية بصفته تاجراً مغربيـــاً – إذ تنكر فى ملابس المغاربة وقصقص لحيته مثلهم ، وأخذ يسعى ، حتى وصل إلى دمياط وكانت بها السفينة (القبطانه) احتمـــى بها ، وسافر عليها إلى الشام وبعدها يتدرج فـــى الوظـــائف – وتسند إليه إمارة الحج الشامى، ويطير صيته اذ كان من الرجال الشجعان ، وقد اسندت له الدولة العلية ولاية عكا – فى أواخـــر أيامه قام بمقاومة حصار جيش نابليـــون لها ولم ينهزم امامـــه – واشتهر باسم –أحمد باشا الجزار ٠]

******

وفى هذا الوقت – كان الوالى العثمانى على مصر محمد باشا قد تأثر بضعف خصوم شيخ البلد من المماليك واستتباب الأمـــور بين يديه بدون قلاقل ، أو خصومات ، وشعر بأن أمير أمـــراء الممـــاليك قد ينتبه إليه ويضايقه ٠ فلم يوافـــق علـــى ضعـــف مكانته والعيش تحت التهديد كما أن الرسائل أخذت تترى له من البـــاب العـــالـــى ، تلومـــه علـــى أن فى عهده صعـــد نجـــم على بك الكبيـــر،ولـــم ينفـــذعليه حسن السيـــاسةالعثمـــانلية – بضرب المصرلية بعضهم ببعض فـــأراد أن يفعل شيئا يبيـــض به وجهه – لجأ الىالحذر الشديـــد مع خـــاصته، عندما طلـــب حصر الأمراء المنفييـــن فـــى المنصـــورة ودميـــاط ورشيـــد والإسكندرية وبدأ فى بناء خطـــوط اتصـــال بينـــه وبينـــهم ، يحرضهم علـــى أن لا يتركوا على بك فى حالـــة وأن يعملـــوا بهمة على إضعافة وعزله ، وسيقدم لهم المساعدات اللازمة٠٠! إلا أن كتخداه (عبد الله) وشى به ، عند شيخ البلـــد – وقبـــض الثمن فأصبح على بك وقد ملك أبـــواب القلعـــة ، والرميلـــة ،

وحاصرها من كل النواحي بمماليكه وخاصته – وأرسل للباشـــا بأن يحقن الدماء وقد بين له أن عسكر الحاميـــة لديـــهم خـــبر باتصالاته مع المنفيين وعلم بالفرمانات من الولاه السابقين ومنه شخصيا ، وأن العسكر لن يتحركـــوا لنجـــدة (الســـاعى فـــى القلاقل)٠٠ فنزل الباشا من باب الميدان الى بيت عبد الرحمـــن كتخذا ٠ وأجلسوه فيه مع الحرس مقبوضا عليه ، ومنعوه مـــن الأتصال بأى شخص ، وبذلـــك حـــافظوا لـــه علـــى أموالـــه وممتلكاته٠٠!ورشح فى القائمقامية – عوضا عن (الباشا الوالى) إسماعيل أغا، وتم ذلك بين التهليل والتكبير وفى احتفال يحنـــق محمد باشا ٠٠ الا أن إسماعيل أغا رفض هذا العـــرض مـــن المماليك وحذر على بيك من مغبة هذه الافعال وقـــال لـــه فـــى وجهه ٠ إن الدولةالعلية لا يمكن أن تعدى ما يفعله ، على خير) وأرسل من طرفه رسولا الى الشام – قبض عليه مـــن أعـــوان شيخ البلد وانتزعت منه رسائل التحريض ، وكان إسماعيل أغا قد ذهب الى منزله – وهو سادر فى تهديده للأمراء الممـــاليك ، إذ كان يوبخهم على أفعالهم ضد (الوالى الرســـمى) واجتمـــع على بك بأعوانه ٠ وعرض عليهم الحال : قال وهو يضـــرب كفا بكف – غريب أمر هذا الاغا المنفوخ علـــى الفـــاضى ٠٠ أكرمنـــاه وجعلناه قامقاماً للباشـــا الوالـــى ووعدنـــا بمواصلـــة أعطياتنا ليذكر هذا عند اقاربه الـــوزراء ٠٠ إلا انـــه يعاملنـــا باحتقـــار واضح وكأننا خدم عند من خلفوه ٠٠ ما رأيكم فـــى هذا يا أمراء – هنا تضاربت الآراء – رأى يقول (ان تلويث يد المصـــرلية بدم العثمانلى سيؤلب علينا البـــاب العـــالى) ورأى أخر يرى (أن إسماعيل أغا – عثمانلى شجاع ولا يهاب أحـــداً ومعروف عنه أنه يتسم بالجرأة ، والأفضـــل أن نطلـــب منـــه الرحيل ونكتفى بذلك) وتحدث محمد أبو الدهب فاقترح فى هدوء (أن يرسل خلفه عبد الرحمن أغا وهو عثمانلـــى مثله وقلبه من

حديد وسبق وقد قبل كثيراً من هذه المهام ، وينفذها بدقـــة مادام الثمن يصله كاملا، ويكون على عبد الرحمن أغــا أن يخلصنــا منه وهما عثمانلية يعرفان شغلهما مع بعضهما) ومال على بك إلى رأى خادمه المخلص ، بان أخذ يهز رأسه دون أن ينبـــس ببنت شفة.

وصل عبد الرحمن أغا فى كوكبه من أتباعه بجهـــة الصليبــة ووقف بحذاء بيت إسماعيل أغا - يطلبه وينادى عليه - لكــــن إسماعيل أغا كان يعرف المهام الدنيئة التى يقبلها عبد الرحمـــن اغــا فأرسل إليه ان (ينصرف من قصيره من امام بيته لأنـــه لن يقابل أحدا فى هذا اليوم الأغبر) وأمتنع عن النزول ، وأغلق عليـــه باب قصره وسنكر النوافذ - وتحصن بالبيت المبنى على الطـــراز العثمـــانلى بأســـوار عاليــــة - يشبــــه القلعــــة الصغيرة - وزعق من الطاقة العالية بأن ينصرف عبد الرحمن أغــا ومن معه عنه ولا يبيع دمه للمصرليــــه وعـــرف عبـــد الرحمـــن أغا أن ليس بالبيت خدم كثيرون ربما بعض الخـــدم من النساء أو الرجال كبار السن - إذا يوجد بــــالداخل زوجـــه إسماعلي أغا الأخيرة - وهى جارية تركية شابة فأخذ يطـــرق عليه الباب - فـــإذا بإســـماعيل أغـــا الـــذى لايـــهاب أحـــداً يعمـــربنـــدقيته ، وقرابينته ويضرب على عبد الرحمـــن أغـــا وجماعته - فلم يستطيعوا المكوث أمـــام البـــاب - وصــــارت زوجته حاسرة الرأس فى ملابس البيت الفضفاضة تعمر له وهو يضرب .. جرح أحدهم وأصاب مرافق لعبد الرحمن أغا فـــى مقتـــل . وعبد الرحمنة أغـــا يبتعـــد بحصانــــه ويقـــترب ولا ينصرف ، بل يواصل الدوران حول القصر ، واستمر ذلك فترة طـــويلة وإسماعيل أغا يحارب وحـــده حتـــى نفـــد رصاصــــه وباروده وعندها اقتحموا الباب - فر الخدم العجائز واختبئوا فى سراديب البيت وصاح عبد ارحمن أغا يعطى إســـماعيل أغـــا

الأمان ليظهر له - لم يكن أمام إسماعيل أغــا إلا أن يصدقــه ليتفاهم معه فهم كثرة ولا يستطيع أن يقاتلهم بالسيف وحـــده ٠ ورغم تحذير زوجته له بأن يهرب من أمامـــهم ولا يتفــاوض معهم ، لكنه قال (ما دام يشترونه بالمال يمكن أن أشتريـــة أنــا أيضا) - وسارع وتوجه إليه ونزل الدرج ، وكان قد وقف لـــه شخــص خلف الباب مسلحا لا يراه وعبد الرحمن أغــا وقــف أمام الباب يناديه وعندما تقدم نحو عبد الرحمن أغا ظـــهر لــه الآخر فجأة ، وطعنه بسيفه ، فسقط إسماعيل أغــا جريحــا ٠ وقطعوا رأسه عن جسمه ورحلوا ٠٠٠

وقــد آثار هذا سكان الحارات المجـــاورة فوقفــوا عــن بُعــد يشاهدون ما يحدث - وتســلل شــاب يدعـــى (أحمــد عبــاس المنياوى) يعمل بائعا لدى تاجر أقمشة - وتقـــدم فـــى الخفـــاء وصعد القصر فى هوجة الاقتحام ووصل إلى زوجة إســـماعيل أغا، وجدها فى حالة من الرعب والخوف وطمأنها بأنـــه جــاء لمعاونتها فتوجست أول الأمر ، لكنه كان يبحث لها عن منفـــذ للهروب بها إلى حارتهم لتختفي هناك حتى يستتب الأمر ، وتجد طريقة للسفر الى البلاد الرومية التى أتت منها ٠٠ فحملت مـــا خف حملـــه ومصاغها وأموالها وارتـــدت ملابـــس مصريـــة سوداء، وتمكن أحمد عباس من الخروج بها من الأبواب الخلفية للقصر ، وعلى الفور ذهب بها الى بيتهم وحفظها فى حارتـــهم وعاملتها أمه وأخواته بكل احترام ، وتعفف أحمد عبـــاس عـــن أخذ شئ من مالها فـــى المقـــابل - وطلبـــت الذهـــاب الــــى الإسكندرية ، لتركب البحر من هناك ، فذهب بها علـــى الفـــور على أنها زوجته ، وفى الطريق أثناء الرحيل كان الحب قد حفر طريقة فى قلبهما ، ليصل بهذا الشاب إلى مهجتها وقـــد رأتـــه شريفا وعفيفا ، برغم فقرة ، فباحت له بمكنون نفســـها ، فلـــم يصدق ما يسمع ، وعاد بها الى الحارة، وعقد قرانـــه عليهـــا

وبـــدأ يعمل تاجرا ً– بمالها – وكان لها شقيق يعمل بالتجـــارة فـــى الأقمشة والحراير المواصلى ، فأرســـلت إليـــه وقصــت عليـــه أفعال زوجها الجديد فاعجب به ، ودلـــه علـــى أبـــواب الكسب وفنون التجارة ٠٠ وصعد نجمه وأضيف إلـــي التجـــار تاجراً جديداً سخي اليد – يأتى إلى مصـــــر بـــأفضل الأقمشـــة والحرير الموسلين اسمه (الشيخ أحمد عباس)
و" مصائب قوم عند قوم فوائد "

- ٠٠٠ -

(١٣)

مع أن الرسائل وصلت إلىوزراءالباب العالىبأفعال شيخ البلد فىمصروعزله(للباشا الوالى) وتآمره علىقتل قائمقام الوالىإسماعيل أغاقبل أن يؤلب عليه فرقة العسكر العثمانية٠٠وتوقع علىبك ومن حوله،أن تنقلب عليه الدولة ، وترسل اليه بتجريده من الشام تعمل علىعزله ومعاقبته .

******

لكن الذى حدث – أن الدولة العلية أرسلت اليه (قابجى) من الديار الرومية بمرسوم يثبته شيخا للبلد ، ويحمل له سمورا وسيفا فاخراهدية له مع قفطان مزخرف يلبسه الكبراء ٠وانتشى على بك – وأمراؤه وأعوانه يهنئونه بهذا الرضا السامى !
وفى هذه الايام قبض على بك على المعلم اسحق اليهودى –معلم الديوان ببولاق ، وأخذ منه اربعين ألف محبوب ذهب وأمر نتيجة لاختلاساته التى وصلت له أخبارها من يهودي آخر يعمل تحت رئاسته وقد دلهم على المكان الذى يدفن فيه المعلم اسحاق أمواله ، أن يضرب علقة حامية ويطلق سراحه – ليواصل عمله٠٠! ولم يصدق المعلم اسحاق أن رأسه لم يزل باقياً فوق عنقه – وفى هذه الأيام صادر أموال التجار الذين يغالون فى رفع الأسعار بعد اطلاق الشائعات بأن الغلال لن ترد من الصعيد أويشيعون بأن فى وجه بحرى مجاعة ، أو يشيعون

بأن الناس تموت جوعا بالإسكندرية والبحيرة ٠٠ وصادر أموال (العشوبى) وهو تاجر كبير استفاد من هـذه الشائعات التى أطلقها أعوانه- كذلك صادر أموال (الكمينى) وبعض التجار الذين اوقع بهم الغرامات ، وابتدع فى هـذه الايام نظام ٠٠ المصادرات للأموال مع اطلاق صاحبها حيا وعودته لتجارته أو تجارة أخرى -بما يخبئه من أموال كانت مدفونة فى الجدران أو الأساسات اوفى الخرابات ولا يعرف مكانها إلا صاحبها ٠٠ وقدأستفادت البلد من هذا النظام ٠٠ فمشى التجار على طريق الحق والقناعة،وطال العامة الخير من رخص الأسعار ، واستفاد على بك بالأموال المصادرة والمخبأة فى فى تغطية نفقات جيشه ، وشق بعض الطرق والترع ، وعمل المشاريع التى تؤمن البلد وأقام المسجد الجامع والقبة على مقام سيدى أحمد البدوى، وما يجاورها من الحوانيت ، جعلها للتجار ، وسميت فى(طندتا) بالغورية الجديدة ، ورتب للمسجد عدداً من الفقهاء والمعلمين فارتاده الطلبة والمجاورون وجعل لهم خبزاً وجرايات تصرف لهم كل يوم ٠٠٠

كما جدد قبة الإمام الشافعى ، وكشف ما عليها من الرصاص القديم من أيام الملك الكامل الأيوبى وقد تشعث وصدئ لطول الزمان ، وجدد ما تحته من خشب القبة البالى ، وجعل غيره من الخشب النقى الحديث ، ثم جعل عليه صفائح الرصاص المسبوك المثبت بالمسامير الضخمة كما جدد نقوش القبة من الداخل بماء الذهب واللازورد والأصباغ ، وكتب بافريزها تاريخا منظوما بخط (صالح أفندى الخطاط) كما هدم (الميضة) التى كانت من عمارة عبد الرحمن كتخذا ، وكانت صغيرة مثمنة الأركان ووسعها وعمل عوضا عنها (ميضة) كبيرة مستطيلة متسعة وبجانبها حنفية وبزابيز يصب منها الماء، وجعل حول الميضأة كراسى للراحة تحتها أحواض متسعه

تجرى فيها المياه المتجددة وفى ذلك الوقت قـــوى قلبـــه علـــى المعاندة لما ليس فى مصلحة أبناء البلد وإرضاء العربـــان فـــى وجه قبلى والبحيرة ..

وفيها : هيأعلى بـــك هديـــة – مقـــابل المرســـوم والسيـــف والقفطان – لوزراء الباب العالى والسلطان،وكانت هدية حافلـــة مـــن الخيـــول المصريـــة المطهمـــــة ، وأرســـلها إلـــى (إستامبول) والتمـــس من أكابر الشيوخ كتابة رسائل ترسل إلى الباب العالى لشرح الأحوال المستتبه فى مصر،وأن يعرضـــون ضمن السطورأن عثمان باشاوالى الشام يحرض عليه المصريين هناك ويجمعهم ويعاونهم على تكديرالأحـــــوال الرائقـــة فـــى مصـــر المحروسة .

وأرسل مع الهدية ، من يجيدون الحديث من أمثال الشيخ عبـــد الرحمن العريشى ومحمد افندى البرادلى – ليتحدثوا عنه بالخير أمام وزراء الدولة العثمانية فى مقر دارهم .

ولما سئل من اعوانه وخاصته : لماذا تشكو والى الشام للبـــاب العالى وهو لم يفعل ما يعكر الصفو؟

قال : لن نأمن فى مصر وبابنا الشمالى ليس بيدنا فتحه وغلقـــة كيف نستأمن على أنفسنا واموالنا وننام ملء الجفـــون وأبوابنـــا الشمالية مفتوحة على البهلى .. قولوا لى انتم كيف ؟!

وفيها : توفى محمد باشا ، الوالى (المعتقل) فى قصـــر عبـــد الرحمن كتخذا بشاطئ النيل ، وأشيع بأنه مات مسموما لأنه لـــم يكف عن إغراء الخدم والحراس وعـــرض العـــروض عليـــهم للاتصال بالمماليك المطرودين وأصحاب الوجافات حتى وهـــو محبوس . وأن هذه الاتصالات كانت تنتهى إلى محمد بك أبـــو الدهب الذى أختار بنفسه خدم القصر من خاصته وأعوانـــه . فمنحهم الداراهم على شطارتهم .. وقيل أن الرجل طـــق مـــن

الخنقه وإهمال الدولة العثمانية له وتركه بين يدى (شيخ البلد وألا ضيشه ، لذلك مات (ولكل أجل كتاب) ٠
ودفن الباشا فى القرافة الصغرى عند مدافن الباشوات ، بالقرب من الإمام الشافعى ، وقد امر على بيك أن تكون طلعته ٠ طلعه والٍ عظيم وكان الباشا يأمل أن تاتى إليه النجدات سريعا ليحاسب على بيك وأعوانة على ماجنت أياديهم ، وكان قد تحدد لأعوانه أن يصلواليه فى(مصر)مع الحجيج متنكرين ، ويستعين بهم على مناهضه على بيك الكبير ومن يعضده !
وعندما نزل الحجيج إلى مصر - كان بعض من طلبهم للمعاونة يمرون أمام مقبرته ويقرأون له الفاتحة فىخاطرهم ٠ وفيها : توسع على بيك فى استخدام المصريين من أبناء البلد ضمن قواته العسكرية فرفع قدر - حمدان الأسيوطى وحسيب البنهاوى إلى مصاف(باش تجريدة) وجعلهما يلبسان ملابس الأمراء المماليك - وكان يعزل كل من يستشعر مليه الى العثمانية- فاخرج عثمان أغا الوكيل منفيا إلى الشام - وأحمد أغا اغات الجوالى معه ٠ واغات الضربخانه - حاصروهم حتى يرجعوا إلى بلاد الروم ٠ وكان عثمان اغا الوكيل رجلا واسع الثراء ويقيم فى قصر كبير مزدحم بالرياش - وحضر الدلالون يبيعون رياشة ونفائسه وفراشه فى المزاد للتجار - وكان على بيك يتشدد فى محاسبة المطرودين _(حساب الملكين) ويحاصرهم ويعلن فى البلد (من له مظلمة عند المطرودين يتقدم بها ويأخذها) وعندما يتشاكون ، يقول لهم فى رفق - دخلتم مصر بملابسكم ، أحمدوا ربنا أنكم ستخرجون منها بكل هذا الخير المتبقى لكم، هذا غير ما هربتموه إلى بلادكم ٠ ثم لماذا تغضبون إذا ما خرجتم من مصر كما دخلتموها ؟!

وكـــان هذا يجد أعجاباً من العامة – ولكنه يجد غضبا شديـــــدا من الأثرياء والنهابين ، خوفا مـــن يـــوم تـــدور عليـــهم فيـــه الدوائر ٠٠ وكان هذا يثير ثائرة الوزراء فـــى (اســـتامبول) فمعظـــم هؤلاء الأثرياء كانوا مصادر لرشاويـــــهم وهداياهـــهم هناك ، فبدأت الوحشة تتجمع عند الباب العـــالى ، ضـــد هـــذا الرجل الغريب(الذى يميل لمضادات طبيعية الأحوال المستقرة)٠
ورث الشيخ سويلم ابن حبيب (وشقيقة سالم) – وهمـــــا مـــن الأعراب المستقرين بأرض البحيرة – شهرة تردد صدها فـــى أنحاء الوجه البحرى – تكاد تعادل شهرة عرب الــــهوارة فـــى الوجه القبلى – وكان لدى الفريقين مساحة من الاستقلال بالراى ولا يهدأون إلا اذا أرسلت لهم العادات والهدايا ، وإلا قامـــــــوا عن بكرة أبيهم – بالإغارة على القرى والبلاد،واغتصبـــوا مـــا يرونه جزءا من حقوقهم فى بلاد يرون أنها كـــانت ولا تـــزال لهم، وليست للمماليك العبيد غيرالأحرار ! وقد انتهت زعامـــــة معظم القبائل فى وجه بحرى إلـــى هذيـــن الزعيميـــن وكـــان الأعراب والعامة من الفلاحين قد أحاطوا أعمالهما بكثـــير مـــن قصص البطولة والشجاعة فهى تدور ضد العثانليـــــة الغـــزاه ، والمماليك العبيد – وكلاهما قويان بدرجة لا يمكـــن الافصـــاح أمامهما عن حقيقة المشاعر ٠٠!
وكان على بيك قد اضعف عرب الهواره فى الصعيد – وجعـــل سنجق جرجا من القوة ان يكبح جموحهم ٠٠ لكن ســـويلم ابـــن حبيب وشقيقـــة ســـالم – كـــانت لـــهما طموحاتـــهما وكـــانت (الدولة العثمانية) وباشواتها يدركون ما يمكن ان تسببه هـــذه (الثغرة) من قلق لشيخ البلد فى مصر ٠ كما أن المنفيين مـــن امراء المماليك يكونون فى أحضانهم ويصمتون عن أفعالهم التى يتمادون فيها ويعقدون معهم الاتفاقيات السرية ٠٠٠

ولم يغفل على بيك هذا الجانب – فقد هدف إلى اختبـــار قـوة هؤلاء الأعراب بعد توحدهم – فألقى عليهم بتجريدة على رأسها على بيك الجداوى وأيوب بيك ، ووصل أيوب بيك بقواته إلـــى (دجوى) وهى قرية فى القليوبية واقعة على الضفـــة الشرقيـــة لفرع دمياط وكانت مركـــزا لأولاد حبيـــب ، فلـــم يجـــد بـــها أحدا – كان الشيخ (سويلم) قد رحل إلى (سندهور) – والتجـــأ سويلم إلى الهنادى فقامت التجريدة بنهب دوائرهـــم ومواشيـــهم هناك وحضرت بالمنهوبات إلى مصر – وفيها الشئ الكثير !

واحتج الشيخ سويلم بأنه – حليف لعلى بيك الكبير وقـــد جمـــع القبائل المتناثرة بغرض الأســـتقرار ، كمـــا كتـــب لـــه شيـــخ البلد ، وأنه وأعوانه لـــم يأتون – بما كان سائدا فى المـــــاضى من السطو وقطع الطريق – وسأل : لماذا هذه الخيانة للوعـــود والمواثيق – (أم أن آخرة خدمة الغز علقة ؟) وقد حمـــل هـــذه الرسالةأحد أتباع (صالح الفلاح) وهو رجل وقور له فى الفقـــة والدين– وقد تأثر على بيك الكبير – باحتجاج الشيخ ســـويلم ٠ ولكنه أرجع أسباب الحملة لما يأتيه شقيقة ســـالم وهـــو شـــاب متهورلا يراعى حرمة أحد ووعد بتعويض الشيخ سويلم عمـــا فقـــده بعد ان صرح له(الرسول) بأن بينـــهم هنـــاك أعونـــا يؤمنون بدعوة الفلاح الإصلاحية ويرفعون من شأنه بينهم وقـــد استمالت الدعوة كبار مشايخ العرب من أولاد حبيب ، وأنـــهم هناك يقدمون لهم على بيك على انه من أصل عربى وقد أرسلته العناية الالهية – للوقوف ضد ظلم العثمانية والمماليك الطغـــاة، وقد أعجب – على بيك – بتلك التخريجة : فقام ونظـــر فـــى المرآه وعاد (للفلاحى)يقول له : أنت لم تكذب يا مولانا – انظر إلى سماتى وهيئتى ، هل ترانى اختلف عن العرب فى شئ ٠؟ قال (الفلاحى) وهو يحملق فى وجهه : شيخنا صالح الفـــلاح لا يجعلنا نبلغ الناس إلا الصدق ٠٠ أكمل الله دينك وسدد خطـــاك

يا سيدى ··· وأعطينا الفرصة أن نجعل لك من العـــرب فـــى الوجهين عزوة لك تشد بها ظهرك ·"

فمـــا كان من على بيك إلا أن يأمر - بإعادة المنـــهوبات إلـــى بنى حبيب وإكرام وفادة هذا الشيخ الفلاحى الطيـــب - ودعـــاه للبقاء - لحضور احتفال بالقلعة - يقلد فيه خمسه سناجق مـــن أتباعة ، سنجيقاتهم · وكذلك تعيين عدد من الوجاقلية (وفـــى هـــذا المساء يقلد أيوب بيك ولاية جرجا - مكافـــأة لـــه علـــى تأديب عرب أولاد حبيب ··!!)

···· ويســـافر محمد بيك أبو الدهب بتجريدة - تصحب أيوب بيك وقواته لتوصيله إلى جرجا - وبعدها يقوم محمد بيك أبـــو الدهب بمناوشة شيخ عرب الهوارة (همام) فى وجـــه قبلـــى ويصطلح معه على أن يكون للعرب هناك حتى حدود (برديس) ولا يتعدى نفوذهم بعدها - وأثناء وجود محمد أبو الدهب فـــى وجه قبلى مشغول بمفاوضته مع شيخ العـــرب همـــام تأتيـــه الأخبـــار بولادة ولد له من إحدى زوجاته ويعلم الشيـــخ همـــام بهذا الحادث السعيد فيتنازل شيخ العرب همـــام عـــن برديـــس أيضـــا - انعاما منه للمولود - ويقول له : هذا أيضا من أجـــل خاطـــر شيخ البلد على بيك الكبير- وإنسانيته وأفعاله الخيرة - فالعلماء عندما يشيدون بأخلاقه العربية ونحن نصدقهم ··!

ويعـــود محمد وابو الدهب إلى مصر - ولـــم ينقـــل لأمـــيره تفاصيل ما دار بينه وبين الشيخ همام شيخ هواره ولكن علـــى بيك يعلم بما حدث من عيونه - وكان يـــدرك أن محمـــد أبـــو الدهب لا يميل إلى جنس العرب ، ولا يريد ان تقوم لهم قائمة - متمشيا فى ذلك مع العثمانية ،ويعاتبه فى رفق ، ويعتـــذر أبـــو الدهب بأن طول الطريق وتعب السفر جعلاه يؤجل هـــذا الـــى وقـــت آخر ، ولكـــن المشاغل أخذته ·· وعرض ما حـــدث كما حدث ، وكما وصل إلـــى شيخ البلد، وعندما قال على بيك:

ها نحن ارتحنا من إزعاج عرب قبلى وبحرى لنا – حتى نتفرغ لملاقاة العثمانية – تضايق أبو الدهب وقال : يا سيدى – العرب ملاعين إذا أعطيت لهم إصبعك أكلو ذراعك ٠٠٠!
فطلب منه على بيك أن يقدم له الأدله التى بنى عليها هذا الراى القاطع ٠٠ لكن أبو الدهب أمهلـــه قــائلا : انتظـــر قليـــلا يـــا سيدى ، عندما يكتمل عندى – سأخبرك به ٠٠٠!

******

كـــان محمد أبو الدهب – يضيق بتحالف بنىحبيب والهنادى فى البحيرة – ويرى أن (جماعة الفلاح) تعمل لحســـاب صـــالح الفلاح – وتبلف أميره على بيك ببعض الأقوال المعسولة – كان يفكر فى بث الفرقة بين الشيخ سويلم وشقيقة سالم من ناحيـــة ، وبيـــن حبيب والهنادى من ناحية أخرى – وعندما يفشل فى بث الفرقة بين رأسى بنى حبيب – يلجأ إلى الهنادى ويوصل لـــــهم من يحرضهم بأن المكاسب والمزايا التى طالت بنى حبيب مـــن أثر تحالف الـــــهنادى معـــهم لـــم يقتســـموها بيـــن القبيلتيـــن بالعـــدل – وهنا يحدث الشقاق بين القبيلتين بـــالفعل ، وعلـــى اثرها تندلع عمليات السلب والنهب – وتأتى الرسل من السناجق فى وجه بحرى تشكو من هذه التهديدات – ويذهب محمد أبـــو الدهب إلى أميره : يقدم له شيئا من مخاوفه – وقد تحققت ٠ فقد حنث العربان بوعودهم – وأشعلو ها حربا – وانه لن يرتاح إلا إذا قبض على رؤوس الفتنه٠وعلق الرؤوس على باب زويله !
فيرسل على بيك تجريدة – يوصيـــها بـــالصدام عنـــد اللـــزوم والاطلاع على أسباب هذا الهياج والتناحر بين العربـــان مـــن ناحية – ثم بين العرب والفلاحين من ناحية أخرى، ويعين باش التجريدة – حمدان الأسيوطى مقدم فرقة الشماريخية – ويغضب

التجريدة – حمدان الأسيوطى مقدم فرقة الشماريخية – ويغضب الأمـــراء المماليك وعلى راسهم محمد بيك ابو الدهـــب لرفـــع على بيك من قـــدر (حمدان) ويحذر (أبو الدهـــب) بـــأن أولاد البلد إذا لعبوا بالسيف فلا تكون هناك قسمة – فهم أهـــل العلـــم والدين ونحن اهل السيف والحمى ،وقال أخشى أن تدور علينا الدائرة يا مولاى" لكن على بيك كان يتمسك بالصبر فى انتظـــار ظهور جهود أولاد البلد وكان هذا ضـــد الأعـــراف المملوكيـــة العثمانية وقد أراد من باش التجريدة مهاماً محـــددة وهـــى إذا التزم الشيـــخ ســـويلم بالاتفاقيـــات الســـابقة – والطاعـــة ٠ لا يقاتلهم – لكن إذا كان الأمر كما صوره له أبو الدهب فعليـــه أن يفصل بين بنى حبيب والهنادى ، ويأتى اليه بالذين تســـببوا فى إحداث الفوضى – لمساءلتهم ٠٠!

ولكن رسلاً من محمد بيك أبو الدهـــب تـــأتى إلـــى العربـــان وتصورلهم أن التجريدة التى ستاتى إليهم مكلفـــة بقطـــع راس شيوخ بنى حبيب وشيـــوخ الـــهنادى وإرســـالها فـــى شنـــف إلـــى(علىبيك) فى مصـــر – وصـــوروا لـــهم بـــأن حمـــدان الأسيوطى ما هو إلا حسين بيك كشكش جديد ٠ فيتوحد عـــرب بنى حبيب والهنادى ويتجمعون لمنازلة التجريدة والإيقاع بـــها وبالفعل يتصارعون معها – فى كمين عظيم ٠هيأوه لها ليقـــع فيه – باش التجريدة الذى كان يزعق فيهم بالنصيحة وأنه عربى مثلهم وأنه جاء من أجل استقامة الأوضاع ٠٠دون طائل ٠٠فقد وقعت المقتلة ٠ واضطر أن يتقهقر أمام هجوم العرب – وينجو بقلب التجريدة ٠٠ عائداً إلى مصر ، وقد شعر على بيك بالأسى لهزيمة التجريدة التى يرأسها حمدان الأسيوطى وقال أبو الدهب لأميره شامتا : يا مولاى انهم فلاحون لا يجيدون اللعب بالسيف بل اللعب بالكلام (إش جاب لجاب)٠

علـــى غفلة حال وصوله الى هناك وقـــد وجدهـــم مســـتعدين للحرب واوقعوا به ٠٠ بما جعل علىبيك يفكر (مـــن الـــذى يلعـــب خلف ظهره ؟) كان على بيك يشعر بــــأن حلمـــاً مـــن احلامه ينهار ، إذ كان يضع ثقته الكاملة فى أبناء البلـــد انـــهم سيعينونه ويتقوى بهم بدلا من المماليك – لكن ما حدث أصابـــة بصدمة عنيفة وهو فى حالة الضيق قال لحمدان : أنت لا تصلح باش تجريدة ٠٠ أنت لا تفلح إلا للعب العصا وبس ٠٠ اذهـــب الى عملك فى البستان "

وانتشى محمد أبو الدهب لهذا الانتصار الـــذى خطـــط لـــه ٠٠ ووعـــد سيـــده بـــأن سيقوم هو بالانتقام من رؤوس الفتنة ٠٠ بنفسه (ليزيد الأمر اشتعالا كما أراد)

******

قام أبو الدهب بإرسال جارية وعبد وحصان لكـــل مـــن شيـــخ الـــهنادى والشيـــخ ســـويلم والشيـــخ ســـالم ٠ وطيـــب خاطرهم – وعرفهم أن شيخ البلد – غفر لهم التعرض للتجريدة وأن يهدأوا وتصلهم عوائدهم ٠ ومن العبيد والجوارى – استدل على الأماكن التى يختفى فيها الشيوخ – فأرسل إليهم جماعة فى ملابس التجار المغاربةوبمعاونة العبيد والجـــوارى ، تـــم قتـــل الشيخ سويلم وأخيه سالم وشيخ الهنادى عبد القـــادر ٠٠٠ وكـــل قبيلة أتهمت الأخرى بذلك القتل وانفـــك تحـــالف بنـــى حبيـــب والهنادى ٠٠ وثارت بينهما العدوات والثارات وأبو الدهب فـــى غاية الانتشاء والسعادة ٠٠٠

–٠٠٠ –

(١٤)

صدقت تخمينات على بيك عندما طلب من العلمـــاء والأمـــراء الشكوى عما يحـــدث فـــى البـــاب الشمـــالى لمصـــر • فـــان العثمانية – لم يتركوه يهنأ بمرحلة الاستقرار بعـــد أن أخضـــع الأمراء والأعراب فى الوجهين القبلى والبحرى •

فقد وردت الأخبار الى مصر – باستفحال شأن الأمراء المنفيين والمطرودين من مصرعظم تجمعهم فى الشام – وقـــد اجتمـــع الشامى على المغربى فى اتفاق مع همام شيخ عـــرب الـــهوارة على أن يكون له ما بعد أسيوط الى أسوان ، وسارعوا قبـــل أن يتخذ(على بيك) التدابير ليمتلك فريق منهم (أسيوط) ، ويطردوا أميرها الذى نصبه على بيك ويمنعوا توريـــد الغـــلال ، ودفـــع الميـــرى وعليه فقد كفت المراكب عن الـــورود الـــى بـــولاق وعزت الأقوات فى مصر وبدأت نذر المجاعة ••

على الفور جمع (على بيك) مجلسه ، وفيه أمر بفتح صوامـــع الأمراء وطرح ما بها فى الأســـواق للحفـــاظ علـــى الأســـعار معتدله• وأخذ يناقش الأمراء وخاصته فى هذا الأمـــر ، وقـــام بتوجيه الكلام إلى محمد ابو الدهب •

أنت تعارضتى فى مشاركـــة العـــرب فـــى الـــرأى والأتفـــاق معهم – وتقول أعطوهم على دماغـــهم ولا تكـــبروهم فـــى أى مجلس ، أنت استكبرت وقللت ما فى يدهم – وأنت بذلك تميـــل إلى سياسة العثمانية فى هذا الشأن • يحذروننا مـــن الأعـــراب ومن أولاد البلد – هاهم سبقونا ووضعوا يدهم فى يـــد (همـــام)

ومن أولاد البلد – هاهم سبقونا ووضعوا يدهم في يـــد (همـــام) رأس برأس وتقووا به علينا ، وملكوا به وجه قبلـــي ·· فمـــا قولك يا بطل !!
كان أبو الدهب ثائراً – وأخذ يتـــهم همـــام والعـــرب بـــالتقلب والخيانة وقال – وهو الذى تنازل لى عن برديس ···
قال رضوان بيك : عندما يكون ما يبذل ليس له أهميـــة فـــأنت تتخلص منه، الشيخ همام – كان يرى أن ما أبقيته له ، لم يعـــد فى حاجة إليه لذلك تنازل لك عنه بمناسبة ولاده المولود ···!
وقال على بيك : أما إذا كان راضيا بما تركناه له لتمسك بـــه ، لقد قلصت نفوذ الشيخ همام فى قبلى – وقتلت الشيـــخ ســـويلم وأخاه بالولس فى بحرى واعتقدت أن الأوضاع استتبت لنـــا · ولكن الأمرعاد أسوأمما كان·حاول أبو الدهب أن يقدم أسباباً·
قاطعه على بيك : خلاص ياأبو الدهب · نحن لن نضيع وقتنـــا فيما فات – لكن يجب أن نستفيد ونتعلم مما جربناه – سياســـة الشده وتقليم الأظافر وقطع الرؤوس لم تعد تجـــدى الاحتجـــاج على مشاركة أولاد البلد فى القتال بجانبنا دفاعـــا عـــن مصـــر سياســـة عثمانلية ترتب الناس طبقاً لأجناسهم ، وربنا لا يرضيه ذلـــك ، وديننا حضنا على المساواه – كم من فئة قليلة غلبـــت فئة كثيرة بإذن الله ·· وأنتم جميعا يا أمراء تعلمون أن السياسة لها أكثر من وجه ، والذى تفوز به ألعب به · والأن انتبهوا لما وصلنا من أخبار ، لقد أصبح لهم فى قبلى قوة كبيرة – امـــوال ترد لهم من الشام ويشترك معهم كثير من المغاربة لاســـتتبابهم فى دفع أموال عسكرهم ··
وأشار إلى عبـــد الرحمـــن بيـــك كـــاشف الـــذى طـــرد مـــن اسيوط – وطلب منه أن يتكلم أمام المجلس عما حدث ، وقـــف الكاشف وتحـــدث عمـــا لاقـــاه مـــن عنـــت عندمـــا طوقـــوا أسيوط ، وكيف بعثوا يتفاوضون معه على أن يعلن التمرد على

أغروا المماليك الذين معه بالأموال الوفيرة لديهم فانضموا لـــهم لم يتبق لديه إلا قليل من مماليكه ٠ وكيف أنهم يجعلون خصمهم يــرى بعينه قواتهم التى فيها عثمانلية وشوام–وأمراء صـــالح بيك يرفعون راية الانتقام لمقتل أمـــيرهم وبـــاقى القاســمية ، وجماعة الخشاب وجماعة مناو – ويحى الســـكرى وســليمان الجلفى وحسن كاشف ترك – وحسن بيك أبو كرش ، ومحمـــد بيك المارودى وعلى بيك الملط ٠ وجماعة حسين كشكش ، هذا غير الأعراب بكامل قوتهم والعاملين معـــهم مـــن الألاضيـــش والخدم٠ وكلهم مستقوون القلب لأن السلطان يدعو لهم بالتوفيق وتأتيهم الأموال والذخيرة من باشوات الشام بالكوم ٠٠!

وظهرالرعب فىعيون المجتمعين،ووقف على بيك ليقول : يعنى العثمانية أرسلوا لى هدية ومرسوما ليميلوا دماغنا وهم يجهزون هذه التجريدة الضخمة ضدنا٠٠رأيتم شغل الأباليس؟

وعنددا رأى الاضطراب على وجـــوه بعـــض الأمراء٠٠قـــال: أطمئنوا ، أنا قدها وقدود – أبقى كذاباً لو قلت أنا وحدى ٠ أنـــا بكم وبأولاد البلد٠٠ومن فضلكـــم بلاهاالحساســـية–فالعثمانليـــة تحارب معاركها بأى أحد،أمـــانتم يـــا أمـــراء، محبكينـــهاعلى الآخر٠٠!

واستدار إلى (أبو الدهب) وقال:وأنت بالذات يا (أبو الدهب) ٠٠ شيـــل من راسك الافكار القديمة – وحط فيها ان المصرلية ليس لهم إلا مصر ومصر لا تعنى الأرض والقصـــور والوظـــائف بس – لكن تعنى كل ما فيها من ناس ٠ ارفعوهم إلى مصـــاف الإخوان ٠ يضعوكم فوق الرؤوس أنـــا خـــبرت طبـــاع أولـــد البلد – تشـــوفهم بعـــيـــن يشفوك بأثنتين ونحن فىزنقـــة ، أن بعد العسر يسرا واذا وثقتكم فى أميركم ولم يجـــر أحـــد وراء وعود العثمانلية(الفالصو) فسنهزمهم ونشتتهم جميعا بإذن الله ٠

– ٠٠٠٠ –

وقال الباشا فى صوت مختلج : نهارك أغبر لماذا تفعل بى ذلك وانا عملت ما طلبته يا علـــى بيـــك ، قلـــت فرمـــان – طلـــع الفرمان – هاودتك فلماذا يكون عزلى ..؟
قال على بيك : لا تجعلنى أطلع لك المستخبى يا باشا ولا تخسر أمـــوالك وانت تعرف ماذا فعلت .والاتصالات الدائـــرة بينـــك وبين العصاه فى قلبى .هل آتى لك بالشهود؟وأحاسبك؟ تعصـــب الباشا وقال : شهود..ألف شاهد سيشهد معك يـــا علـــى بيـــك سيشهدون خوفاً ، لأنك تمسك برقابهم – لكنـــى أحـــذرك – اذا أهنتنى كما اهنت الباشا السابق وقتلته لن يفـــوت الأمـــر علـــى خير– وانت تعلم ان زوجتى – أبنة وزير ، يلتقى بالسلطان كل طلعة شمس .!
لكن على بيك بعد أن كان متجهما ، بش فى وجهه وقـــال فـــى حزم : الزم الهدوء يا باشا وكل شئ يعدى على خير ، وكـــف عن التآمر من خلف ظهورنا وأنت ستبقى بيننا معززا مكرمـــا حتى تعود التجريدة من قبلى وادعـــوا يـــا باشـــا مـــن مهجـــة قلبك – بأن تعود التجريدة منتصرة – لأن انكسارنا أمـــام مـــن تتآمر معهم– سيجعل كل من له قتيل . ينتقم منك أنـــت ومـــن عيالك ، ومن حريمك ، حتى لو كانت زوجتك بنت ملك الصين المؤله – فاهم ياباشا .."
وانكمش الباشا . وأمر خدمه وافنديته بالتجهيز للـــنزول مـــن القلعة (.. هيا يا أفندية اعملوا همة . حتى ننزل بين الامـــراء فى هيبة – وربنا يجيب العواقب سليمة .!!
وعند النزول من القلعة . كان حسيب بيك المنياوى يقف فـــى الجانب الأيمن مع على بيك ، وحمدان بيك الأسيوطى مع أبـــو الدهب على الجانب الأيسر للباشا والمبلغين قرأوا الفرمان فـــى الأســـواق والميادين – والناس تجمعوا ليـــهنئوا الأمـــراء أولاد البلـــد بعطف الباشا وشيخ البلد والجميع فـــى فرحـــة عظيمـــة

جعلت كبار المشايخ فى ذهول - وكبار الأعيان فى دهشة وأخذ الدعاه من جماعة الفلاح يدعون الجميع بشى من التضـــامن - فان على بيك الكبير - قد هداه الله ليعيــد الحــق لأصحابــه - ويساوى رأس أولاد البلد برأس الأمراء ، ها هو حسيب بيـــك وحمدان بيك دليل واضح ادعوا على العاصين - والذين يقاتلون على بيك -فهو يميل الى جانب الحق ٠٠!!

وتســربت هذه الأخبار مع المسافرين إلى الصعيـــد - الذيـــن كانوا يتساءلون عن أسباب هذه الحرب ، والاستعدادات العظيمة لها فأبلغوهم بالأسباب وحدثوهم عن حصول ابنـــاء البلد على (البكوية) لأول مرة وذلك ضد رغبة الباب العالى والواطئ٠٠! ٠٠ وقـــد ثارت ثائرة المماليك المتمردين هناك فور ســـماعهم هذه الأخبار بأن على بيك سيحاربهم بأمراء مـــن أولاد البلـــد ، وتوعدوا امراءه بالهزيمة فى غيظ مكتوم ٠٠ !

وكان على بيك الكبير يعرف موقف (الباشا) المعارض لرئاســـة أبناء البلد على بنى جلدتهم يعارض معارضه شديدة ، أن يترأس ابن اللبد المماليك والدلاة والشركس وطبقا لسياســـة العثمانيـــة وبضرورة إبعاد أولاد البلد عن السيف - والحرب - حتـــى لا يكتسبوا ثقة بأنفسهم وهم كـــثرة ٠٠ وهــذه المحـــاذير كـــانت مخالفتها تعادل الارتداد عن الاسلام والكفر به - وينقلب المرتد الى عدو أثيم ٠٠!

ومع ذلك أصر على بيك أن يدخل الديوان ومعه أمراء التجريدة حسيب وحمدان ويقفا أمام الباشا - قدم الجميـــع كـــل باســـمه مقرونا بلقب بيك فكــــان الباشـــا يســـلم علـــى الأمـــراء ولـــم يتبين - أشخاص أبناء اللبد وهم فى ملابس الحرب ٠٠

وقـــال الباشا لشيخ البلد وصلنى أنك وضعت فـــوق الـــرؤوس اثنين من أولاد البلد وبلغك اننى لا استطيع ابتلاع مالا ترغبـــه نفسى - من الواضح إنك عملت على عدم مضايقتى فلم يأتيا مع

الأمــراء أولادنا ٠ سخر شيخ اللبد من غباء الباشا – وقـــال : لقد ســلموا عليك حالا يا باشا وكمـــا قبلــت خــدود الأمــراء المصرلية ٠٠ قبلت خدود حسيب بيك ، وحمدان بيــك صــرخ الباشا وهو يقلب يدية (وكمان عملتهم بكوات يا شيـــخ البلــد) وقال على بيك فى هدوء" وستعطيهم فرمانا بذلك يا باشـــا٠٠ يكتب حالا فهم من الأمراء الشجعان " وقام ووقـــف قبالتــه : اسمع يا باشا العثمانية يوغرون صدورنا ضـــد الأعــراب ثــم يحالفونهم ضدنا ٠٠ ويوغرون صدورنا ضد أولاد البلد – ثـــم يعينون منهم الأفندية فى العاصمة–بل يرسلون إليهم بالمكـــاتيب بأننا جماعة من العبيد نمسك برقـــاب الأحرار٠٠والبلــد فـــى هياج،وصوامع المماليـــك فتحت لإطعام الناس٠٠وانت قاعدهنا (مزقطط) ولا على بالك ٠٠

شعر (الباشا) بأن شيخ البلد مقلوب عليه – فصاح فى الكاتب أن يطلع فرمانا فى الحال يبصم عليه–ببكوية حسيب البنـــهاوى وحمدان الأسيوطى،هدأ شيخ البلد حتى تسلم الفرمان – وانتظر الباشا أن يشكره لاستجابته لطلبه مع معارضته لما يطلـــب ٠٠ لكن على بيك الكبير كان قد طرف بعينه للأمراء فتحوكوا فـــى الخروج – لتامين المكان وبقى على بيك طنطاوى – وحســـيب بيك البنهاوى – وحمدان بيك الأسيوطى ٠٠ وجلس الباشا فـــى انتظار دعوته لمشاهدة التجريدة عند تحركها ٠ قام على بيـــك الكبير ووقف قبالته وخلفه الأمراء الثلاثة وقـــال للباشـــا فـــى هــدوء : أنت معزول يا باشا ٠ اذا قاومت ســتحدث مقتلـــه – انت الغارم فيها ، أما إذا اطعت فسوف تــنزل وتقعــد معــززا مكرما فى بيت (ايواظ بيك) عند الزير المعلق ٠

٠٠٠

أبدى الأمراء إعجابهم بآراء شيخ البلد – واضطر أبو الدهب أن يحنى الرأس أمام هذا الاجماع وبعدها بدأ على بيك اجتماعاً مع

خاصته من الأمراء لوضع خطة للقتال ، وخطة لجمع الأمــوال لتكاليف التجريدة الضخمة التى يجب أن تكــون فــى مسـتوى التجمع الضخم الذى تم فى الصعيد ٠٠

وفى نفس المساء ، جمع الأعيان والتجار وأصحاب العكــاكيز من كبار المشايخ وأصحاب السجاجيد مــن الأوليــاء ، وجمــع مشايخ الطوائف ومعهم النقباء – وعرض عليهم الوضــع فــى الصعيد كما بينته التقارير والأنباء التى ترد إليه – ولم يكن هذا خافيا على أحد وختم كلامه (لما راق الحال كنا نترك للنــاس أمــوالهم يستمتعون بها فى هذه الايام الرضيــة ، لكنــهم لــم يمهلونا لنستطعم بنعيم بلدنا ، تجمعوا يحاولون النزول إلينا وأخذ اللقمة من أفواهكم وبما أن أبناء البلــد ومباشريــها – ومنــهم الأمراء المصرلية – على رأس المستفيدين فتكــون التكــاليف عليهــم اكثر ، نحن لن نرهق أرباب الصناعات والفلاحين حتى لا يزداد الحال سوءاً بهجرتهم لحرفتهم وزراعتهم ، وبــإذن الله نغنم من المعتدين ما ننفقه ، وتعود إليكم أموالك مضاعفــة ، إذا كتب لنا النصر عليهم أما إذا كسرنا وهزمنا – فان كل أمــوال الدنيا لا تنفع المهزوم والسيف على رقبته ٠٠ !!)

وبــدأت المساهمات حتى فاقت المطلوبات ٠ وقبــل بعضــها وأرجأ البعض الآخر ! حتى إذا طلب المزيد حصل عليه ٠٠!

شرع على بيك الكبير فى تجــهيز التجريــدة – وحــدد مكــان معسكره فى الجيزة ، وقبل أن يعطى الأمر بالتحرك إلى وجــه قبلى ٠ زار الباشا فى بيت أيواظ بيك – فوجده هادئ البال تبدو عليه السعادة – على خلاف عادة المعزولين المحددة اقامتهم فبدأ القلق يساوره ٠٠

–٠٠٠–

(١٥)

ضمت التجريدة – التى تحركت الى وجه قبلــى بـرا وبحـرا بجانب المماليك أناساً مـن مختلـف الأجنـاس ، دلاه ودروزاً ومغاربة • وشواما وأولاد بلد – سافر الجميع حـاملين معـهم الامدادات والجباخانات والذخيرة والبقسماط •• واستمروا فـى السيـر بلا مقاومة • يضـرب مدفـع الراحـة فيسـتريحون ويضرب مدفع الشيل فيتحوكون ••حتى وصلوا بـالقرب مـن أسيوط – ولم يشتبك معهم أحد وعند جزيرة (منقباد) نصبـوا معسكرهم الرئيسى حول خيمة (أبو الدهب) وتم تجميـع كـل القوات لإعدادها تجهيزها للمحاربة وشحن أنفسهم للصـدام •• وكانت مكاتبات على بيك تترى إليهم كلما حطـوا رحالـهم – يعلمهم بكل ما يصل إليه من أخبار – المعونات التـى تصـل لخصومهم من الشام ، والشقاق الذى دب فى صفـوف عـرب هوارة بعد أن وصلتهم أخبار –بأن أولاد البلد المصرييـن هـم الأمراء الذين يتصدون للعصاه بما يعنى أن فى الأمر وجه أخر، فإن خبر تعيين أمراءعلىالعسكرمن أولاد البلد قد أذهل الجميع ، وجعلهم يقلبون فى(الحكاية) على كافة وجوهها ••

ومحمد بيك ابو الدهب بصفته أمير هذه التجريدة ونائب علـى بيك الكبير فقد كان يقرأ الرسائل مرتين – مره لنفسه ، ومـرة للأمراء – فيعزل من الرسائل ما لا يريد إعلانه • ولـم يكـن مقتنعا بما أتى به على بيك من خلل فى الشرائع المستقره بيـن

(الغزاه) من قديم الزمان ، إذ كان يرى أن ما يحدثه على بيك شئ شاذ من الحيلة، لتقف كل مصر معه إذا ما انكسر – وهو يعلم أن انكساره يعنى قتله وليس طرده واذا كان حسين بيك كشكش وصالح بيك قد قتلا ولم يحرك أحد ساكناً • فإن مقتله سيمر مرور الكرام على أذهان الجميع ، وفى رأية ان على بيك يحدث هذه الفرقعات ، لتثبيت أقدامه – فان وجود أمراء من أولاد البلد بينهم – إهانه لهم كأمراء صناعتهم الحرب يولدون ويكبرون مع سيوفهم،فالطفل وطوله عدةأشباريكون له سيفه، يلائم عمره ، وكلما كبر ، كبر سيفه معه ••"

كان هذا الحديث يتناثر ويتجازب بين محمد بيك ابو الدهب وباقى الأمراء المماليك وبعضهم كان يطاوعه ويسايره وبعضهم كان ينصحه بان (الوقت العصيب لا يتحمل التقليب على الفاضى،الآن يجب ان نقلب فى الملآن ونتخذ من الشياطين حلفاء لكى نخرج من هذا المأذق) وقد انتهى عصرطرد المماليك والحفاظ على أرواحهم ثم عودتهم الى ما كانوا عليه بعد تمليص آذانهم برفق – الأن يتم قتل المماليك وهم يستحقون هذا العقاب – وبدأ على محمد بيك أبو الدهب أنه اقتنع برأى على بيك الطنطاوى – فاستقبل حسيب بيك وحمدان بيك بين المماليك ، وكان يحاول ابتلاع هذا الموقف الغض ، ويتحمل مجالستهما على مضض، وقد حضرا مجلس الحرب بين دهشة البعض ، وابو الدهب يعرض خطة الهجوم العام – وخطة الدفاع •• وأجمع المراء رأيهم على أن يدهمون حصونهم أثناء الليل بعد منتصفه ، وانقضاء ساعة ونصف منه – ولم يتحدث حسيب أو حمدان ، ولم يطلب أحد منهما الرأى – وانفض اجتماع مجلس الحرب • وذهب كل أمير ليشرع فى تجهيز قواته والتمام على ما كلف به ، ثم التقى حسيب مع حمدان فسأله : عجبك الكلام يا حمدان •

قال حمدان : الكلام حلو لكن التنفيذ يا حسيب ..
قال حسيب : بعد ساعة ستكون خطة المعركة بين يدى الخصوم وأنا وأنت نعرف أن الأمـــراء المماليك دائما ما يضعون كـــل قدم على جسر وأسيوط ستستعد لاستقبالنا بالكمـــائن.. وربمـــا الان يكون رسول الخائن فى الطريق إليهم .
قال حمدان اسمع ياحسيب-مادمت اقنعتنى حتى لو كان كلامـك خطأ-فإن تغيير المواعيد سيكون فىصالحنا-تعال معىنقابــــل محمدبيك أبوالدهب ونقول له.ياأمير،نحن لم ندل بدلونــــا فـــى المناقشة-لابد وأن تسمع رأينا،ونحاول أقناعه بوجهة نظرنا ."
وبعد شئ من التردد ذهبا الى محمد بيك ابـــو الدهـــب ، أبلغـــا فراش خيمته وبضرورة اللقاء به ومقابلته ، ولما علـــم أنـــهما الأمراء أولاد البلد تكاسل ولم يهتـــم ، وجعل الفراش يبلغـــهما انه متعب ويأخذ قسطا من الراحة الآن ..
(وسوف يقابلها فى وقت آخر) لكنهما أصرا على لقائه برغـــم الإحباط الذى أصاب حسيب البنهاوى - قال حمدان : الجميـــع يعرف أنه غير راض عن رئاساتنا - لكـــن هـــو الأمـــير الان ويجب أن نوضح لــــه الموقـــف - قـــال حســـيب - واذا لـــم يوافق - اجاب حمدان فى حزم : إذا لم يوافق يجب أن يصـــل الخبر إلى على بيك قبل الهجوم .. أمامنا ثلاثة أيام والقابجيـــة يذهبون من اسيوط ويأتون من القاهرة فى الأيـــام الثلاثـــة .. وجاء الفراش وأبلغهما بموافقة (أبو الدهب) علـــى مقابلتـــهما وأعتذاره (بأنه سيقابلكما بملابس الراحة وبدون تكليف - فـــلا تآخذاه على ذلك - فأنتم فى عجلة ..) وجلس ابو الدهب معهما يتثاءب ، نصف نائم ، لكنهما عندما قصا عليه ما يـــدور فـــى خاطرهما-فنجل عينيه وأنتبه - كاناً يحدثانه همسا فى أذنـــه ، فصحبهما الى الداخل - وطلب من خدمه عدم إزعاجه ودخـــل بهما إلى سريره - وأخذ يستمع الى رأيهما . وبـــدا انـــه قـــد

اقتنع – فقال لهما دون أن يتخلص من تعاليه : افصحا بما يدور فى خلدكما جملة ٠٠ قال حمدان وحسيب (أنـــهما الان ســوف يتهيأون لنا ٠ وقد وصلتهم خطتنا ٠ وستكون الخسائر كبيرة اذا ما اتبعنا نفس الخطوات ٠ وقد يردوننا علـــى أعقابنـــا ونحـــن نعرف الهوارة والصعايدة – ونحن الآن بالنسبة لهم غزاه – كل رجل منهم سيدافع عن بيته وحريمه – ضرورى من الاتصـــال بالهواره – قال ابو الدهب – جاء فى رسالة شيخ البلـــد ٠٠ ان مسأله حصولكما على البكوية وصلت لهم هنا ولا يصدقونها ٠٠ كان يتحدث كأنه يتحدث لنفسه ٠

قال حمدان: إذن فى هذه الحالة سنذهب أنـــا وحســيب وعــدد نختاره من أولاد البلد – وندخل المدينـــة كتجــار – ونتصـــل بالهواره والصعايدة ونؤكد لهم صحة ما وصلهم من أخبار –قال ابو الدهب–كيف سيعرفون عليكما وانتما فى ملابس التجار ؟ ذكـــر له حسيب:أن فىلساننا الضاد–وسوف يروننا بعــد ذلــك على رأس عساكرنا–وفىاليومين السابقين علىالمعركة نكون قد حيدنا بعضهم) وقال حمدان: اما بالنسبة لمواعيد الهجوم فانت كأمير للتجريدة بإمكانك أن تقدم الموعد يوما – وبدلا من الليل ، يكون الهجوم فى عز النهار، وبذلك تتم المفاجأة ٠ وكـــل مــا رتبوه لا يلحقون القيام بتنفيذه (ولكن مشكلة الأبواب والمدافع يا جماعة) هكذا سألهما أبو الدهب–اقترح حسيب تجميع كمية من الحطـــب ، يجعل فيا الزيت والكبريت وتكوم تحـــت الأبـــراج وعند الفتحات ٠ ثم تشعل – وعندما تفتح الأبواب وتقوم المقدمة بالهجوم يتبع ذلك باقى التجريدة – وقد أعجب ابو الدهب بـــهذه الخطة فأضاف (ونأتى عليهم من كافة الجهات التى تفتح أبوابها بنفس القوة حتى نشتت جهودهم – ثم سكت واخذ ينظر اليـــهما مليا وسأل : أين تعلمتما هذا الفن يا أولاد البلد ٠

قال له حسيب:لعل فىسيره خـــالدبن الوليدوامراءعسكرالمســـلمين كثيراًمن الخطط المستفادة) وبرغم اعجاب(أبوالدهب) بهمافقد طلب أن لايعلم أحد بهذا اللقاء وان يذهباعلى الفور إلى داخل اسيوط٠٠ وعندما انصرفا- تمنى لو أنهما لايرجعااليـــه مـــرة ثانية٠ولكنـــه اضطر ان يتذكر كافة اقوالهما - ليبنى خطة الهجوم الجديدة ٠٠ وعندماغربت شمس اليوم الثانىعن هـــذا اللقـــاء-عـــاد حســـيب وحمـــدان٠٠بعد المرور بمشكلة لاقترابهما الشديد من المعســـكر، ولولا أنهما تركا خبراً لدى القائمين بإمارتهما لتعرضا للقتل- وقد أبلغا (أبوالدهب) بأنهما احدثا الانقسام بين الهـــواره والصعـــايده- واعداد كبيـــرة - انسحبوا بعيالهم إلــــى قبلى٠٠والشيـــخ همـــام مريض ولا يسمع- وأحد أبنائه من الأحفاد - يقوم كخليفـــة لــــه، وقد صدق روايتهما، وينتظر رؤيتهمـــاعلى رأس الجيش فلا يرفع سيفاً ولا زقلة على تجريدة على بيك - وقد بلغهم بأن على بيـــك من أصل عربى ويعمل لصالح أبنـــاء البلـــد فقد شـــاعت بينـــهم (رؤية جماعة الفلاح الإصلاحية)٠
فيمتعض ابو الدهب ، لكنه يترك التعليق على هذه الاقاويل التـــى ستستفيد منها تجريدته - إلى وقت آخر ٠

******

كانت معركة أسيوط من أهم المعارك فىتاريخ على بيك الكبـــير وهى التى أكدت له النصر ، وبهزيمة خصومة وغرامائـــه فـــى أسيوط و صار بعدها على بيك سيد الوجهين وصـــاحب النفـــوذ المطلق فى جميع انحاء مصر ٠ وكان على العثمانيين الاعـــتراف له بقوته - وابتلاع الاهانات التـــى وجهـــها لباشواتـــهم بـــالعزل ومخالفة عوائدهم ٠٠

*****

٠٠ مـــن عادة الأمراء المماليك قبل المعـــارك المهمـــة التـــى تحصر مصائرهم على حافة جـــرف ، ان يستشيروا المنجمين ، وعندما ضرب الأمراء – الزايـــرجة – قـــال الزايرجـــة – أن الموت سيقع على محمد بيك أبو الدهب ومعــــه امـــيران مـــن الأمراءالقدامى – واحد من اثنيـــن أما محمد بيك ابو شنب ، أو ابراهيم بيك بلقيا ، فامتنع الثلاثة عن الركـــوب والـــــهجوم ٠٠ لكن حسيب بيك – المعروف بين المماليك بابن البلـــد وحمـــدان بيك الذى يلقبه المماليك بالأمير البستانى ، تقدما يســـفهان هـــذا التنجيم ويقول حمدان:كذب المنجمون ولو صدقوا ، وشجعـــــهم على ترك هذه الخرافات ، أو أن يتركوا لهما أمر الحصار حتى يمر هذا اليوم على خير – إلا أن مقتل محمد يك ابو شنب فـــى معركة جبانة اسيوط ، اثناء الحصار واندلاع النيران وإســـقاط أبراج ضرب البارود ، جعل من يؤمن باليازرجـــــة يعتقـــد أن حسيب وحمدان كانا يحرضان أبو الدهـــب علـــى المـــوت ٠٠ فحملها لهما أبو الدهب – وأعرض عن لقائهما بعـــد المعركـــة وهما اللذان أبليا فيهاعلى رأس أولاد البلد من أتباعهما وكـــانت مفاوضاتهما مع العرب والصعايدة سبباً فـــى انســـحابهما مـــن الصدام ، بل أن عدداً من عرب هواره وصعايدة أسيوط ومـــن أقباطها ساعدوا الأمراء أولاد البلد ورحبوا بهما ودلوهما علـــى مخازن السلاح والذخيرة والغلال فى انحاء المدينـــة ، كمـــا أن اسماعيـــل أبو عبد الله حفيد الشيخ همام كبـــير هـــوارة شعـــر بالفخر أن يكون هؤلاء التجار أمراء مصريين عربـــاً نصبـــهما على بيك على جيشه – وسعى للقائهما بعد المعركة فصحباه الى مقابلة محمد بيك أبو الدهب فاستماله ووعـــــده بالرئاســـة فـــى الصعيد ٠ عوضاعن شيخ العـــرب(همام)إذا ركن إلـــى قولـــه وصدق معه فى استتباب الأوضاع فى قبلى لصالح علـــى بيـــك الكبير– وجاءت الأخبار بعد وقت قليل من انتهاء المعركة بوفاة

الشيخ همام ، وقيام أطماع عدد من المشـايخ فـي الرئاسـة – فذهب أبو الدهب ببعض القوات الى فرشوط وملكـها ونهبـها وأخذ جيمع ما كان بدوائر الشيخ همام ، وكانت عتـادا وفـيراً وذخائر كثيرة وغلالاً ومواشى وبلحاً جافاً وجبخانـة كثـيرة ، كانت قد وصلته من الشام له ولأتباعه ، ليقف بجانبهم ويعينـهم علـى محاربة شيخ البلد العاصى – ولكن أبـو الدهـب وقـد أقترب من الهواره تعرف على طبيعتهم ورأى خطورة أن يكون (اسماعيل ابو عبد الله) زعيما وله ثقافة اسلامية ويمكنـه أن يجمع الهواره كلهم حوله – فبذر بذور الشقاق بينـهم لتفرقـة شملهم بأن وقع اختياره على (درويش) بن شيخ العرب همـام وسعى لينصبه رئيسـا لـهواره ليسـتمر النزاع يقسـم القبيلـة ويضعفها،وفى الوقت نفسه يقوى له نائباً يتصدى لزعماء هواره وعلى رأسهم اسماعيل ابو عبـد الله وأتباعـه ، وعـرض أن يصحب(درويش) ابن همام الى مصر – أم الدنيا– فوافق ٠٠٠ وبهذا الانشقاق فى صفوف هواره اندلعت الحرب بينهم فمنـهم من ذهب الى درنه ، ومنهم من ذهب الى الشام ، ومنـهم مـن هبط الى وجه بحرى ٠٠ وضعف شأنهم بينما درويـش ابـن الشيخ همام فى مصر ، تقابل مع على بيك الكبير ، فأحتفى بـه وخصص له المخصصات وأوصى به محمد ابو الدهب خـيراً فأسكنه فى مكان بالرحبة المقابلة لبيته وخصه بجاربه بيضـاء جميله ٠ وصار (درويش) يركب ويذهـب لزيـارة المدينـة واحيائها ويشاهد مصر وناس مصر – والناس تشـاهده أيضـا فالهواره قبيلة محاربة ٠ كانت تنسج حول أبطالها الأساطير ٠
وكان درويش بن همام رجلاً له وجه طويـل نحاسـى وسـيم البشرة وله لحية جميلة مشذبة٠٠ اعطاه على بيك (فرشـوط) على اسمه ولكنه لم يدخلها – وزحمه ابو الدهـب بـالحريم ، واستمرأ الرجل حياة الدعة فانحل شأنه خاصة بعـد أن كشـف

المستور (لابو الدهب) - وهو ينقل لــــه أخبــار انتصـــارات (اسماعيل ابو عبد الله) غريمة ويحرضه على قتاله ، بارســـال الـــرسائل لتقوية اتباعة هناك ، اعتقد الرجل أن ابـــو الدهــب يعمل لمصلحته - فدل ابو الدهب إلى مخـــابئ الـــهواره التـــى يحفظون فيها عيالهم وحريمهم وأموالهم وأسلحتهم ، كذلك دلـــه على الأماكن التى ترعى فيها خيولهم،وأرسل أبو الدهـــب إلـــى حاكم جرجا وأسيوط بهذه الاسرار ، وطلــــب منـــهما ســـرعة الاستيلاء على هذه الثروة وإرسالها الىمصر - ليتقـــوى بتلـــك المنهـــوبات الأمير على بيك الكبير ، وكان اسماعيل ابو عبـــد الله يحاول توحيد هواره ومناهضة حاكم (فرشوط) الذى لم تطأ قدمه أرضها ، لكنهم خذلوه - حتى هاجمهم المماليك واســـتولوا على عيالهم وحريمهم وأموالهم وذخائرهم وســـلبوهم خيولـــهم ومواشيهم

٠٠٠ وانتهى دور (درويش ابن الشيخ همام) اذ ضــــاق بـــهذا الأسر الذى كان يجده لذيذا ٠٠ ثم صار مرّاً ٠ عندمـــا انقلبـــوا عليه ولم يعد فى مكانته القديمة ٠ فأسّر لمن حول بانه ســـيعمل على الرحيل من مصر ٠ وطلب مقابلـــة الأمـــراء أولاد البلـــد لمعـــاونته ، لكن محمد أبو الدهب ٠ أوعـــز للخـــدم فســـمموه تدريجيا ٠٠ ركبه المرض والهم لفترة من الزمـــن ، إذ صـــار يهذى ويضمحل ، حتى الموت ٠٠

خلص الاقليم المصرى بحرى وقبلى إلى على بيك وأتباعـــه ، ولكن هذا لم يتم له بسهولة ٠ فقد كان عليه أن يقضـــى علـى أذناب العثمانلية من الأمراء المماليك فشرع فى قتل مـــن فــى المنافى الذين اخرجهم من قبل إلى المنصورة ودمياط ورشيـــد وقد علم أنهم يواصلون الاتصال بالعثمانيين بواسطة القباطنـــة بالإسكندرية – يتراسلون ويتقابلون – لكن عيون على بيك كانت عليهم ،والذين يتقربون منهم يتطوعون الى إخبارة باتصالاتـــهم مع العثمانيين – وعلم انهم يحرضونهم على التمرد ضده – لأنه خالف عوائد الأمراء – ويريد أن يحكم مصر قبلى وبحـــرى ، ويتطلع إلى الشام ٠ والحجاز٠ وقد حصر هذا (الحلـف) وبـدا يتحرك ضدهم – فأرسل إليهم من خاصته من ينضم إليهم ويأتى له بالخبر اليقين عنهم ٠٠ وبعدها يقرر عقابهم ٠

وقد تعددت طرق القتل ٠٠ فقد كان يرسل إليهم من يخنقـــهم أو يسمهم او يطعنهم ، وهو بعيد عن الشبهه ، بل يبادر ويعـــزى فيهم وقد قضى على عدد من السناجق – منهم على بيك كتخـدا سنجق رشيد – وحمزة بيك سنجق زفتى – وسليمان اغا الوالى، وإسماعيل بيك أبا مدفع بالمنصورة ولكن عثمان بيك ،تمكن من الهروب إلىالإسكندرية وركوب البحر فى المركب (البيليـــك) وذهب إلى (استامبول) وقد تصادف ان مات الباشا الذى ضيق عليه الخناق قبيل تجريدة الصعيد ولحق بمـــن قبلـــه ، وصـــار

العثمانية يخشون القدوم الى مصر وفى رئاستها على بيك الكبير وقد تبين أن معظم الباشوات الذى يتم تعيينهم ولاه على مصـــر فى عهد على بيك اما يتعرضون لمصادرة أموالهم قبل الرحيل ، او يطردهم قبل استكمال مدتهم وتمكنهم من جمـــع مــا أنفقــوا للصعود الى الولاية، أو يمرضون آخر أيامهم فـــى مصـــر - بمرض الموت ويدفنون بالمقبرة التى خصصت للبـــاشوات .. وتعددت فيها القبور !!

وعنـــدما غفل العثمانية عن مصر - واستقرت بـــها الأحـــوال وعم الرخاء - تجلت فيها الفنون وقصدها الزائرون - وكثرت الاحتفالات والأعياد على الطريقة الفاطمية وقد أحيـــوا معظـــم أعيادالفاطميين ليشارك الفقراءفىالطعام الذىيقدمه الأغنياء ..! وبدأت حركة التعمير وبناء المســـاجد والقنـــاطر والخانـــات . وأشيع عن الاستقرار فى مصر - فوفدت اليها الوفود للتجـــارة مـــن الدول المجاورة ، ومن دول حـــوض البحـــر المتوســـط للإقامة وعادت السنن القديمة للظهور - فى مكـــارم الأخـــلاق وإظهار طقس الضيافة العربية ،عندما يهل هلال رمضان كـــان لكل بيت من بيوت الأعيان و الأمراء ومن التجار والعلمـــاء - مطبخان أحدهما أسفل المنزل أو فى باحتـــه يـــدار للرجـــال ، والثانى فى الدور العلوى من المنزل يخصص للحريم ،حتى فى الأيام العادية بعد مرور شهر رمضان الكريم كـــان المســـاتير يتفاخرون بأن بيوتهم مفتوحة أثناء تناول الطعام ليشاركهم فيـــه العابرون وأبناء السبيل والفقراء وسارت العادة أن يقوم الخـــدم بمد السماط فى وقت الغذاء والعشاء مستطيلا أمام المنازل ، فإذا كان المنـــزل به حديقة بالداخل جعلوه فيها أما إذا كـــان مبنيـــا على الطريقة العثمانية بأسوار عاليه فان السماط يمـــد بحـــزاء الطريق ويقف الخدم يلوحون على المارة فى أن يجبروا الـــزاد ويتناولوا شيئا من الطعام عندهم ، بينما يجلس صاحب الدار فى

الصدر وحوله أهل بيته من الذكـــور ثـــم ضيوفـــة المقربـــون وجيرانه ومماليكة وأتباعـــه ويقف الفراشـــون علـــى حـــواف السماط المستطيل يفرقـــون علـــى الجالســـين أنصبـــة اللحـــم ويقربون إليهم ما بعد عنهـــم مـــن المقلى والمحمر أو يصبون لهم الماء البارد للشرب ، وإذا لحظوا أن الخبز والطبيخ نفـــد ، يجلبون مقادير منه مكانه ، ويأكل الضيوف مهما كانت منزلتهم متدنية من نفس الأصناف ، التى يـــأكل منـــها رب الـــدار وإذا تصادف وان كان القـــادم بصحبته حريم، يصعدن الى الـــدور العلوى لتقوم زوجات صاحب الدار والخادمات بتقديم الضيافات لهن وإكرامهن وبعد الطعام ، إذا كان هناك لذى حاجة طلب أو شكوى أو مظلمة لدى صاحب الدار يكون خدمـــة قـــد منعـــوا المحتاج من الوصول اليه فانه ينتظر حتى ينصرف الناس بعـــد الطعام ، فيراه صاحب الدار باقيا ٠٠

ويدرك أن له طلبا ولم ينصرف ، فيقترب منه، فـــهو لا يـــزال ضيفه ويعامله بكل احترام ، ويسأله عن حاجته إن كان غريبـــا يفسح له مكاناً للنوم أو يشكو له مظلمته ، وعلى الفور تقضـــى حاجتـــه إن كانت فى المستطاع٠أو يتدخل لقضائها اذا كـــانت عند غيره ٠ وعادت الاحتفـــالات باعيـــاد الأقبـــاط والأعيـــاد المتوارثة من زمـــن الفراعنـــة ٠٠ وأول رجـــب والإســـراء والمعراج وعشوراء والنصف من شعبان وليـــالى رمضـــان ، والمولد النبوى الشريف ، بالإضافة الـــى احتفـــالات المحمـــل وإمارة الحج وقد أقبل النـــاس على اداء فريضة الحج بعد تامين الطريق، ولكل عيد أو موسم فطائره وحلوياتـــه ومطبوخاتـــه ، وظهرت الاحتفالات بأولياء الله الصالحين يذكـــرون فيـــها الله وينشدون الأناشيد الصوفية ويقدمون أنواع الأطعمـــة ويتبـــارى الأغنياء فى إظهار كرمهم وكان يشترك فى هـــذه المباريـــات أمراء المماليك حتى يذاع صيتهم فى الكرم " وســـبحان مغـــير

الأحوال فقد كان الأمراء يتكالبون على الأخذ اما فـــى الأيـــام الرائقة وقد كفت القلاقل أخذو يتبارون فى العطاء وانعكست هذه الحال على معظم الناس فى المدن ، وانتشرت هذه العادات فـــى الريف فاستقر المزارعون في حقولهم ، وصـــارت المطالبـــات بالضرائب تتم بدون جلد أو أرهاق فكثرت الخـــيرات ، وقلـــت هجرة الفلاحين إلى المدن واســـتخدم المتعطلـــون وقـــل عـــدد المتسولين وظهرت فى بيوت الريف (المناضر) التى يستقبلون فيها الغرباء والمسافرين يكرمون وفادتهم ويتبارى بعضهم فـــى الكرم حتى يكون(مضرب الأمثال) عندما يذكرونه فى البـــلاد الأخرى ، ويتحدثون عن مدى كرمه وخيره الوفير الواسع ، وقد يتصادف أن يكون من هؤلاء الضيوف ، شعراء ومُغَنِّى فينسج عنه وعن حاتميته ، القصائد والمواويل ٠

******

فى رمضان (عام ١٧٦٩)صلى على بيـــك صـــلاة الجمعـــة الأولى من رمضان فى جامع الداودية وخطب (الشيخ عبد ربه) خطيب المسجد وكان رجل به خفة واندفاع ودعى لعلى بيك فى نهايـــة الخطبـــة وخصـــه وحـــــده بالدعـــــاء ، متجـــاهلا (السلطان) إلا أن على بيـــك بعـــد أن انتـــهت الصـــلاة دون اعتراض من أحد ، وربما أسعده هذا، أحضر الخطيـــب وكـــان رجلا من أهل العلم تغلب عليه العصبية ويقول ما فـــى نفســـه دون معالجة ، قال له فى هدوء أمام جمع من خاصتـــه ومـــن الناس الذين التفوا حوله : من أمرك بالدعاء باسمى وحدى على المنبر ياشيخ عبد ربه ، هل قيل لك إنى سلطان ؟ فقال الشيـــخ مندفعا : نعم انت سلطان ، أنا عشت عهود كثيرة لم نر ما نحن فيه إلا فى أيامك ومصر صفيت لك من أعلاها إلى أدناها ، من

يستطيع أن يقف الآن أمام ولى النعم ٠٠؟ برغم أن كلام الشيخ عبد ربه وجد استحسانا وتأييداً مـــن الذين حولـــه إلا أن علـــى بيك انتظر حتى كفوا عن مدحه وأظهر الغضب ، قال لـــــمن حولـــة-(لقد أخطأ الشيخ عبد ربه ويستحق الضرب) وامـــر من حولـــه (أن يضربوه لفعلته هذه) فأمسكو بـــالرجل وهـــو يكرر ما قاله، وضرب بالعصا وأسقطت عمامته ، والقـــوا بـــه على الأرض،وعاد اقترب منه السلطان على بيك الكبير يسأله : من أنا يا شيخ عبد ربه ؟ويعود الشيخ صائحا: أنت ولى النعـــم وانا أقول الحق فضربه بيده ضربا خفيفا على فمه، فانبثق الـــدم بين أسنانه ، وتركه ليذهب فركب الشيخ حماره وذهب وهـــو يردد فى صياح مؤثر (بدأ الاسلام غريبا وسيعود كمـــا بـــدأ) وعندما وصل إلى بيته وجد جماعة من خدم على بيك الكبـــير سبقوه إلى هناك وقد حملو للشيخ عبد ربـــه الـــهدايا والقفطـــان والترضيات ، وقد أصيب الرجل بالرعب عند رؤيته لهم ، لكنه سريعا ما سيصاب بالذهول وتأخذ الدهشة أنـــه يضـــرب فـــى المسجد ويسترضى فى البيت وعندما ينصرف الخدم يطل مـــن نافذة داره ويأخذ فى الصياح (ألم أقل لكـــم أنـــه الســـلطان ، وتقولون عنىأنى مجنون، لا والله انتم المجانين ٠٠ على بيـــك الكبير صار السلطان بمصر يا جماعة) والناس كانوا يستمعون للشيخ ولا يتعجبون ، فالرجل يقول الحقيقة ٠٠ بل أن بعضـــهم كان يردد ما يقوله الشيخ عبد ربه وكأنـــه يبـــايع علـــى بيـــك سلطاناً٠

******

فى هذه الايام كان على بيك الكبير يجلس بديوانه فـــى مجلـــس الوالى ويتوافد عليه الســـفراء والأعيـــان والشيـــوخ ، ويحـــاط

بالامـــراء الذين جعل منهم الـــوزراء ، واســتخدم الكتـــاب ، وأصدر الفرامانات التى كانت تمضى فى التنفيذ بكل دقة ، وكان لعلى بيك موكب عظيم لم يجلس فيـــه إلا ســلاطين الممـــاليك العظماء ، وكان العامة يحيطونه بالهتافات التى يصل صداهـــا إلى بـــر الشام، وتعبرها إلى عاصمة السلطان فتدق عليه أبواب قصره وتزعجه ، وتسبب للوزراء والسلطان هناك جفوة فـــى النوم ، وقد فرض عليهم أن يقلبوا فى سيرته وأخباره ٠٠!

******

وفى هذه الايام ، ياتى إلى مجلس على بيك ، الشريف عبــد الله بن حسين الذى وقع بينه وبين الشريف أحمد ، تنافس على إمارة مكه ، فيقوم على بيك بإكرام وفادتهه ، ومن معه ، فيخبره انـــه كتب إلى السلطان وأرسل شكواه مع رسول ليذكر حقه فى إمارة مكه التى اغتصبت منه فكان ردالسلطان بإحالتى اليك ، أرســل لى بأن أذهب الى (على بيك الكبير) وأوصى بالمعونه والقيـــام معى باللازم ، وقرأ الكاتب الرسالة التى معه ، كـــانت بـــالفعل كتاباً من عند السلطان ، يوصيه خيراً بالشريف عبـــد الله بـــن حسين ، ويترك له الأمر فى معاونته على إعادة الأمور فى مكه إلى نصابها وقد تبين بأن الشريق أحمد اغتصب بالفعل إمـــارة مكه وليس له حق فيها وسر على بيك برسالة الباب العالى ، لقد وجد فيها اعترافا بقوته وتثبيتا لأقدامه فى حكم مصـــر ، وقـــد وصلته الرسالة برغم ما حدث منه من قتل للـــولاة البـــاشوات وكأن السلطان يبلغه بأن المسامح كريم ، فليكن هو الاخر أكرم، ويقرن مقاصده البعيدة بالفرصة السانحة ، إن(مكه) قبلة كـــل المسلمين فى الشرق والغرب ومن يمشى على رمالها ســـيطير اسمه فى العالمين، قبض على هذه الفرصة بشدة وأمر بتجـــهيز

الذخائر الجباخانـــات وعمل من البقسمات الكثير حتى ملأوا منه المخازن ببولاق ومصر القديمة والقصور الدانية وبيوت الأمراء الذيـــن لم يعودوا وكانت خالية ثم شحنـــوا ذلـــك فـــى أجولـــة وأرسلت مع باقى الاحتياجات من السكر والأجبـــان فـــى الـــبر والبحر ، وعمل كشوفات بأسماء العســـاكر المشـــتركين فـــى (الحملة) اتراك ومغاربة وشوام ودروز وحضارمة • ويمانيـــة وسودان وأرناؤوط وولاه وغيرهم ممن اقبلوا على خدمته فـــى مصـــر ثم أرسل منهم طوائف فىالمقدمـــات،وخلفـــهم المشـــاة وانزلهم فى القلزم بمراكب ، وبصحبتـــهم الخبانـــات والمدافـــع وآلات الحرب •••

كان يود ان يشعر الجميع بمدى قوته ، وأنه لا يجهز فرقـــة أو تجريدة للتأديب بل يعد جيشا ليعلم عنه القاصى والدانى أخبـــارا ترهب القريب والبعيد ، وتجعل من يفكر فى الصدام معه يعيـــد التفكير مرات قبل ان يقدم على منازلته ، وجعل على رأس هذه الحملة ثلاثة سناجق وثلاثة آلاف من العسكر ، وثلاثة آلاف من المرافقين كمعاونين ومجاهدين ، وثلاثيين مدفعا وعقـــد علـــى رأس هذه الحملة أمير الأمراء محمد بيك أبو الدهـــب خادمـــه وكاتم سره ووزيرة الأول •

وبرغم ان هذه الحملة ضيقت الخناق على أهل مصـــر لـــزوم المصاريـــف الكثيرة التى طرأت فجأة ، وقد تكلفت ما يقـــرب من خمسة وعشرين مليون نصف فضه بالمقياس الى متوســـط يـــومية العامل خمسة أنصاف فضه ، فان التكاليف قد دبـــرت عن طيب خاطر وغادرت الحملة أرض مصر محاطـــة بكـــل الحفاوة والاحتفال، ووصل (النجاب) مـــن الديـــار الحجازيـــة وأخبروه بأن محمد بيك أبو الدهب دخل ومن معه الى مكـــه ، وانهزم الشريف أحمد وخرج بمن معه هاربا ،وتـــم نـــهب دار الشريف أحمـــد ومخازنه ومنازل من يتبعونـــه وأخـــذو منـــها الأشياء الكثيرة من أمتعه وجواهر وأموال لا تعد ولا تحصى ،

الشريف أحمد وخرج بمن معه هاربا ،وتم نهب دار الشريـــف أحمــد ومخازنه ومنازل من يتبعونه وأخـــذو منـــها الأشيــاء الكثيرة من أمتعه وجواهر وأموال لا تعـــد ولا تحصــى ، وأن الشريف عبد الله جلس على كرسى إمارة مكه ونـــزل الســـنجق حسن بيك بقواته الى بندر (جده) وتولى إمارتها عوضــا عـن الباشا العثمانى وأن محمد أبو الدهب جهز نفســه ليكـون فـى الطريق إلى مصر ٠ وكانت هذه العودة السريعة ضـــد رغبــة على بيك الكبير ، لقد قطع جيشه الطريق مسرعا وتمكــن مــن تبديل الأوضاع لكن عودة أبو الدهب سريعا تعنى أن الصيـــت والمقاصد الأخرى التى يريد تحقيقها لـــن تجـد ســبيلها إلـى التحقيق، لماذا يتعجل أبو الدهب فى العـــودة دون أذن منـــه ؟ ولماذا يأخذ هذا القرار من تلقاء نفسه؟ إن تحرك الحملة يكـــون بامر الأمير فى مصر وعودتها لا بــد أن تكــون بنــاء علــى مشورته (هل قطعنا كل هذا الطريق وتكبدنا كل هذه النفقـــات ليجلـس الشريف عبد الله على دكة الإمارة وتعود يا ابا الدهب) غضــب على بيك وأرسل على وجه الســرعة لأبــى الدهــب رسالة يخبره فيها بأن يبقى هناك حتى يأمره بالنزول ، وطلـب منه مطالب أخرى لتأمين الطريق للحجيج ، وكـــان يتمنـــى أن يذهب فى إمارة الحج وجيشه له وجـــود هناك، يأتمر باسمه من مصر ،وكان وهو الأهم لا بد أن يعلم الجميع قوته حتى يــأمن الغدر به إلى حين ، إلا أن محمد أبو الدهب ، جمـــع كل القوات وأتى بها إلى مصر وكان فى هذا التجمع الكبير مـــن العســكر خطورته على أمن البلد وثقل يضاف على كاهله وكان يتمنى أن يصرف بعضهم من هناك تدريجيا ، ودخـل محمد أبو الدهـــب القاهـــرة ، فاستدعاه على بيك غاضبـــا مـــن تصرفـــه هـــذا ، ليسألـــه – لماذا لم ينفذ ما جاء فى رسالته له – إلا ان محمـــد أبـــو الدهب وقف بين يديه ضائقا ثم ادعى بأن الرسالــــة لـــم تصله ، وقد حقق هدف الحملة وعاد ، لكن على بيك كـــان قـــد

مقتل٠فلا يعود الى مصر وكان قد عزم أن يدعى بأن الرسالة لم تصل إليه لكن الرجل بعد الطعنه تماوت وبعد أن غادره الطاعن ٠أخذ يزحف حتى عثر بعض عليه السيارة وبه رمق ، حملوه معهم وداووه، وعندما عملوا بقصته أتوا به الى مصر ليقبضوا مكافأتهم من سلطان مصر الكريم ، وأكتفى على بك بأن يقف محمد بيك أبو الدهب أمامه مخزيا يتصبب عرقا ، فانصرف الجميع واتجه إليه قائلا : هل هذه أول مخاتلاتك يا أبو الدهب ؟ أم إنها الأخيرة ؟ قال أبو الدهب في جمود : اعذرنى يا اميرى لقد ذقت فى فترة الاستقرار حلو العيشة الهانئة ، وجاءت هذه الحملة لتلقى بى فى أتون حار ، وقد ضقت بالأسفاروالدم والحرب ، فاسرعت بالعودة إلى جوارك أن ريح مصر وقربك اغريانى بالكذب ،وهى الأولى ولن تتكرر وحتى يروق بالك من ناحيتى إننى أقبل أن أعود خادما شخصيا لك وأترك كل هذا الجاه الذى منحتنى إياه ، توزعه على من تراهم أقدر منى قال على بيك (لقد كنت دائما يدى اليمنى وأقسو على نفسى إذ انا قطعتها لعل الكهولة أصابتك مبكرا ، ولكنى أرسلت معك بثلاثة سناجق من الشباب يأتمرون بامرك ويقال أن ريح مكه وأماسيها ترد الروح ، لعلك تذكر يا أبو ابو الدهب ، عندما كنا سويا هناك واقتربت منك أسمع دعواتك ، وجدتك تدعو لى ولا تدعو لنفسك، فأرجو أن تعود لى كما كنت) وكان أبو الدهب يقول فى نفسه وهو ينحنى (إلى متى؟ إن افضالى عليك كثيرة ، ولولاى لما كنت أنت الكبير) !!

وكان يبتسم ابتسامه خفيفة كمن يغتبط اذا عفى عنه سيده ٠٠٠ أو أستطاع أن يؤكله الملعوب !!

(١٧)

عندما طلع الصبح علـــى وصـــــول الحملـــة مـــن الأراضــــى الحجازية ، أتى العلماء والأعيان للسلام على أمير أمراء الحملة المنتصـــره أبو الدهب وكالعـــادة قصـــده الشعـــراء بالقصـــائد والتهانى ،وجلس بين مماليكه وحاشيته فى زهو متناسيا ما حدث معه مساء أمس ، وبعض الأدباء يفخمون فى ذات ابو الدهـــــب أملا فى أن يصيبهم شئ من النعيم ٠ وكان على بيـــك مطلعـــا على كل خافية فى بيت أبو الدهب وكان ذلك من أســـاليب أبـــو الدهب لكشف النفوس الضعيفة ، أن يرمى عليـــهانفوس تتمثـــل وضاعتها، فتندمج معها ويتم كشفها بسهولة وهذه الخطط نجـــح فى استخدامها عدة مرات وتمكن من كشف كثير مــــن الخبايـــا والتحالفات فليجرب على بيك أن يرمى على أبو الدهب من يأتيه بمكنون نفسيته التى بدأت بالمخاتله والكذب ومحاولة قتل رسوله الذى بعثه إليه ، لكن أبو الدهب لا يطمئن إلا للأمراء الممـــاليك ٠٠ فألقـــى على مماليكه من يمدح فى أبو الدهب ويطلب منـــه أن يصبح فى مكان على بيك الكبير(فأنت الذى أدرت معاركـــه كلهـــا تقريبا وبسيفك كتبت أسمه شرقا وغربا ، أين أنت مــــن كل هذا يا أمير الأمراء ؟ لا زلت تأمر وتطيع وحتى إذا فعلت شيئا لنفسك وبخـــك ٠ أنت لا تـــزال خـــادمـــا له يبيع فيــــك ويشتـــرى و٠٠٠) ووجد هذا الحديث قبولا لدى ثلاثة من أمراء

المماليك من خاصة أبو الدهب لكن حرص أبو الدهب وتعاليـــه الأصيــل فى نفسه لم يمكن أحداً من الجلوس معه والمســـامرة فى الفاضى والملآن فهو إما فى عمله جاد الملامـــح ، أو مـــع حريمه يستمتع بالراحة فلا يتحدث مطلقا مع النساء وعلى النساء أن يتحدثن معه ويلاطفنه .
كان أبو الدهب .. لا يغفل .. ويحتاط بصورة جيدة..

******

وفجأة قام على بيك بنفى ثلاثة من مماليك أبو الدهب المقربيـــن سقط منهم الكلام ضد على بيك أو رأى إخلاصهم الشديد لأبـــو الدهب شخصيا أو كان يقصد إثارته ليختبر مداه.. لكـــن أبـــو الدهب تقبل الأمر ببساطة وذكر أمام على بيك (كلنـــا خدمـــك ومماليكـــك يا أميرنا ..يروح كلب ويأتى بدلا منه عشرة..!) لكن الوحشه وقعت بالفعل بين الخادم والسيد وصاركل منـــهما يتقبل كلام الاخر فى حيطة وحذر..ويجده ثقيلا على نفسه..!

******

وفى هذه الأيام وصلت الأخبار لعلى بيك بأن(سليط)شيخ عربان غزه-قد تلقى معونات من (باشا)الشام ، وحدث بينـــهما أتفـــاق على أن يتحرش بعلى بيك ويقلق راحته من الجهة الشرقية .
لم يكن محمد أبو الدهب يستقر حتى أمره (سيده) بأن يجـــهز تجريدة لتأديب الشيخ سليط ووقف تحركاته .. وأمر لأن يكون عقابه صارما وأن يقتل ويأتوه بأولاده وأخواته وتنهب منه كافة الأسلحة والجباخانة التى وصلته من الشام ...

ذات تكاليف – وربما وجد حديث أبو الدهب أمام الأمراء شيئـــا من الموافقـــة ٠ قال له على بيك (اذا كيف نوقع العقاب بـــهذا المتآمر المحصن بين عشيرته دون تجريدة يا سارى عســكر٠) اقترح أبو الدهب (أن نتبع ضده المكيدة ، وذلك أرخص مــــن التجريدة) إلا أن على بيك رفض هذا الأســلوب ، وعــده مــن أساليب الضعفاء ٠ ورأى أنه لا بد أن تكون هنـــاك تجريـــدة ضخمة تأخـذ الشيخ (سليط) وســـيلة لـدق أبــواب الشــام ، ومصادمة الباشا المتآمر عليه هناك وقال (هذا هو بابنا الشمالى يا بكوات،حان الوقت لكى تكون مفاتيحه فى يدنا) وفى الحـــال تبدل موقف الأمراء ومالوا إلى رأى على بيك–فوافق أبو الدهب على مضض ، لكنه حذر (بأن كل فعل سيكون لـــه رد فعــل أقوى) لكن على بيك – طيب الخواطر وبين لهم (بأن لا يفـــوز باللذات إلا كل مغامر ، ويموت بالحسرات من يقرأ العواقب) ٠ ولأن التجريدة التى عادت من الأراضى الحجازية لم تكــن قـد حلت أركانها بعد ٠ ويهم شيخ البلد انشغال هؤلاء الأشتات بعيدا عن مصر ، ، ليستمر الهدوء فى المدينة ٠ فقـــد تـم تشكيـل التجريدة وتجهيزها فى وقت قليل وعين عليها إســماعيل بيــك وبصحبته على بيك الطنطاوى وعلى بيــك الحبشـــى ودفعـــهم للبروز إلى (العادلية) ٠

فخرجوا على وجه السرعة بمن معهم مــن طوائــف العســكر بالبقسماط والبارود والجباخانات وآلات الحــرب مــن الخيــام والأحمـــال وقرب المـــاء على الجمـــال ، وعلـــى التجريـدة محمد أبو الدهب كســـارى عسكر (ونائب لعلى بيك) على هذه التجريدة والإمدادات التى ستلحق بها هناك ٠ وفوضه بالنيابـــة فى أن يبصم على القرارات التى تخصه كأمير – كان على بيك يريد مراضاته عندما فوضة بالنيابة – وكأنه يقول له اذا أخذت أوامر من اختصاصى فلن يحدث بيننا خلاف ، كما حدث فـــى

تجريدة الحجاز ، عندما عددت بدون أوامر منى – لكن ساري عسكر التجريدة – كان يسافر وهو قانط ٠٠ فإن هذه التجريدة الكبيرة وما سيلحقها ، ليست لتأديب الشيخ سليط – بل لطرق أبواب الشام – وهو ما كان يراه أبو الدهب (زيادة فى الطمع ، الذى سيقلل ما جمعناه بين أيادينا بطلوع الروح !!)

وبعد عدة أيام برزت تجريدة أخرى عليها عمر بيك كاشف وجمله من العساكر ، ونزلوا عن طريق البحر إلى دمياط ، ومنها ركبوا السفن وساروا بحزاء الشاطئ نحو الشام ووردت الأخبار من جهة الشام بوقوع عدة معارك بين التجريدة المصرية ، وباشا الشام يعضده أولاد العظم – لكن محمد أبو الدهب ناوشهم وحاصرهم وصادمهم حتى أرجعهم وراء حدودهم وصار له موطأ قدم بالأراضى الشامية بخسائر طفيفة – لكن الدولة العلية هاجت فى استامبول وأرسلت لباشا الشام الإمدادات٠٠٠

فأرسل على بيك تجريدة ثالثة – للتدعيم ٠ على رأسها حسيب بيك البنهاوى وعندما وصلت أخبار هذه التجريدة التىأتت من البر وصارت بالقرب من المعسكر الكبير للخصوم ، أرسل حسيب بيك البنهاوى – برسول إلى أبو الدهب يبلغه انه الان خلف معسكر خصومه الذين ارادو تطويقه – وأن تجريدة عمر بيك الكاشف قد أتت من البحر وصار موقعها فى جنبهم ، وانه بشئ ن التنسيق يمكنهم عمل دائرة على قوات الباشا الرئيسية وتضييق الخناق عليه ٠٠ حتى يمكن إجبار الشوام على الأنقلاب على الباشا عند مصادمته فلا يصمد بما لدية من قوات عثمانية ٠٠٠

الخطة جيدة ، عندما عرضها رسول حسيب بيك – أعجبت الأمراء بشدة – وخاصه إسماعيل بيك – لكن ساري عسكر التجريدات سخر من خيال أولاد البلد ، وأرسل اليه (أن يتوقف

مكانـــه حتى تأتيه التعليمات ٠٠) دون أن يحـــدد لـــه ، هـــل سيطـــول الوقت حتى يبنى لقواته ملاجئ – أم سيقصر ليبقـــى فى العراء مستيقظا، وارتدت قوات حســيب بيــك الـــى غــزة واستحكمت فيها ٠٠ كان إسماعيل بيك الجداوى مـــن الأمـــراء القدامى ، وعلى بيك كان يعادل به ابو الدهب ، وكان لإسماعيل بيك طموحاته فى مشيخة البلد ، وبعد أن فقد على بيك مســـاندة العثمانية وأخذ الحوار بيـــن شيـــخ البلـــد والسـلطان منحـــى المصادمات الحربية ، وكان يرى أن على بيك الكبير طلـــع أو نزل ، لن يستطيع أن يهزم الدولة العثمانية الممتدة الأطـــراف ، وان مسألة (هزيمته) ما هى إلا مسألة وقت ، وأن على بيـــك يناجز الدولة الكبرى وهى مشغولة عنـــه بمشاكلـــها الداخليـــة والخارجية ، وفى رأية ، أنهم اذا ما انتبهو له وســـلطوا عليـــه حجافهـــم لسحقوه – وكان رأى إسماعيل الجداوى هذا يصـــل إلى وزراء الباب العالى كعادة أمراء المماليك – يضعوا قدمـــا هنا وقدما هناك ليحفظوا فى النهاية أرواحهم ، ووقـــت الزنقـــة يصرحون بانهم عبيد مأمورون ينفذون رغبات أسيادهم وكـــان أبو الدهب لا تخفى عنه الأراء التى يرددهـــا إســـماعيل بيـــك الجَدواى وإن كان ينفذ بدقة أوامر سيدة ويلـــوذ بالكتمـــان أمـــا وعلى بيك الآن يهتم براحة أبناء البلد فى مصر ، ويعمل بكـــل همة فى دفع المماليك فى حملات وتجريـــدات بعيـــدة تســـتهلك أعمارهم ، فان هذا كان يضايق الأمراء المماليك الذين خـــبروا حياة الدعة وتجمعت لهم الأموال من الوظائف والأعطيـــات ولا يجدون الوقت للاستمتاع بما جمعوه ٠٠٠ وأثناء حملة الشام كان إسماعيل بيك الجداوى دائم الحضور مع محمد بيك أبو الدهب ، وأدرك إسماعيل بيك أن الوحشة قامت بين أبو الدهب واســـتاذه من شواهد الكلام بينهما فطرق على هذا الباب طرقا هينا فـــإذ بأبو الدهب يفضى له بما يملأ نفسه كربا ٠٠!

وأدرك إسماعيل بيك أن الوحشة قامت بين أبو الدهب واستاذه من شواهد الكلام بينهما فطرق على هذا الباب طرقا هينا فإذ بأبو الدهب يفضى له بما يملأ نفسه كرباً ٠٠!

ومع ذلك كان المصريون قد حاصروا يافا وضيقوا عليها الخناق حتى ملكوها وانتظرو الإمدادات تأتيهم من مصر أمام الامدادات التى يدفع بها الباشوات والنواب من أطراف الدولة العثمانية وأرسل على بيك الإمدادات والتجاريد مع أيوب بيك ورضوان بك بمصاحبة كشافهم وأرباب المناصب والمماليك ومعهم طوائف من أتباعهم ، وعسكر من المغاربة والجركس والهنود واليمانية والدروز ليكون الجميع تحت أمرة أبو الدهب ينهى بهم فتح الشام وضمها إلى مصر لإعادة ما كان بين مصر والشام من قديم الأزل ، وبدأ واضحا أن الأمر لن يتوقف على تجريدة تنهى أعملها فى عدة شهور وتعود - بل أن الرأى عند على بيك اتجه بأن يبقى أبو الدهب فى الشام نائبا له ولا يرجع الى مصر ٠

وأرغم أبو الدهب على االصدام مع قوات(الباشا) التى اجتمعت على هزيمته وطروده ، فكسرها ، واستمر فى مطاردتها حتى ملك (حلب) والعديد من المراكز والمدن الشامية ، واشتركت حدود الأراضى التى فتحت مع حدود الدولة العثمانية الأصلية ٠ وهنا ثار الباب العالى ثورة عارمة وصارهمهم هناك تركيز كل جهودهم لوقف انسياب (الجيش المصرى) فى الأراضى العثماينة ٠٠ بأى صورة من الصور ٠٠ ووردت إلى مصر هذه البشائر بالانتصارات المتوالية وأنقلاب الشوام على العثمانية، ومساندتهم للقوات المصرية، وكيف كان لثمرة تحالف على بيك مع بيت ضاهر العمرى أثره فتقوى بهذا البيت الذى كان على خلاف دائم مع الدولة العثمانية ٠ووجد فيه على بيك مساندة حقيقية للقضاء على الحكم العثمانى فى الشام وأقيمت فى

ورأى سفراء الدولة وقناصلها أن يتقدموا لعلـــى بيــك الكبــير بالتهنئة على هذا الإنجاز وقد حصروا الحملة فوجدوها تقـــرب من٦٠ الــف مقاتل وان باستطاعة علـــى بيــك الأن أن يـــهدد الدولة العلية ويسقطها ، وهنا وردت إلى على بيك من الـــدول الأوربية تحذيرات ، بأن الأمر إذا زادعن حده أنقلب ضده !!
كان من نتيجة إرسال الإمدادات والتجاريد إلـــى الشـــام زيـــادة النفقـــات فوق الطاقة على الأهالى دون أن تـــرد مـــن الشـــام الأمـــوال والهدايا والمغانم فان تحالف الشوام مـــع المصرييـــن أدى إلى عدم نهب ثرواتهم • فقرر على بيك الكبير على كل بلد فى مصر ثلاثة آلاف ريال وجعل ثلاثة ريالات حـــق طريـــق، وضج الناس بالشكوى للعلماء فطلب من النصارى مائـــة ألـــف ريـــال ومن اليهود أربعين ألفا ومن أرباب الســـجاجيد دراهـــم ميسورة ومن آرباب الحرف دراهم • وقبضت الأموال بشئ من الشدة والاستعجال ••!!
وأرسل على بيك يعقوب الأرمنى للاتصال (بالبنادقـــة) وهـــم أهل تجـــارة وسفن ليحتلوا جزر البحر المتوسط بعـــد تحالفـــه معهم يقلد فيه سلاطين المماليك الأقوياء لتكون له قاعدة ينطلق منها ••إلا أن تدخل الدولة الكـــبرى الأوربيـــة عطـــل هـــذه الاتفاقيات بعد ان نوقشت الشروط ••!

******

وبناء علـــى نصائح من السفراء وتقديـــم وجـــهودهم للصـــدر الاعظم (كبير وزراء العثمانية) بضـــرورة أن تـــهتم الدولـــة العلية بوقف هذا العدوان على الاراضى العثمانية وولاياتـــها ، وأبدو استعداد بلادهم لتقديم المساعدات العاجلة وقد رأى القنصل الإنجليزى ان يتم الإتصال بمحمد بيك أبو الدهب – مـــن قبـــل

العلية بوقف هذا العدوان على الاراضى العثمانية وولاياتـــها ، وأبدو استعداد بلادهم لتقديم المساعدات العاجلة وقد رأى القنصل الإنجليزى ان يتم الإتصال بمحمد بيك أبو الدهب – مـــن قبـــل السلطان ، فإن سفارته فى مصر كشفت له بأن ثمة خلافات بين سارى عسكر الجند المصرية فى الشام ، وأميره فى القاهرة ٠٠ وأرسل العثمانية باسم السلطان – لمحمد أبو الدهـــب يجســـون نبضه ٠٠ وكان محدثه (عبد المجيد افندى) ومعه ياقوت بيـــك أحد أمراء المماليك القدامى المطرودين ، يعرفه أبـــو الدهـــب معرفة شخصيته لزمالتهما أيام الشباب ٠

واستمع أبو الدهب لهم ورأى بصمة السلطان علـــى التفويـــض لهما فى أى اتفاق يركن اليه ويعجبه ، وأخبروه عـــن اســـتحالة هزيمة الدولة العثمانية والدول الأوربية بادرت بوقف العـــدوات معها للقضاء على المصريين أولا وحدثوه بأن جهود الأمـــراء ستنسب مجداً لعلى بيك وحده ، وقالـــوا لأبـــى الدهب (إنـــه يرهقكم بالترحال والحرب ٠ وهو فى مصـــر يســـتلذ بحريمـــه وأبهة السلطة فى أمان ، وأنه لا يخاف عليكم بـــل أنـــه يعمـــد بتوسيع الحرب ٠٠ لأهلاككم والعمل على ظهور أمراء جدد من أولاد البلد ٠ يركبون دكتها ويشطبون عليكم فـــلا يكـــون لكـــم مخصصات أو مناصب أو مزايا ٠٠٠!)

وكان أبو الدهب قد صحب معه إسماعيل بيك الجداوى وبقـــى صامتا يســـتمع حتـــى فـــرغ الرســـل مـــن توصيـــل رســـالة السلطان – ثم أردفوا قبل رحيلهم (حان الوقت ان تكون انـــت وإسماعيل بيك الأمراء بمساندة مطلقـــــه مـــن الدولـــة العليـــة وفرمانات سلطانية مؤكدة)

فبرقت عيونهما للحظات ٠٠ بما يمـــور فـــى نفســـيتهما مـــن طموحات٠٠!

(١٨)

ارسل على بيك الكبير الى محمد ابو الدهب (نائبه فـــى الشـــام) أمراً بتقلد الأمراء المناصب والولايـــات علـــى البـــلاد التـــى افتتحوها، وحدد له اسماء معينة - بعضهم كان لا يـــزال فـــى مصر ..!

ثم طلب منه ان يستمر فى مسيرته ويتعدى الحـــدود العثمانيـــة ويستولى على المدن منها إلى حيث شاء . وانه ســـوف يتـــابع إرسال الإمدادات واللوازم والاحتياجات وان يعمل على جمـــع الأموال من الأمراء الجدد ليتقوى بها ، وأن يتصرف مع الشوام بكل الاحترام والمساواة فهو نائبه فى الحرب والسلم (وقد خـــبر نفسيته) ويستطيع ان يفعل ما يفعله من خير وعند الضـــرورة فقط يحزم ويتشدد ..! "

عندما تلقى محمد أبو الدهب الرسالة أمر بإكرام الرسول ومنحه العادات وقام بالاجتماع بإسماعيل الجداوى - وخاصتهما مـــن المماليك فى خلوة وعرض عليهم ما جاء فى الرسالة من وجهة نظره وقد بدأ بالأمراء الذين لم يحاربوا أو يرهقوا وقد نصبـــهم سناجق على البلاد التى فتحناها نحن بالقتال والإرهاق"

وكانت نفوس الأمراء قد ضاقت بالحرب ولم يستوعبوا أحـــلام أميرهم التى تفوق مقاصدهم المتدنية ، وكانت الغربة والبعد عن حريمهم وأولادهم قد أكلت نفوسهم . ثم قال لهم أبـــو الدهـــب (ما قولكم يا بكوات) ... سكت الجميـــع - وتكلـــم إســـماعيل

حريمهم وأولادهم قد أكلت نفوسهم . ثم قال لهم أبـــو الدهـــب (ما قولكم يا بكوات) ... سكت الجميـــع – وتكلـــم إســـماعيل بيك الجداوى فقال : وما الذى نقوله والـــراى لك أنـــت فـــأنت الآن كبيرنا ونحن تحت أمرك ورهن إشارتك !
(واستمر ينظر فى عينه وكأنه يذكره باللقاء السرى بين رســـل الباب العالى ووعودهم)
قال أبو الدهب بعد فترة صمت ثقيلة : ربما يكون رأيى مخالفـــاً لأوامر (أستاذنا) فهل يمكن ان ..
قالوا ، أنت (أستاذنا) الآن ولا نعرف غيرك ..!
ونظر أبو الدهب إلى إسماعيل بيك الجـــداوى – ذلك القائد الذى كانت له صولات وجولات فى حروب قبلى – وتجريدته علـــى (بنى حبيب) وهو الذى اقتحم (جده) فـــى تجريـــدة الحجـــاز فاطلقوا عليه – (الجداوى) ومحمد بيك ابو الدهب لا يهمه إلا ما يسمعه من إسماعيل بيك – الذى يطولـــه فـــى المقـــام ، قـــال إسماعيل بيك الجداوى مندفعا : (محمد بيك،أنت بالفعل أستاذنا)
ومد له يده يسلم عليه وكأنه يبايعه ، وتنهد أبو الدهب ، وارتاح فى جلسته ، وانتظر المجتمعون الكلمة الأخيرة من (أبو الدهب) .. وبعد أن نظر فى عيونهم وقرأ فيها العزم قـــال (نتعـــاهد ونحلف على السيف والكتاب) على الفوز أحضروا نسخة مـــن الكتاب الكريم ووضعوه فوق ســـيوفهم وأقســـم لـــه الأمـــراء بإخلاصهم وأنه أستاذهم من اليوم ومن يحنـــث تقطـــع رقبتـــه ويفصل رأسه عن جسمه ، ثم تحدث إليهم أبو الدهـــب حديـــث الأمير لأعوانه ، قال !
(على بيك الكبير يريد منا ان نقطع أعمارنا فى الغربة والحرب والأسفار بعيدا عن قصورنا وعيالنا . وكلما فرغنا من شئ فتح علينا غيره ولا يستفاد من ذلك إلا أعداء السلطان مـــن عـــرب وشوام وأولاد ،البلد ما لنا نحن والنعيم بين ، أيدينا ، أن تكـــون

ونعمل لمصلحتنا،وقد أرسل لنا السلطان بالوعود المقدسة وفـــى حوزتنا كتابه٠علينا أن نرجع إلى مصر وإلى قصورنا وحريمنا وأولادنا وأملاكنا وثرواتنا التى أفنينا أعمارنا فى جمعها ، والآن لا يتمتع بها سوى الخدم من أولاد البلد ٠٠٠!

سنعود إلى على بيك ونقول له ، إذا كنت تريد أن تفتح المماليك فولى غيرنا وكفانا نحن ما فعلناه من أجلك ومن أجـــل مجـــدك الشخصى) وقالوا جميعاً : ونحن على رأيك يا أستاذنا ٠٠

وقال أبو الدهب:بدى اسمع رأيك فىهذايإسماعيل بيك يا جداوى

قال إسماعيل : أعطنا الأمر ونصبح راحلين طالبين مصـــر٠٠

وإذا عارض على بيك لا ننتظر حتى يتآمر علينا ٠٠ بل نعزله ونوليك فى المشيخة ، فانت الآن أستاذنا وقد تعاهدنا على ذلك ، ومن يخون يهدر دمه ، حلال فيه القتل ٠٠٠!

******

وانفض الاجتماع ٠٠ وجلس أبو الدهب وحده يدير فى رأســـه خيالات نضجت واقترب قطف ثمارها ٠٠ ورأى انه جلس على دكة المشيخة وأرسل اليه السلطان بالفرمانات والمعونات – وبدا فى تسطير مجده الشخصى الذى طـــال انتظـــاره لكـــن وجـــه إسماعيل بيك الجداوى كان يطلع له فوق دكة المشيخة ينازعـــه فيها – ووجد نفسه يزيجه بعيدا وأفاق ليجد أن ذراعه قد اســـتل سيفه وأشهره فى الهواء ، كان الآذان للصلاة ينطلق من صوت رخيم ٠٠ كان عليه أن يذهب إلى الصلاة فجمع نفسه ومشـــى يترنح بأحلامة العريضة فى حكم مصر !

*****

خشى ابو الدهب إذا أمر التجريدات بالعودة الى الديار المصرية أن يقف له من تناهت لهم أخبار تعييهم فى المناصب بالشـــام –

أو يعارضه أمراء التجريدات التى تلاحقت خلفـــه ، فـأحضر إسماعيل بيك الجداوى وراحا يتفكران فى(حيلة) تثبـط همـم المعارضين وتجعـل الأمور لا تصل إلـى الفرقـة والـنزاع بينهم ، وقد كثرت عيون على بيك فى التجريدات التى أرسـلها بمهام محددة ، وعثر أبو الدهب على الحلية الشيطانية ٠

"صنع رسولا يأتيه من مصر برسالة ٠ وبعدها يجمع الأمـراء فى مجلسه ويفض الرسالة أمامهم وتقرأ ، فاذا بها خـبر بوفـاة على بيك الكبير ويكون عليهم أن يتكتموا الخبر حتـى تصـل القوات الأساسية إلى بر مصر خشية أن تكبس (الدولة العثمانية) على أموالهـم فى الشام ومصر ويخرجوا من المولد بلا حمص" واقتنع الأمراء المعارضون بضرورة العودة المنظمة ، تجريـدة خلف تجريدة ، كما جاءت فى السابق علـى ان يتعللـوا بـأى أسباب غير ما ورد فـى الرسـالة٠ ونجحـت الحليـة وعـاد محمد أبو الدهب وإسماعيل الجـداوى علـى رأس التجريـدة الأساسية الى مصر ٠٠٠سرا٠٠٠

لكن الأنباء سبقتهم بعودتهم وانتظـرهم على بيك فى ثورة لأنهم دخلوا مصر على خلاف المراد منه ولم يقتنع بأن (الاعـداء) دسوا لهم هذه الرسالة بموته وطمأنوه أن الشام لا يزال باقيا فى قبضتهم ولم يشع خبر موته فابتلع الأمر على مضض ، وبقـى الحال بينهم على السكوت المتوتر ٠٠!

ولكنه أصر على عودة التجريدة إلى أماكنها فى الشـام وأن لا تدخل المدينه ومحمد بيك يؤجل ، حتى يأخذ الناس راحتهم ثـم انقلب محمد بك إلى معارض للسفر ، إذا أنه صار يفصح عـن معارضته وضيقـه تدريجيا ، وكـان علـى بيـك طنطـاوى وآخرون من الأمـراء قد عادوا إلى مصر – رغم أن الأخبـار قد وصلتهم بأن شيخ البلد حى يرزق ٠٠وعندما وصل على بيك طنطاوى والأمـراء الأخرون اجتمع بهم على بيـك وتكشفـت

قد وصلتهم بأن شيخ البلد حى يرزق ..وعندما وصل على بيك طنطاوى والأمــراء الأخرون اجتمع بهم على بيــك وتكشفــت ألاعيب محمد أبو الدهب،واتفق مع بعضهم على الخلاص منـــه فركبوا الى قصره ليلا وأحاطوا داره لكن أبـــو الدهــب كـــان محتاطا،فجعل حرسه يتلاطم مع المهاجمين،وركب هووخـــرج فىخاصته وذهب الىجهة البساتين...

وكان على بيك قد ارسل ينبه على حرس الأبواب بعدم دخـــول أو خروج احد من الأبواب ، وتهيأت النفوس لحدث كبير علـــى وشك الوقوع دون أن يعلموا كنهه . لكن أبو الدهب تمكن مـــن الخروج من أحد الأبواب أذ ذهب ليؤكد على تشديـــد الحراســـة وضرورة غلق الأبواب جيدا فأطاعوه ، ثم عاد علــــى الفـــور وقال: افتحوا البـــاب لأرى بنفســـى الاســـتحكامات والكشـــاف المبثوثيـــن حول السور ففتحوا له الباب فمضى علـــى الفـــور هاربا من حرسه إلى الصعيد – وتلقـــى على بيك لطمـــة مـــن الماكـــر أبـــو الدهب عندمـــا علـــم بفـــراره وخروجـــه مـــن (مصر) ..سالما ..

وعلى الفور اجتمع على بيـــك بـــالجداوى دون أن يعلـــم بـــأن الجـــداوى موالساً معه ، يشكو له تمرد ابو الدهب وعرض عليه ان يجمـــع القوات العائدة معه ويخرج بها إلـــى الشـــام وان لا يعلن هروب أبو الدهب حتى يقابله ويزيل ما فى نفسه ، وذلـــك لوحده الصف فوافق إســـماعيل الجـــداوى واجتمـــع بـــالأمراء المتآمرين وطلب منهم التشهيل بـــالخروج ، وبـــالفعل جمعـــوا مماليكهـــم وعسكرهم الأوفياء لهم وخرجوا من مصر ، ليـــس إلى الشام ، ولكن الى الصعيد يلحقون بأستاذهم الجديد وأتت إلى محمد أبو الدهب المعونات والجباخانات من باشا الشـــام عـــدو الامس ، وانضمت إليه القوات التى لم تدخل مصر من تجريدته الأولى – وفى الصعيد استمال الهواره . وملك جرجـــا وهبـــط

والعثمانية أرسلوا بالخيام والطعام والذخيرة وقــوات لمعاونتــه وضعت تحت تصرفه (طبقا لحظة أسمتالته)٠
وتلقى على بيك الكبير لطمه أخرى يتآمر (إسماعيل بيك الجداوى) وخيانته له وقد قطعت الغلال الواردة من وجه قبلى فــــارتبكت الأحوال فى مصر ٠
وطلب على بيك الاجتماع بأيوب بيك خشـــداش أبــو الدهــب للمظافــاة مع زميله وقال له:اذهب إلى أبو الدهـــب وصـــافى نفسة وقـــال له عيب أن تعـــض اليـــد التـــى أحســنت إليــك وأطعمتك!وذهب أيوب بيك فى باقى مالدى أبــو الدهــب مــن مماليك فى مصر ٠٠

******

واستعجلت القوات التى وضعت نفسها تحت أمرة أبــو الدهــب خاصه بعد أن لحق المنافى من أنحاء الدولة العثمانية ومن وجه بحرى ورأى على بيك الكبــير أن محمــد أبــو الدهــب هــو (رأس الأفعى) الذى يجب أن يطير فتعود إليه الأوضاع كمـــا كانت قبل أن تغرق فى الفوضى ٠
تعجل وأرسل رسولاً إلى أيوب بيك يحثه على عمل الحلية وقتل محمد بيك أبو الدهب لوقــف انشقاق الصف ووعده بالأمـــانى لكن عيون محمد أبو الدهـــب أوقعــوا حــامل الرســالة إلـــى أيوب بيك – وأحضروها إلى محمد أبو الدهب ، قرأ أبو الدهب الرسالة ، وقال للنجاب سأنجيك من الموت وأعفو عنك فانا شيخ البلد الآن وما هى إلا أيام ويرحل على بيك٠٠
بكى الرجل بين يديه معلنا أنه رسول وما علـــى الرســول إلا البلاغ فمنحه بعض الدراهم وطلب منه أن يستمر فى توصيـــل الرسالة وان يأتيه بالرد ويذهب إلى حال سبيله وإلا ترصـــدوه

وقتلوه ٠٠ ووافق الرسـول على ذلك وذهب بالرســالة إلــى أيوب بيك وطلب منه الرد ٠٠ فاعطاه الجواب الذى ذكر فيــه لعلى بيك (أنه مجتهد فى تتميم الغرض ومتوقـف ذلـك علــى حصول الفـرصة) وحضر الرسول بالرسالة إلى محمد بيـك أبو الدهب ، فنقـده بعض الدراهم وقد تحقق من تـآمر أيـوب بيك ضده واتفق مع خاصته على ان يحضر أيو بيك إلى مجلسه وإذا حضر كل واحد يأخذ نظيره من المماليك ويتحفـظ عليـه حتى يناقشه ويفرغ من الحديث معه ، وقاموا باستدعاء أيـوب بيك فحضر وتم تنفيذ ما ألقاه على خاصته من تعليمات كل واحد رافق نظيره ٠٠ وأخذ أبو الدهب فى مناقشته ٠٠

- ياهتلرى يا أيوب بيك نحن مستمرون على الأخوة والمصافاه والصداقة والعهد واليمين الذى تعاقدنا عليه فى الشام ؟
- نعـم وزيادة يا أستاذنا ٠٠ فأنا قد حاولت المصافـاة بينـك وبين على بيك ووجدتك على حق ٠٠
- ومن يحنث ذلك اليمين وينقض العهد ؟
- يقطع لسانه الذى حلف به ، ويده التى وضعها علىالمصحف
- بلغنى بأنه أرسل إليك رسالة وكتاب" قال :٠٠
- أبدا ٠ هذا لم يحصل ، وإذا أتتنى منه رسالة لأطلعتك عليها

ولا يصح أن أكتمها عنك قال أبو الدهب (لارسالة ولا جـواب) قال أيوب بيك (لارسالة ولا جواب) عند ذلك أخرج لـه أبـو الدهب الجواب من جيبه وسأله (أليس هذا خط يدك)
فأخـذ يتعلل بأعذار واهية (مالى أنا وهذا الجـواب - ربمـا كانت فتنة بيننا ، وأنت تعلم ألا عيب أستاذنا) قال له (يعنى انت لم ترسل إليه بالرد ٠٠ وهذا ليس جوابك - وقـرأ عليـه مـا أملاه - ثم أعطاه ظهره وأخذ يتكلم ٠
" لا يصـح مرافقتك لى ، قم واذهب إلى سيدك الذى اخترت أن تكون بجانبه٠"

بذلك جعل المراقبين من أمرائه وأعوانه يتخلون عنه ثـــم قـــام بالقبض عليه ، وأنزله إلى المركب فى النيل وحبســــه فيـــها ، وأحاط بوطاقه وأسبابه ، وانتظر حتى تفرقت جماعتـــه عنـــه ، فلما صار وحيداً امر رجاله بقطع لسانه وقطع يده كمـــا حكـــم على نفسه ،فأشعلوا المشاعل وبدأوا فى التنفيـــذ ليـــلا فقطعـــوا يمينه، ثم شبكوا فى لسانه (ســـنارة) وجذبـــو لســـانه خـــارج فمه ليقطعوه ، لكنـــه تخلـــص منهـــم وألقـــى بنفســـــه فـــى النهـــر فغرق ومات فى ساعته ..!

وبموت أيوب بيك تغير الموقف ، فالجميع علم بما يـــدور مـــن صراع بين الأستاذ والخادم وانهالت المساعدات على محمد بيك أبو الدهب وبدا للجميع أن أبو الدهب حاكم الصعيد بلا منازع ، وانه يستعد للنزول إلى مصر لنزعها من يد (أســـتاذه) ويعيـــد إليها العادات القديمة كما كانت !!

أعد على بيك تجريدة عظيمة ، وضع فيها آخر ما يدخـــر مـــن ذخيرة وآلات الحرب وعتاد ، وأثناء تجـــهيزها ، اتصـــل بـــه حسيب بيك البنهـــاوى وعرض عليـــه ان يولـــى علـــى هـــذه التجريدة (أبناء البلد) الذيـــــن (شمـــوا نفســـهم) ويمنحـــهم الفرصـــة ، بأن يحاربوا معركتهم ضد أبو الدهب وأعوانه الذين يبغون عودة العادات القديمة التى تبدلت بما فيه مصلحة النـــاس واهل البلد - لكن على بيك ، خشى أن لا يتقن اولاد البلد فـــن الحرب ، وهى معركته الأخيرة التى وضع فيها كل أملـــه فـــى استعادة الأوضاع كما كانت بين يديه ، ويتعلـــل أمـــام حســـيب البنهاوى وحمدان الأسيوطى • بأنه خبـــير بنفســـيه الممـــاليك والعثمانية وأن العسكر المرتزقة الذين يحاربون معنا ، وهـــم لا يملكون إلا ملابسهم بأنفون من وجود أمير عربى أو مصـــــرى عليهم - وهذا ثأر قديم، لعلو شان العرب ، وقد نـــزل القـــران الكريم بلسانهم •وقال : اتركوا لى التعامل مع العجم حتى تستقر الأحوال ونرى ماذا سنفعل بعد ذلك وقـــد اســـتبقى اولاد البلـــد لحماية المدينة بالداخل من أية فتن تدبر ضـــــده وقـــام بوضـــع (القطاوى بيك) وهو أميرمن مماليك إسماعيل بيك الجـــداوى ، فضل أن يبقى معه ، ولا ينضم لسيده فى تمرده ، ولم يدر بخلد الشيخ انه يولى الأماره على أخر ما تبقى له لأحـــد انصـــارهم الذين استبقوهم عنده،وان القطاوى بيك من المماليك المتوسطة ، لجـــأ إلى خداعه ، حتى صدق إخلاصه لاستاذه الكبير ، ومـــــا

الذين استبقوهم عنده،وان القطاوى بيك من المماليك المتوسطة ، لجـأ إلى خداعه ، حتى صدق إخلاصه لاستاذه الكبير ، ومـا كاد يخرج بالتجريدة إلى الصعيد حتى اعلن انضمامه إلى أبـو الدهب وإسماعيل بيك الجداوى – ففقد (شيـخ البلـد) عتـاده الأخير ، إذ أن المرتزقة من العسكر يوالون لمن يدفع أكـثر ، عند ذلك نزل بعلى بيك الكبير القهر ، والغيظ الكظيـم ودخـل عليه حسيب البنهاوى وحمدان الاسيوطى يطيبـان خـاطره ٠ ويقولان له : ان فى رحيل الخونة وهربوهم ،مصلحة، فقد ظهر له الطيب من الخبيث قبل الصدام الأخير ٠٠٠

لكن اللطمة كانت قد شرخت نفس الشيخ ٠ وهو يرى احلامـه العظيمة بعد ان صعدت وارتفعت فى السماء كنجـم مضـئ ، تتفجر وتتناثر الى شظايا ٠٠٠!

وقـام وصادر كل ما للأمراء الذين انقلبـوا عليـه ، وجمـع الأموال من كافة الجهات ، وقام بتجهيز تجريدة أخرى ، ولـى عليها سبع سناجق صغار من قصره ، أطلقوا عليهم فى الصعيد اسـم (السبع بنات) لعيشتهم الطويلة فـى الـترف ، وعـدم صلاحيتهم للجهاد ٠٠٠!

وهم مصطفى بيك وحسين بيك وحمـزة بيـك ويحـى بيـك وخليـل بيـك كوسه ومصطفى بيك و(مراد بيك)الذى سيكون له شأن فيما بعد ٠وعمل لهم برقا وداقما ولوازم طبلخانات فـى عـدة أيـام ٠ وضـم اليهم عسـاكر وطوائـف وممـاليك وأتباعـا٠ وبرز بنفسه راكبا حصانه إلـى جهـة البسـاتين ، وشـرع فى تشهيل ٠٠تجريددة أخرى عقد على رأسها علـى بيك الطنطاوى وأخرج الجبـاخانات والمدافع الكثـيرة وأمـر بعمل متاريس من البحر إلى جهة الجبل ، ومشى بنفسـه فـى صحبة الأمراء الذين قلدهم ويشد من أزرهم ويوصيهم بمحاربة محمد بك أبو الدهب وإسماعيل بيك الجـداوى ومـن معـهما

بجديـــة ولا يهابوهم وقد وردت الأخبـــار بـــان أمـــراء قبلـــى سائرون يريدون دخول مصر بجيش عظيم. فتلاقى الجيشـــان عند (بنى سويف) إلى الشمال فى مكـــان يســـمى (بياضــه) وانهزم عسكر على بيك وسلم عدد كبير مـــن الأمـــراء الجـــدد للأمراء القدامى ، وانضموا لهم وعلى رأسهم مراد بيك الـــذى كان يبحث عن فرصته . عند أبى الدهب ..

وبقى على بيك الكبير فى مصر وحيدا ، إلا من خدمه وحمشـــة يصدر لهم الأوامر ويظهر التجلد ، بينما عســـكره قـــد تفرقـــوا وباعوه (برخص التراب).

وحضـــر محمد أبو الدهب إلى البر المقابل للبر الذى ينصـــب فيه علـــى بيك خيمته ، وقام و نصب صيوانه الفخـــم وخيامـــه ذات الرايات لإقامة الأمراء حوله ، وكان على بيك ينظر إلـــى صيـــوان أبو الدهب وخيامه وهو فى قله من أعوانه مع شـــئ من الاعتزاز والتكبر ، لكن الحزن كان باديـــا عليـــه ، بينمـــا حسيب البنهـــاوى وحمدان الاسيوطى جاء إليه مع شراذم مـــن أولاد البلد وصحباه فى ظلام الليل ، وعادوا بـــه إلـــى مصـــر ليستحكم فيها ودخلوا به من باب القرافة ..

وهنا توقف على بيك أمام المقابر ينظر اليها ويتمتـــم ببعـــض الدعـــوات للأموات ، ولعله شعر بدنو النهاية فـــى خطواتـــها الحثيثه إليه ..

وطلع إلى باب العزبان بالقلعة وقضى به حصته مـــن الليـــل ، وركب إلى داره يعاونه حسيب وحمـــدان فـــى حمـــل أموالـــه ولوازمة الخاصة . وقد أرسل ابناءه إلى البيت الصغـــير مـــع حـــريمة ، وعدد من الجوارى وأوصى بالعناية بـــهم والدفـــاع عنهم .. حتى يعود ..

وفى الفجر كان قد خرج إلى جهة الشام قاصدا حليفـــه ضـــاهر العمر ليعاونه. وفى صحبتة على بيك طنطاوى وحرسه ومـــن

المتصــــرف فى شئون المالية لإحضار ما بالخزينـــــة ، ولكـــن رزق اختفى ولم يظهر له أثر ٠٠٠
ولـــم يشك على بيك من أختفاء رزق ، فان الخبر كان قد وصل اليه بإبطال العملة المسكوكة باسمه فى وجه قبلى ، وبحضـــور أبو الدهب إلى مصر بعد أن يغادرها لن يستفيد احد من بـــاقى الأموال التى بالخزينة ٠
ولكنه كان يأمل فى معونة من حلفائه فى الشام (ضاهر العمـــر) والعودة إلى مصر ، وفى ذهنه انهم تجمعوا ضده ، ولكن سريعا مـــا تعود إليهم عادتهم القديمة فى الـــنزاع والمقاتلـــه فيتفـــرق شملهم كما أن العثمانية سيعملون على تفريق الجميع وتفتيتـــهم وبعدها سيسهل عليه العودة إلى مكانته كان يسير نحو الشـــرق ٠٠ ويبتعـــد عن الديار التى عشقها وتمشى جماعته فى عيـــن الشمس ، وشعاعها المبكر يلفهم ، اذ وقـــف حســين البنـــهاوى وحمدان الاسيوطى تلمع فى عيونهما الدموع ومعهما رهط مـــن ابناء البلد كانوا يرمقون على بيك وهو يبتعد وكان علـــى بيـــك يتجـــالد ويغالب البكاء اذ إنه لم يكن وداعا ولكنه كان انـــهياراً وانكساراً لأمل عظيم كبر يوم بعد يوم فـــى نفوســـهم ، وكـــان حمدان يشعر بأن هـــذا الشيخ قد وضع يده عليه ٠٠ فـــامتدت يـــديه بطيئة لتخلع عمامة المماليك من فـــوق رأســـه ، وهـــذه العباءة المزركشة ، والاسيوطى والبنهاوى كل منهما تناول شاله وضربه على رأسة، ومضيا بجماعتهما إلى داخل مصر ٠٠٠ لا يدريان ماذا سيحدث بعد ذلك الوداع المؤثر ٠

******

عدى محمد بيك أبو الدهب إلى مصر وملك البلد ، ونـــهب دار على بيك الكبير بعد ان حطم أبوابها وكانت داراً عظيمة تطـــل

على بركة الأزبكية بدرب عبد الحق ، وأعلن ابطال العملة التى ضربها على بيك باسمه ، وهى قروش مفرد ومجـــوز وقطـــع صغار تصرف بعشرة أنصاف فضه وخمسة أنصـــاف فضـــه ونصف قرش ٠٠٠
وكان أكثرها نحاساً وعليها علامة على بيـــك واعـــاد المنـــاداة والدعـــاء (للسلطان) على المنابر - وأن يعلن من كانوا ينادون بعلى بيك سلطانا توبتهم أمام المصلين ، ويباشروا أعمالهم فـــى المساجد فانقلب الحال من النقيض إلـــى النقيـــض ، وصـــاروا يلعنون (الرجل) وأفعاله ، ذلك الرجل الـــذى كـــان بـــالأمس معبودهم، أما دعاة صالح الفلاح فقد اختفوا ، فى انتظـــار مـــا تسفر عنه الأحداث٠

******

لكن الأخبارتواترت بان علىبيك الكبيرعائد بجيـــش عرمـــرم- قدمه له حليفـــه ضـــاهرالعمر-فتخبـــط النـــاس فـــى أقوالـــهم وأحاسيسهم،والبعض كذّب هذه الأخبارالتى هى أضغاث أحلام ، لكن على بيك عاد بالفعل وعسكربخيامه إلى جهة الصالحيـــة ، ونصب الصوان الكبير هناك،وهو صيوان فى غايـــة العظمـــة والأتساع والعلو وجميعه بدوائرمن جوخ وبطانتـــه بـــالأطلس الأحمر ، وشاهد شهود عيان طلائع عسكره فى خواذتـــهم مـــن نحاس أصفر وأضاف الناس على ما يسمعونه الكثير من أمانيهم وقـــد بدأ البعض يجرون وينضمون إلى عسكرعلى بيك لكـــن أبو الدهب سارع وطلع له بقواته إلىالعادليـــة:وقـــال للأمـــراء المماليك (إنها معركتكم الأخيرة يأمراء ، إذا ملككـــم أســـتاذنا ، ذبحنا جميعا وفرق لحمنا على كلاب السكك ٠٠!)

وكان تحت أمرته كافه الأمراء بما يملكون وبما تحت أيديهم من رجـال وعتاد ٠٠ ولم يهدأ أبو الدهـب فـان الصـبر علـى (الشيخ) سيجمع حوله مالا طاقة له به ، وهو صـاحب حيـل وألاعيب ، وكانت الهزيمة من نصيب على بيك - من جـراء خيانة المرتزقة من مشاه المغاربة٠وأصيب على بيك بجـروح أثناء الصدام وهو الشيخ الذى كان يحـارب بيـده - وكـانت إصابته بليغة فى وجهه وصدره فسقط عن جواده وأحاطوا بـه وحملوه إلىخيمةمحمدأبوالدهب-فقام أبو الدهب وخـرج اليـه وتلقاه ، وحمله مع الجنودمن تحت إبطه وأرقـده فىصيوانـه وكان الشيخ ينظر إلى خادمة بتلك النظـرة المحملـة بالعتـاب والحـزن فإذا بأبوالدهب ينكب ويقبل يده٠٠كان الجرح ينزف ، فأمر أحد الأطباء بأن يداويه وأخذ بشربـة المـاء بيده٠٠لكـن الأخبارتواترت بمقتل على بيك الطنطاوىوسليمان بيك كتخـذا وعمر بيك جاويش وغيرهم ٠ وهم أركان حرب على بيك الذى أتى بهـم من الشام فحـزن وفقد الوعى ٠ فترفق به أبو الدهب ووضـع عليه حراسة من خاصته ٠٠وقال لمراد بيك (وقد اراد الخلاص منه) ماذا يفعل لنا شيخ عاجز جريـح يعشقـه أولاد البلد٠٠؟!

******

٠٠حضروا بالرجل إلى مصر بعد ان سبقته أخبـار هزيمتـه وأنزله محمد بيك فى منزله الكائن بالأزبكيـة وكـان منـهوبا فاعادو تأثيثة وجاء إليه حمدان بأولاده وحريمـه مـن حـارة الاسيوطى ٠ وأجـرى عليه أبو الدهب الأطباء للمـداواه مـن جراحـه لكن جراح على بيك النفسية كانت عميقة ، منذ علم أن مراد بيك انضـم إلى محمد أبو الدهب فى التجريـدة الكبـيرة

وكان يدنيه من نفسه ولم يكن مغشيا عليه ،عندما سمع اقترحه على أبو الدهب بالخلاص منه وقد سمعه بوضوح فزاد من ألمه ٠٠٠!

******

وفى ٨ مايو ١٧٧٣م
عند دخول الحجيج بالمحمل عائدين من الحج دون خسائر ٠٠ والطريق الذى هيأه لهم أمان والدنيا (زائطة) فى استقبال الحجاج وقد ازدانت البلد بالرايات والتعاليق ٠كان على بيك يفتح عينيه ويغمضهما وكان يرى حمدان الأسيوطى وحسيب البنهاوى وقد انصرفا لخدمته وتطبيب جروح نفسه وحماية أولاده و كان يلوح له طيف بأن أولاده ،سيحكمون البلد على الشريعة السمحاء بدون ضغائن وفتن وحروب ، وان أولاده سيعيشون فى دنيا غير هذه الدنيا التى تزخر بالخيانة والمؤامرات ٠٠٠ وفى تلك الليلة والناس منصرفون لاستقبال الحجيج بالتبريك والزغاريد ٠٠
لفظ على بيك الكبير النفس الأخير ٠٠ وانحنى رأسه الكبير على صدره٠ وبذلك تنطوى معه صفحته الأخيرة من كتابه الذى حاول أن يسطره بنفسه ٠
وكانت مفاجأة لحمدان وحسيب أن يموت الرجل بعد ان تماثل للشفاء٠ وقيل أن مراد بيك ألح على محمد أبو الدهب بأن يفرغ من الرجل الذى قد يقوم صحيحاً معافى فيسبب لهم القلق فهو أستاذهم ولا بد أن ينحنوا أمامه ويقبلوا يديه فى طاعة كاذبة ،وحتى ينفتح لهم الطريق مع الدولة العثمانية ولا يصدمون بحيله منه تنزع

من بين أياديهم كل شئ وأصر على الخلاص منه واخبر اوافقـــه أبو الدهب فسأل : كيف ؟!
وأقترح مراد بيك وقد كـــان الرجـــل حـذرا لا يتنـــاول طعامـــا إلا إذا أكل منه الطباخون بأن يوضع له الســـــم فـــى جراحه ··· وبذلك مات
وأقـــام له أبـــو الدهب وباقى الأمـــراء الذين كانـــوا يحاربونه، مأتما كبيرا وتقبلوا فيه العـــزاء ·· وأولاد البلـــد يندهشـــون ويرددون فى مجالسهـــم ··
" يقتلون القتيل ويمشون فى جنازته "
وكان أولاد البلد يترحمون بصدق على الرجل الفلتـــة!! الـــذى دعاهم بأن يرفعوا رؤوسهم عاليا (ويشموا نفسهم) · فمـــلأوا صدورهم بهواء مصر العليل وارتفعت رؤوسهم عالية – اذامـــا أمتلأت صدروهم بنسائم الحرية · وكان لهم دورهم·
وقد أختلط الوهم الجميل بالواقع المرير ···!
وقال حمدان الأسيوطى وهو يـــودع الرجـــل الـــوداع الأخـــير (من المؤكد ان هذا الرجل ترك مصر على غير ماكانت عليه) وسأل أن يترحموا عليه وقال لمن حوله :
من منكم ·· يبنى على ما بنى (مدماك)آخر ··؟!

"وانتهت مرحلة"

عبد الفتاح مرسى

سيدى بشر – الإسكندرية

شتاء ٩٣ إلى خريف ١٩٩٧

كتب صدرت للمؤلف

• رواية	– على حافة النهار	– الثقافة الجديدة ١٩٩٣
• رواية	– الدحديرة	– على نفقة المؤلف ١٩٩٤
• رواية	– المحسوس والملوس	– المجلس الاعلىللثقافة ١٩٩٥
• رواية	– المقطوع والموصول	– كتاب فاروس ١٩٩٨
• مجموعة قصص	– شهوة الموقف المتحرك	– دار الوفاء لدنيا الطباعة١٩٩٨
• دراسة	– الفن فى موكب الوعى	– دار الوفاء لدنيا الطباعة ١٩٩٨
• رواية	– أحزان الصباح الجميل	– دار الوفاء لدنيا الطباعة ١٩٩٩
• رواية	– الليل وجبروته	– دار الوفاء لدنيا الطباعة ١٩٩٩

كتب تحت الطبع

• زعربانة – رواية – اجيزت بالمجلس الاعلى للثقافة وقيد الطبع

• زغاليل باكوس – رواية – دار الوفاء لدنيا الطباعة – بالاسكندرية